مي منسى

حين يشقّ الفجر قميصه

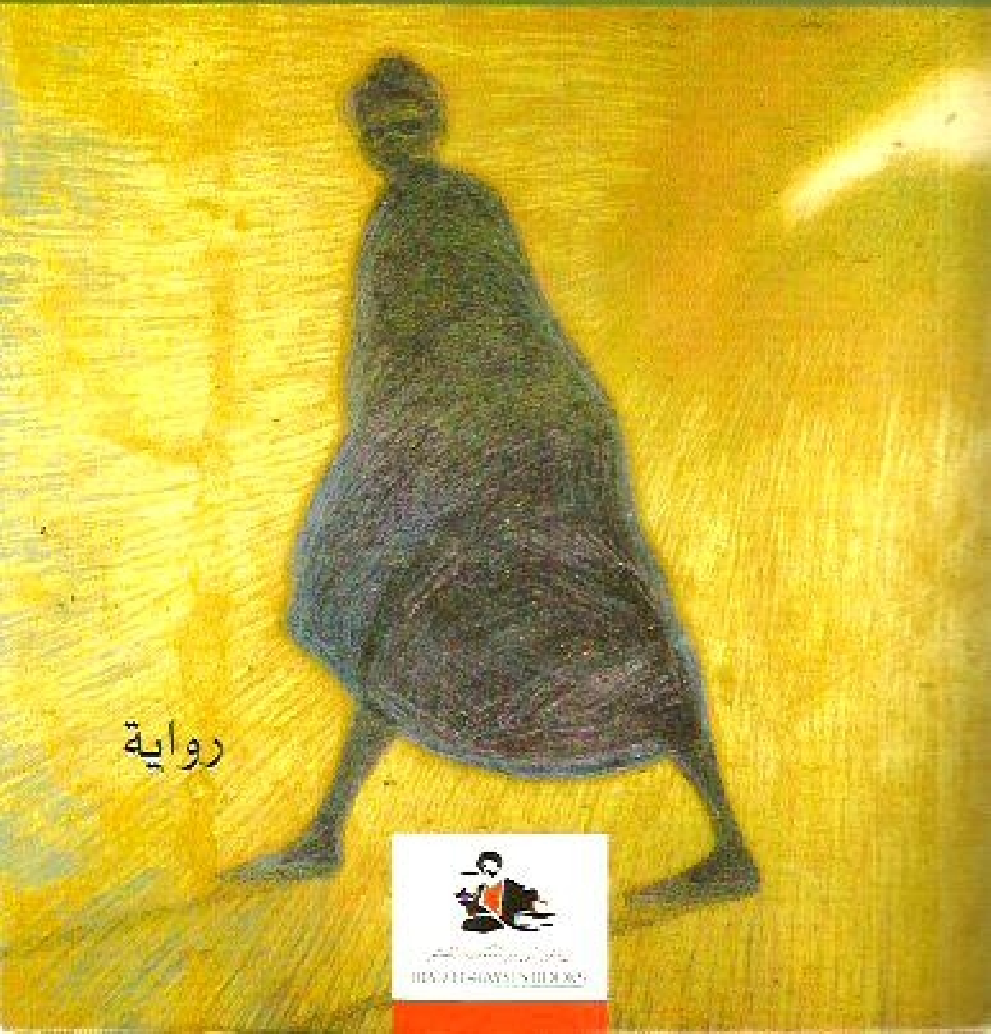

رواية

حين يشقّ الفجر قميصه

حين يشقّ الفجر قميصه

مي منسّى

حين يشقّ الفجر قميصه

رواية

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

When The Dawn Tears Its Shirt

May Menassa

Novel

First Published in September 2009
Copyright © **Riad El-Rayyes Books S.A.R.L.**
BEIRUT - LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb - www.elrayyesbooks.com

ISBN 9953 - 21- 446 - 8

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without prior permission in writing of the publishers.

الطبعة الأولى: أيلول (سبتمبر) ٢٠٠٩

لشراء النسخة الإلكترونية:
www.arabicebook.com

تصميم الغلاف: محترف بيروت غرافيكس

هي الحكاية ذاتها الممعن قلمي على تكرارها كلّما امتلأ خزّانه بحبر الذكريات المغبّشة، تلك التي تهبّ كرياحٍ عتيقة من أزمنةٍ بعيدة، تزاحم شجون الحياة اليوميّة، المربكة خطواتنا، تنسلّ بين خيوط جدارية وطن حفرت الحرب الطويلة في وجهه تجاعيد قاسية كأثلام الحقول الجافّة بعد حصاد، تختلط بها فيفقد الوقت الساري في تقويمة الفصول ذاكرته، يضيع بين البارحة والأمس ولا يعير انتباهاً «للآن» الذي تلقائياً يمضي بعد هنيهة ويغدو ذكرى أو تيهاً.

هي حكاية امرأة ما زالت منذ عقود تحرّك على نار شحيحة طبخة الحياة، تتأجّج فيها حقبات العمر، من زمن الطفولة هي، من طعم المراهقة العجرة، من وطنٍ وغربة، من لقاءاتٍ وافتراقات، من حبّ مستحيلٍ دوماً، كالسراب يلمع، نظنّه ماء وارتواء وفي الاقتراب منه خواء وقشب.

المقادير هي ذاتها تتخاوى في بعضها وتظلّ كالعقاب، فجّة، لا تنضج، فالمرأة تخشى على حكايتها من أن تخونها الذاكرة، تخشى أن تنطفئ نارها فتذوي الحرارة الممسكة بقدرها.

يا لها من مبارزة بين الذاكرة والنسيان، الغالب دوماً هو اللهب المستغيث في قعر الأزمنة، تتفشّى منه ومضات حارقة، تتكمّش بحواس المرأة، تتنشّقها، لا تكاد تتلقّى نكهتها العابرة حتى تتحوّل تحت لسانها إلى رماد.

امرأة تحرّك بقلمها كلمات في نقيعها أخبار ووشايات وشائعات، تقرع كطبول الغجر على دروب الورقة، تنعى موتاً أو تزف ما يشبه رهجة الأعراس، فترتسم في بالها ألوان مزركشة وأجراس عيد ومآتم بلا نعوش تكذّب أسطورة الموت.

كلماتها تغدو أصواتاً، شظايا أصوات، عربدات ألوان، نغماً عنيفاً من أنفاس ناي، تستثير على إيقاعها نار الطبخة البطيئة، المتمهّلة، المتأنّية حتى لا يفرغ القلم من احتقانه، فإذا بالإيقاع يعلو فوق خانة القلم، عنيفاً، جارفاً لا تقوى على لجمه.

ما سرّ هذه الذاكرة العجيبة تطارد الحاضر وتأسره بين قضبان الأمس، تشير إلى القلم اتجاهه فلا يعصى، هو الذي أدرك في مساكنته أوراقها أنّ في حبره حياتها، طفولتها، تمزّقاتها، وطنها، غربتها، يرسم لها كلمات هي بحاجة لأن تسمع صداها، بل أكثر من الصدى، هذا الدويّ الذي يستفز مناطق الفكر ويؤجّجها.

حياة بكاملها تعيدها أوراق هذا الدفتر المسطّر حتى لا يخرج القلم عن الزيح ولا تتيه الفكرة عن طريقها، تكررها بلا ملل، تفتح

فجوات في الذاكرة، تستخرج من تربتها أشياء مشرّشة ككعاب شجرة زيتون ميّتة. لقد كانت تسأل نفسها وهي سائرة على دروب السطور، تملأها بالكتابات السوداء، إذا ما كانت الكلمة تولد في فكرها قبل العبارة. سؤال نرجسي كان يحوّلها إلى نحّات، يتفاعل بإزميله وهو يقولب الحجر ويموّضه ليرتفع به نصباً رائعاً. هكذا كانت ترى الكلمة، ورشة متكاملة بحدّ ذاتها ترشح من مسامها روحاً ونبضاً. لذا كانت تتوقف هنيهات أمام ولادة الكلمة، مندهشة، لا تكاد لا تصدق معجزة الأبجدية التي تخلق من بضعة أحرف آيات من معان، من تفسيرات وتأويلات، الكلمة التي تشعل قصيدة كما تشعل ثورة.

في أوراقها السابقة التي كانت تلمّها كأوراق الخريف بعد أن تكون الرياح التشرينية شتّتت ذاكرتها بين وطن وغربة كانت تقرأ ذاتها المشتّتة، تلمح عذابات نفسها تتسلل كبزّاقة سطّرت بلعابها اللغة ولا تتروى لفهم أعمق لهذا الأنا الحميميّ الموصد أبوابه على ذاته. الآن في هذه الخلوة الريفية التي اختارتها للهدوء والسكينة صار لقراءة الذات انشراح. الكلمة، من الوقفة الورعة أمام كيانها، يتشخصن الضمير الغافي، ينتفض، يتبلور. الكلمة كبصلة تتعرّى طاقاً تلو طاق من قشورها لبلوغ ذلك الجسم الصغير، الحاوي قلب الحياة ومنه تولد سهول بصل بكاملها.

كم من المرّات خشيت أن يغلب شغف الكتابة، أكان في المقالات الأسبوعية للصحافة أم في أوراقها الخاصّة، على ذلك العهد الذي قطعته في أن يظلّ الكمان الجسر الرابط بين الغائبة وبينها. ففي احتكاك القوس بالوتر كان حنينها إلى هناك يستفيق، يعيد إلى الطفولة المحطّمة فستانها المعرّق وقبعة القشّ الصيفية. إليها كانت

تطلب من بيتهوفن أن يوافيها في هذا «الأداجيو» الموجع الذي دخل خلسة إلى «سوناتا كروتزر» ليُذبل في الوتر المسنون طرابينه المزهرة، كانت، والكمان بين الكتف والخدّ، تسمع بيتهوفن يطلب منها أن تعيد مرّات هذا الفاصل الذي يجعل الخشب يذرف دموعاً ولا يدري أنّ في كمانها حكاية موجعة من تلك الحكايات التي وحده القدر باستطاعته تلفيقها وقد حاولت مرّات أن تحوّل مجراها إلى الكلمة النازفة من حبرها القاتم ولكن وبكل وضوح كانت واثقة من أن السرد الصحيح، الصادق هو للقوس إذ ما أن تلمس الوتر حتى تشعر بمعجزة الانتقال إلى ذلك العمر الورديّ، يتعالى منه غناء توأمها الرقيق، العذب، فيتسمّر النغم المعزوف في خانته، ليعلو الغناء كما بالأمس البعيد متوأماً بصوتيهما، لا سيّما هذه الأغنية التي كانت في عيد الأمّ وكأنها مولودة من حنجرة واحدة لشدّة التصاقهما الواحدة بالأخرى. وما أشرسها تعود توسوس في دماغها غالباً في الأوقات التي تكتظّ فيها الشوارع بالناس والشمس المسلطة فوق الرؤوس تنذر باشتعال رشق جديد من الراجمات.

يدهمها غناؤها الساطي على حياتها، وقد عبر معها سنوات العمر مشاكساً، مطالباً بإصرار، فتنشلّ مقوّماتها الفكريّة التي كانت منذ هنيهات تحسب للراجمة ألف حساب وتستبق بحدسها المتوتّر أبداً قدومها. فتدرك وهي في شبه غيبوبة أنّ ثمّة صوتاً نابعاً من بئرها الصدئة قام يلبّي نزوات الغائبة، ناشزاً، مرتجفاً، صوتها هي، يكسر الموازين، فيما الصوت الآخر يرتفع من أحشاء ذاكرتها، صافياً، رقراقاً لم يتسنّ لعمره القصير أن يتغبّر على دروب الزمن.

كلّ ذلك فرض على قلمها مساحة يفرغ عليها احتقانه من هذا المخزون الموجع. كانت في محاولاتها اليائسة لاستعادة الأغنية

بلحنها السليم، كمن يودّ إيصال رسالة إلى عزيز في الغربة، بقلمٍ فارغٍ من حبره. تؤرجحها الأفكار، تبلبل اتزانها، تسمع صوت نسيمة الجدّة تحاكيها من بعيدها، وكأنّها تنير لها الأماكن المبهمة في رأسها: «الإنسان لا محالة مطارد من حاضره وماضيه، لا يستقرّ إلاّ في الموت». قالت في سرّها: للأموات ذاكرة تكلّمنا بالغناء، تستفزّ الصمت القائم بيننا وبينهم، يأتون على غفلة، غرباء عن عالمنا، موشّحين بأسرار الكون. هم على حالهم كما فارقونا، يمدّون لنا يداً باردة لا أشواق فيها ولا حنين. الأمس البعيد حملوه معهم إلى هذه الغربة التي أرست يومها فاجعة في البيت والقلب، دون أن يقطعوا الخيط الرابط بيننا وبينهم. يعودون في المنامات، في ومضات تطلقها الذاكرة كمن يلد جنيناً ميّتاً، ليرجعونا في لحظة إلى ماضٍ، إلى أماكن، اشتاقوا إليها ربّما، تغيّرت ملامحها في ذهننا، أماكن مبهمة، ظليلة، لا ضوء فيها يكشف عن معالمها، مرتبطة كلّها بذلك الماضي هذا الميّت العاصي علينا اقتلاعه.

الماضي... ردّدت المرأة هذه الكلمة مرّات. محطّات الأمس عديدة، ما من لحظة إلاّ وتغدو أمساً. تذكّرت بيتين للشاعر أراغون:

«ذات مساء يصبح للمستقبل إسم آخر: الماضي

عندئذ نتطلع إلى الوراء ونلمح شبابنا»

ينادينا إليه باستمرار، بحفافيه المتآكلة، بتجاعيده، بعتيقه الرثّ الذي نخاله منسيّاً في صندوق المهملات، يتحيّن فرصة، إشارة، كلمة عابرة، لحناً يخرج كأنّه الوجع من الصدر، ليعود يطفو على وجه الأحداث، بهذه السلطة القدرية التي أعطيت له. الماضي هذا الميّت

الذي يستفيق بلا إنذار ليذكّرنا برباطنا المتين بجذوره، يلتف علينا كعارشة الأدغال تلك التي تجعل من الأشجار طريدتها.

الورقة أمامها تمنحها في هذا الصباح حريّة الكلام. تشعر بحاجة ماسّة إليها لتشفى من هذا الورم المتفشّي فيها: الماضي. تسمعه يرندح ألحاناً، يقرع كأجراس الميلاد، ينعى موتاً أو غياباً، يوسوس في نخاع الفكر، مكرّراً ذاته في كلمات تسرع في تسجيلها على الورقة قبل أن تذوي كالمنامات التي يصعب التقاطها. كلمةٌ واحدة ربّما أرادت قولها لتريح نفسها من هذا الثقل الضاغط، كلمةٌ لا غير ظلّت متعسّرة في الحنجرة كالولادات الصعبة، كحشرجات الموت، كزنزانة تضيق حولها القضبان وفي آن تسمع صرخة من الجوف تطلب منها أن تكفّ عن كلّ هذه الثرثرات.

ثم يعمّ منتصف الليل موحشاً، أليف المنامات، يلقّن النائم فنّ العيش مع وحده، لا لوحده. فحتّى في المنامات تسير المرأة وحيدة، هي على موعد مع توأمها، في الحقل الذي شهد على طفولتهما، لكنّ الحواجز الترابية، والليل الدامس الذي يحوّل المقاتلين الموزّعين في الشوارع أشباحاً خرافية، يحول دون وصولها. ترى نفسها في انتظار قطارٍ حادت سكّته عن المحطّة التّي اعتادت الوقوف عليها، تردّد بشعور من الضيق: «الانتظار احتضار» وتتذكّر أنّها صادفت وكتبت هذه العبارة في أوراق سابقة. تتأفّف من هذه التكرارات التي باتت تحنّط قلمها برائحة العفن. التكرارات دوماً، حين يشقّ الفجر قميصه على ضوء النهار الخافت، فتمضي تنقّب في حشوة الوسادة عن المنام المتواري في ذاكرة الليل، عن موعد لم يتم. تتذكّر فقط أنها كانت على عجلة من أمرها لرؤية «ميرا» بعد كل هذا الغياب ولكي تسألها عن مسكنها الجديد، وفي بالها أيضاً أن

تخبرها عمّا يحدث في الوطن من ويلات، وعلى طرف لسانها عبارة تردّدها حتى لا تنسيها: «مصير العالم مسألة حاسمة تتطلّب حزماً». تضحك من سذاجة هذه العبارة العالقة في ذهنها فيما الشيء الذي تبحث عنه، يدعوها إلى مواعيد ليلية كاذبة.

غريبة هي المنامات وخادعة إذا ما سلّمنا بتفسير فرويد لها كتعبير لأمنية. عند اليقظة نلمّ منها أموراً مفكّكة، وأماكن نتذكّر أننا كنّا نود الوصول إليها ولم نفلح. الأموات خاصة يطلّون على حين غرّة، دونما تبرير لرجوعهم سوى لتبليغنا في بعض الأحيان رسائل من الصعب ترتيبها في منطق اليقظة.

تقوم المرأة إلى أوراقها الصباحية لتلد عليها كسرات منام، تحاول تركيبها كقطعة باتشوورك رغبة منها في إيجاد المشهد المطابق لهلوساتها الليلية.

ذات يوم تصبح الأسئلة الوجودية وسواساً ينخر في الفكر، تبعد عن دربه الأسئلة الحيوية، العفوية، تتحدّى أي جواب مرتجل نردّ به عليها. لماذا وُلدنا؟ ما هدف وجود البشرية على هذا الكوكب سوى الحروب والمجازر الإتنية والدينية وصناعة الأسلحة المدمّرة وتهجير الشعوب من أرضها، من هويّتها، من جذورها؟

عجيبة هذه الأسئلة، يحقّ لها أن تطرح ذاتها في كلّ زمان ومكان، كلقاح النباتات السامّة تبثّ في الدم داء الغربة الذي لا دواء له، سوى أن يثبت للإنسان أنه غريبٌ في كلّ أرض، دخيل على كلّ زمن تطأ عليه قدماه.

في هذه الفترة الحاسمة من حياتها وهي تتنقّل كالبدو الرحّل من بلد إلى آخر في هذه الجغرافيات من أوروبا الشرقية التي لم يكن تسنّى لها بعد أن تدمل القروح العميقة التي اقترفتها الحرب النازية

ومن بعدها الشيوعية السوفياتية القامعة، تساوت امرأة الحكاية بالمتشرّدين، الهاربين من الوجود، من التاريخ، من أسمائهم، هؤلاء الذين وجدوا في الأماكن العامّة مأواهم. هي الحاملة علامة النفي على جبينها، كانت على غرار الغجر لا مسكن لها ولا عنوان، متاعها دفترها الذي ما زال يفسح لها مساحات بيضاء لتطمئن نفسها بأنّها ما زالت حيّة، ووسادتها كمانها، الذي خلص من براثن التعذيب في روسيا.

الجرح ما زال نازفاً لا يلتئم والأوجاع المبرحة تحوّلت إلى نقمة وغضب. مرّات جاء السؤال تلقائياً إلى فكرها دون أن تجد له جواباً:

«هل كان إيغور مانياتوفسكي، أستاذي في المعهد الموسيقيّ في كامل وعيّه حين اعتقد أنّي العنصر المناسب لتحقيق خطّته في روسيا؟ هل ظنّ فعلاً أنّ الفتاة الساذجة، الراقدة فتوّتها تحت أوراق عمر ذابل قبل أوانه، ستكون كحمامة نوح، تعود إليه ظافرة وغصن الزيتون في منقادها؟».

الآن وقد بدأ الشيب يتفشّى بين خصلاتها الكستنائية، تطلّ عليها تلك الفتاة الضائعة في كيانها، المنكسرة، تتوسّل عرفاناً بوجودها. هكذا مضت إلى روسيا في تلك الحقبة التي فتح فيها الاتحاد السوفياتي حدوده لتبادل الثقافات مع البلدان الأخرى دون أن يعلّمها أستاذها بأن الانفتاح الظاهري على العالم لم يمحُ آثار القمع والرقابة المتشدّدة التي خلّفها النظام الستاليني. لقد أثار فيها لذّة اكتشاف المجهول. هكذا أطلعت خالتها جنان على خطّة «إيغور»: «سأكون في حماية صديقته «مارينا» أستاذة الموسيقى في معهد سان بترسبورغ، والرسالة التي تلقّاها منها واعدة، أكان على نحو

الترقّي التقنيّ على آلة الكمان كما في الاستفادة من وجودي هناك لأتعلّم اللغة الروسيّة وأتعرّف إلى أدبائها بلغتهم». لكنّها لم تفصح لها عن الخطّة الصعبة التي حمّلها إياها. كان شيء ما في داخلها يهمس لها بأنّ كمانها سيكون جحيمها ولم ترفض هذه المغامرة، ففي نفسها دين من الماضي عليها تسديده.

كم كانت في تلك المرحلة القاسية من حياتها بحاجة إلى أمّها، إلى أمّ تغمرها بعطفها وحنانها. الذكريات التي تهبّ عليها كغبار الصحراء من الأمس، أليمة تتمنّى لو تمتدّ إليها يد ساحر وتنتزعها من نخاع رأسها. ثم تتلطّف الذاكرة حين تتوقف عند الامرأتين اللتين نابتا عن الأمّ وحاولتا بما لدى الأولى من خيال والثانية من تجذّر في الأرض أن تجعلا منها فتاة متكاملة حسناً وعلماً وموهبة. الخالة جنان التي فتحت لها باب الأساطير لكي تحلم، وكم شجّعتها في مغامرتها الروسيّة، رغم خوفها الشديد على عمرها الرخص والجدّة نسيمة التي أعادت ولادتها من رحمها المتغضّنة يوم نبذتها أمّها بهذه العبارة التي ستبقى محفورة في لحمها: «أو أنتما الاثنتان أو لا واحدة». فتولّت نسيمة أن تكون أمّاً وجدّة، ولم تفلح في ملء الفراغ الذي كانت تصفر فيه رياح التخلّي.

أسندت رأسها إلى جذع شجرة الكستناء الوارفة في حديقة بوادبست العامة، وراحت تتأمّل بالهجرتين الظالمتين التي انبنت على أساسهما مرحلتان هامتان من حياتها، المراهقة الرخصة والشباب، الهجرة من حضن الأمّ والهجرة من الوطن وفي الاثنتين انكوت بنار التهم الباطلة، حتّى أصبح التشرّد من مدينة إلى أخرى، والهرب إلى الأمام طلباً للنسيان، حريّتها، الشبيهة بقنبلة موقوتة.

الكمان مورد رزقها الوحيد، تستقبلها الحدائق العامّة دون أن تتحرّى عن هويّتها، تفرد لها مساحة لاحتواء موسيقاها، كما لسائر الموسيقيين المشرّدين على الأرض المجرّبة. هي باتت تعلم أن التحلّقات الواسعة حولها من متنزّهين من جميع الأعمار عائد إلى الاحتراف الكبير الذي بلغته في لننغراد مع أساتذة مبدعين في هذه الآلة. فلولا خطّة «إيغور» الجهنّمية، لوصلت كما تنبأوا لها، إلى المحافل العالمية الكبرى، وها هي اليوم غجرية، لا مأوى لها ولا غدا، تشحذ الفلس من وترها لتأكل، وهناك في بلدها شحتار الحرب واقفاً بينها وبين خالتها وجدّتها، يسدّ أمامها أبواب العودة.

كان المساء في هذا الشهر من نهايات الصيف بين غياب أرجواني وغبش رمادي، يدعو الناس مع كلابهم إلى تلك السكينة التي يمنحها حفيف أوراق الأشجار وتساقط البعض منها، المتروّية في لمسها الأرض.

بدت لها الحديقة في تلك الساعة كفسحة نقاهة لمن أخلصوا للوطن وظلّوا فيه دروعاً لصدّ الغزوات وتجذّراً أعمق في الأرض المستباحة. بينما كانت هي وكمانها، الغريبة، الدخيلة على تاريخهم ومآسيهم، تنتظر أن يخرج الفلس من جيوبهم المتزهّدة إلى قبّعتها، كمتسوّلة راهنت على الكمان للحفاظ على كرامتها.

حين بدأ المتحلّقون حولها يتفرّقون في كل اتّجاه مع انطفاءة آخر شعلة من قصيدة سميتانا، رأته يقترب منها. بلغته أدركت أنّه يسألها عن البلد الآتية منه. قالت: «لبنان». تأمّل في وجهها ثواني وفي ملامح وجهه حزن، وتضامن مع وضعها، فالحروب ملاحم متعاقبة تدور في أفلاك بلدان العالم كتنّين خرافيّ له في كل جغرافية شهوة وغاية.

قبلت فوراً دعوته إلى فنجان قهوة في الحانة المقابلة للحديقة، معتبرة أن للصدفة حسناتها أحياناً لا سيّما في قهوة كانت متشوّقة إليها، إلى رائحتها، إلى لذكريات التي تعلو مع لهبها، مرّة كما كان يحلو لجدّتها نسيمة أن ترشفها كدواء ناجع، بعدها تلوح بالتفل الملتصق بقعر الفنجان، مرّتين وثلاث مرّات وهي تتمتم نواياها، ثم بحركة رشيقة تطبّ الفنجان رأساً على عقب في صحنه، تاركة للتفل مهمّته في كتابة رسالته، إشارات، وحدها جنان الملمّة بالأساطير كان بوسعها تفسيرها، محدّقة في جوانب الفنجان، تتلاعب به في كف يدها إلى أن تلفظ الكتابات أسرارها، فتقترب من أمّها وتهمس لها سرّاً ما، تراه قادماً بعد إشارات ثلاث.

شعر الرجل، من عينيها التائهتين في الفنجان والابتسامة الطفيفة التي ارتسمت على شفتيها أنّ القهوة أخذتها إلى ذكريات بعيدة. انتظر لحظات حتى تعود من سفرها، ليعرّف عن نفسه ويتعرّف إليها، ويلبّي خاصة فضوله لسبر ما في أوتار كمانها من حكايات، كانت ترويها في قصيدة «وطني» لسميتانا. لم تكن هذه العازفة المتسوّلة الفلس لتحيا، عابرة حدائق ودروباً. لقد أدرك والكمان بين العنق والكتف ينبض بما في داخلها أنّ هذا الإتقان في تطويع النغم

وليد عنصرين، المشاعر المتأجّجة والاختصاص العالي. لم يكن بحاجة لمعرفة اللغة التي تتكلّم بها، فالموسيقى لغة يتداولها البشر عامّة. برفق وضع يده على يدها وحدّق ملياً في وجهها، كسؤال يسأله البكم حين يريدون الاستفسار عن أمر. شعرت برعشة خفيفة تسري في عروقها امتناناً لحرارة هذا الرجل وغيرته. لم تعِ إلاّ وقد سبقت إرادتها كلمات باللغة الروسية تشكره فيها على دعوته إيّاها إلى حميمية هذا المقهى. كأنّ هذه العبارة اللطيفة بلغة پوشكين قرّبت المسافة بينهما. انحنى على يدها وطبع عليها قبلة سريعة كالومضة تركت مكانها برودة ناعمة. شكرت پوشكين في سرّها على هذه اللغة التي سكنت معها ثلاث سنوات وتآلفت معها كمولود جديد يتعلّم أبجدية الحياة، حتى أنّها كانت تشعر أحياناً وهي منكبّة بشغف على فكر تولستوي ودوستويفسكي ويوشكين وغوركي أنّها وجدت وطناً. ومع هذا العشق للأدب الروسي والموسيقيين الروس، لم تنسَ الوجه الآخر من المرآة، الوجه الفظّ حين كانت تقف في قفص الإتّهام تتلقّى الأسئلة وتأتي الأجوبة لعثمات وحشرجات عالقة في حنجرتها، عاجزة عن تركيب جملة سليمة، ربما كانت ستخفف من الاتّهامات الملقاة عليها. في تلك الجلسات وما تلاها من أقبية التعذيب كان شعورها الدفين يقول لها إن اللغة التي عشقتها، خانتها ونبذتها، فلم تعد أهلاً للتعبير بها.

بيدها أشاحت غمامة عبرت على جبينها. كان الرجل يقرأ ما في نفسها، أدركت أنّ عليها أن تقول شيئاً، أي شيء. «أنا هائمة في بلدان العالم حتّى تتسنى لي فرصة العودة إلى بلدي. الحرب قطعت كلّ اتصالٍ بيني وبين أهلي». لم تقل أكثر خوفاً من أن تشي على ذاتها وتكشف عن سرّها، لكنّها أخرجت من حقيبتها

جواز سفرها وأرته إيّاه. لفته اسمها، ردّده مرّات. مايا... مايا... راح يردّد أبياتاً للشاعر فلاديمير مایاكوفسكي من قصيدته «نشيد إلى الثورة».

قال: مایاكوفسكي أوحى إليّ الشعر فصرت شاعراً. كان يعتبر الثورة حريّة وانفتاحاً للإنسان.

على إيقاع إلقائه، أخذت المبادرة بعد صمت وأسمعته أبياتاً هزّت مشاعره:

«لا تهدأ أيّها القلب! لا تنس / إيّاك أن تُغرق الاتّهام في السماح / لا تدع اللامبالاة والبؤس يذيبان الكبريت في مياه مباركة /

توقّفت هنيهات وفي بالها أن تقول شيئاً، فاستعجلها قبل أن تنطفئ حرارة إلقائها وقال:

«بربّك لا تتوقّفي».

اغرورقت عيناها بالدموع. بشفتيها المرتجفتين ألماً وتأثّراً تابعت تقول:

«احترق أيّها القلب / ارتفعي أيّتها النار لهباً مجنوناً / لا يقوى على إخماده مكر نسيم / اشتعل وانثر شرارتك / جمراً متوقّداً / علامة حارقة لبقائه الدائم».

بصوتٍ خافت شبه مخنوق، سطا عليه البكاء الجوفي، قالت: إنه للشاعر المجري ساندور ماراي الذي قضى على حياته انتحاراً كما مایاكوفسكي شاعرك المفضّل.

بدا لها متوتّراً، ممتقع الوجه، وقد فقد الهدوء الذي بادرها به في الحديقة العامّة. شيء ما في داخلها أوحى إليها أنّهما على وشك السير في حقل ملغوم. أيكون هو أيضاً من هؤلاء الشعراء الذين ذاقوا من النظام السوفياتي مرارات لا تزول وجراحاً لا تندمل؟

نادى النادل وطلب منه كأساً من الكونياك. أمّا هي وأمام إلحاحه فطلبت فنجاناً آخر من القهوة، وهي تفكّر أنّها هنا على هذه الطاولة الصغيرة، في قرصة برد ناعمة من شهر أيلول، ملتفّة بشالها الصوفيّ، تتجاذب الأحاديث مع شاعر لم يتسنّ لها بعد أن تتعرف إلى اسمه ولا هو أن يسبر الغموض المحاطة به شخصيتها. يا للصدفة الخبيثة، تدبّر لقاءات اعتباطية في ظاهرها، أمّا في الداخل فهي تحوك أموراً منتظرة لها مبرّراتها وأسبابها.

ساد صمت مضجر بينهما، كانت بين الفينة والأخرى تتأمّله منخطفاً في كأس الكونياك يمجّ ذكريات القطرة تلو القطرة، رأت أساريره منطبعة على جبينه المحروث أثلاماً يابسة. المرأة التي كانت منذ ساعة في الحديقة العامّة ترسل أنغامها حولها للتسوّل نيابة عنها، وجدت نفسها تتلقّى دون سابق إنذار، بوحاً فريداً، لم تتنبأ أثناء إصغائها إليه باهتمام، أنّها في صدد تحضير ذهني لمقابلة مثيرة مع شاعر شيوعي عاش القمع أسوةً بكتّاب مجريين، في المنفى السوفياتي.

هكذا بدأ يروي قصّته:

«عندما حملت أمّي بي، نذرت الطفل الذي بدأ يتكوّن في أحشائها إلى «قدّيسها»، ليون تولستوي. هذه المنتمية إلى مجتمع فلحيّ فقير، وجدت فيه المخلّص الذي كان مصمّماً على تحسين

قدر الفلاّحين، ولو أدّى نضاله إلى الفشل. كنت أتباهى أمام رفاقي باسمي، أمّا إزاء نفسي فكنت مصمّماً على أن أكون على غرار تولستوي أكتب عن الطفولة والمراهقة والحرب والموت.

«إثر زواجها من أبي المجري انتقلت من بلدتها الروسيّة إلى بودابست وفي حمولتها الزهيدة كتب ليون تولستوي التي هذّبت فكري الطالع على الحياة وأثرته بالخيال والإنسانية. كنت ما زلت ولداً حين مضى والدي مجنّداً، إلى الحرب، تاركاً على رفوف مكتبته، قصائده وقصاصات جرائد، وكتاب «البؤساء» لڤكتور هوغو و«تأمّلات متنزه وحداني» لجان جاك روسو. وعلى ركيزة البيانو الذي كان يجلس إليه ساعات حين يعود من المطبعة التي كان يعمل فيها مصمّم خرائط، تركت أمّي الصفحتين المفتوحتين على رابسوديات فرانز ليزت، المجريّة.

«لا أدري كم من الزمن ظلّ البيت على حاله بعد رحيل والدي إلى الجبهة، وكم من الزمن ظلّت أمّي تعدني بعودته إلى أن رأيت ذات يوم رجلين يحملان البيانو ويخرجان به من منزلنا أمام أمّي المفجوعة. في ما بعد وكنت قد صرت في عمر الإدراك اعترفت لي بأنّها ترمّلت مرّتين، بوفاة والدي وباضطرارها لبيع البيانو لتسدّ بثمنه حاجاتنا اليوميّة. فكم وكم من المرّات لمحت أمّي تبكي وهي نائمة، فتبتل وسادتها بدموع أحلامها... قاطعته وفي بالها سؤال:

أين تشعر بغربتك أكثر؟ في المجر بلد والدك ولغته أم في روسيا بلد الأمّ؟ أو بالأحرى أين تشعر بانتمائك الصحيح، هنا أم هناك؟

كان سريعاً في جوابه، لم يتباطأ:

«لي في البلدين لغة وتربية وثقافة أدبية وإنسانية، ولكن هي روح أمّي التي تولّت بنياني. فبالرغم من سهرها على ولائي لأبي وجذوره، طغت تربيتها على أخلاقي وأبعادي الوطنية. كان تولستوي مَثلها الأعلى تريدني بقلمي أن أستنير به. التهمت مؤلفاته «الحرب والسلم»، «أنّا كارنينا»، «موت إيڤان إيلليتش»، وازددت شغفاً به يوم تلقّيت من الأخ البكر لأمّي «سوناتا إلى كرويتزر»، هذا الكتاب الذي بقي شبه مجهول بين كتابات تولستوي، ومن عنوانه نلمس تقارباً روحياً ومعنوياً بين هذا الكتاب الروسي العملاق وبين عملاق آخر، بيتهوفن الذي كتب معزوفته الرائعة وأهداها إلى رودولف كرويتزر تقديراً للمكتبة الغنيّة التي جهّزها من أربعين درساً لكمان منفرد».

تماسكت حتى لا يلمح الجرح ينزف من ندبته الرقيقة. لاشعورياً سبقها الكلام:

«سوف تظلّ «سوناتا كرويتزر» المخرز الحافر فيّ أبداً. لقد كانت امتحاني الأكاديمي والمصيري. بها تفوّقت في الامتحان النهائي في المعهد الموسيقي في لننغراد وبها كانت هزيمتي أمام البربرية، فهل سأفي بوعدي لكماني المتقهقر معي بألاّ أعود إليها بعدما أُخرجت من روسيا مطرودة وإنّما حرّة، طليقاً كعصفور يحاول الطيران بجناحين محطّمين؟».

رست يدها تلقائياً في كفّه المفتوحة لها. رأته يدعكها بشدّة كمن يحاول إعادة الحرارة إلى ميّت. كان مغمض العينين مركّزاً على ما يريد قوله:

«مايا.. كوفسكي»، هكذا يحلو لي أن أناديك، لعلّ الصدفة دبّرت

هذا اللقاء لنأخذ من خبراتنا درساً وعِبَراً. ها نحن متساويان في تجربتنا الروسية».

قالت:

«ظننت أنّ من يتورّط في نسيج سوناتا كرويتزر، بمقدرته ومشاعره الممزّقة، لا بدّ له أن يتسامى على أوتار كمانه. ظننت أيضاً أن البربرية أمام الدموع التي يذرفها الكمان، قد تليّن وتطرّي قلوبها المخشّبة. فبالرغم من قهقهاتهم اللئيمة وعيونهم الزرقاء المقزّزة التي كانت تضخّ عند كل استجواب، في قواي شللاً، اعتمدت المراهنة على إكسير الكمان السحريّ لأنجز. بسادية قذرة كان رجال المخابرات يطلبونني من زنزانتي لأرفّه عنهم وكنت أسلخ من الضعف قوّة متأنّية كل التأنّي في كل نوطة علّها تفعل في نفوسهم».

حول فنجان من قهوة مرّة وكأس كونياك كانت وليون الشاعر المجري شريكين في المحن والعذاب. ما الذي جمع بينهما سوى تجربتهما الأليمة في السجون السوفياتيّة. طلبت إليه أن يتابع حديثه وفي بالها المادّة المثيرة للصحافة.

«حين اجتاح النازيون أرض المجر ارتأت عليّ أمّي الهرب إلى روسيا قبل أن يتفشّى الجنود في كل مكان وكانوا ما زالوا على حدود أرضنا. لكنّ القدر حال دون فرارنا من قبضتهم. الاعتقالات الرهيبة ساوت الناس في بعضهم، وأمّي الروسية كانت من بينهم، رأيتهم يدفعونها في المقطورة وأنا من كوّة تسقيفة البيت حيث اختبأت، أسمعها تصرخ والشجاعة تخونني للحاق بها. هذا المشهد المروّع هو الذي جعلني أتخلّى عن ديني

الكاثوليكي لدين آخر، الشيوعية وظنّي أنّي في وطن أمّي سيحقّ لي التعبير عن حريّتي بارتياح. شيئاً فشيئاً لمست حريّة ذات وجه آخر، تلك التي يصوغها النظام السوفياتي ويبشّر بها. خلال السنوات التي قضيتها في موسكو، كنت مكبّل القلم، مكبّل الفكر، ولا أدب ولا شعر ولا موسيقى بلا حريّة. النظام السوفياتي كان هو من يهندس ويصمّم حريّة الكاتب، ومن يتجرأ في كتاباته أن ينتقد كان مصيره الأشغال الشاقة. كان حلمي الوحيد في تلك الفترة، منفى بعيداً عن هذا الزمن الرديء المتنكّر للحقيقة، للحريّة، لمعنى الخلق».

سألته:

«ألا تظن أنّ الاغتراب امتحان قاس وضياع عن هويّة الذات؟ ألا...

قاطعها قائلاً:

«الاغتراب هو أيضاً مصدرٌ لحيويّة جديدة، لولادة ثانية. أفننسى أنّ عظام المفكّرين والفلاسفة أمثال لينين وڤكتور هوغو وماركس وڤولتير وجدوا في المنفى حريّتهم فأبدعوا وأثروا العالم بفكرهم، وكتبهم باتت مراجع ثمينة للمثقّفين؟».

كان لا بدّ لهذه المقابلة التي كانت تحوكها في سرّها، من نهاية، تختم بها مشروعها الصحافي. قالت:

واليوم أما زلت على دينك الشيوعيّ؟

«لقد فقدت إيماني بالثورة. إثر عودتي إلى بلدي أول شيء كان

عليّ القيام به باقتناع، رمي زرّ الشيوعية في نهر الدانوب. أثناء حصار بودابست كنت كلّي إيمان بأن الثورة ورشة عارمة تستحق بأهميتها أن يضحّي لها المفكر والكاتب والشاعر بحريّته».

أدركت المرأة أنّ عودتها إلى الوطن بعد هذه الهجرة الطويلة التي دامت سنوات، لن تكون كما اعتقدت استراحة محارب ولا خلوة كما تمنّت، ترجع فيها إلى ما حدث في ذلك الزمن وتعيد عقارب الساعة إلى مينائها بعدما هبّت رياح السموم في نظامها وحلّت اللعنة على بيت كان كل شيء فيه مخرّماً بأبرة الحبّ والهناء.

الحرب في اندلاعها في الأحياء، في الأفكار، وضعت خطوط تماسّ بين الحاضر والماضي، بين الواقع المريع والخيال البديل عن النسيان، حتّى بات بفعل الكتابة السحريّ، واقعاً يسدّ الفجوات التائهة عن الذاكرة.

هذه التشابكات بين الأمس المفصّل على حقبات والحاضر الذي مع كلّ شروق شمس يحوك على نوله فعل كان، تشكّلت المادّة التي فيها ولدت حكايات المرأة، ترحل بقلمها إلى المدى البعيد

وتعود منه بمؤونة تطعم منها خيالها وبها تثري الأحداث الجارية. وكم كانت حين تعيد قراءة ما كتبت تلاحظ في العبارات الصامتة تارة، الصارخة، ما يشبه المعاني اللقيطة التي تحتاج إلى تروّ وتصميم كي تتخاوى، وأكثر من ذلك، إلى إلمام في أحاجي الضمائر المستترة للتآلف وتتواصل وتشيّد على أفقيات الورقة درباً للحكاية. لكن هي الموسيقى التي في بادئ الأمر أخذتها في سحرها وكادت تطغى على تفوّقها في مادة الآداب وانطلاقتها في تلك الفترة، تكتب مقالات ثقافية، تحلّت بأسلوبها المنمّق وعمق تحاليلها، حتّى أصبحت تزاول بشغف مهنة الصحافة إلى جانب دروسها في المعهد الموسيقيّ، إلى أن حان موعد ذهابها إلى روسيا، هذا الموعد الذي حطّ فيه الشيطان إصبعه، وكانت تدرك الأسباب التي دفعت بها إلى الموسيقى بتلك الإرادة الشرسة، إيفاء لذكرى توأمها. لقد سلّمت بكل المآسي التي كتب لها أن تتكبّدها من أجل عشقها للكمان ويقينها أنّها به تسدّد جزية وجودها حيّة بعد «ميرا»، لكنّها، لم تأتِ إلى الكتابة وهي ثابتة في اعترافها عن سابق تصميم. لقد أصبحت صحافية ثم روائية دون أن تتنبّه إلى أنّ الكتابة لا محالة تحلّ مكان الصمت الذي يُفرض على المطرودين من مملكة الرأي الشفهيّ، حتّى باتت تخشى على قلمها أن يجفّ حبره، أن ينصل الأسود القاتم الذي به تخيط أحرفها. تخشى أن ينقطع ارتباطها بالذاكرة البعيدة والقريبة، ارتباطها بتلك الروح الخفية المؤنسة التي باتت منذ عودتها إلى البلدة وتركين حياتها في بيت القناطر، كفرد يساكنها، تلمس وجوده في أنفاس الغرف، على الورقة، تتشخّص ملامح الذكر فيه فتبتسم في سرّها. مهما كانت تخيّلاتها، صارت تناديه بصيغة المذكّر والورقة البيضاء تتوسّل منه دعماً فيمسك بيدها ويدلّها على السطر المستقيم.

في هذا الانخطاف اللذيذ مع اللامرئي كانت تشعر بأصابعه تسيّر قدر الكتابة. هذه المساكنة الروحيّة طمأنت روحها، تلقّتها ثنائية طبيعية بين الملموس وغير الملموس.

أتهيم الأرواح بعد أن يفنى الجسد، تبحث عن بيت يؤويها؟ لقد كان من المنطق أن تتخيّل جدّتها نسيمة العائدة، تتفقّد البيت والجوار، بعدما قصفت الراجمة البنيان وما تبقّى لها من سنين عمر. بل كانت شبه متأكّدة من أن اليد الممسكة بقلمها، الموجّهة قوسها على الوتر، هي يد كاتب أو موسيقيّ أو هكذا تمنّت في وحدتها.

إيغور! أيكون هو، الرجل الذي علّمها الموسيقى حتى الهلاك في جحيمها العائد ليصفّي حساباته معها، أم معوّضاً عن البلوة المفجعة التي أوقعها فيها؟ ارتعشت وهي تلفظ اسمه، كانت تودّ لو تزول ذكراه من رأسها لو لم يخبرها رفاقها في المعهد الموسيقي، إثر عودتها إلى الوطن، أنّه توفّي بشكل غامض. إيغور اسم سيلاحقها دوماً.

بحركة عصبية، أقفلت دفترها وقامت عن كرسيها تتفقّد السماء، متوسّلة شعاع شمس تدفىء به أفكارها. لم تبال للأفق الذي بدا يرسم وميض برق من ناحية الشفق، فتحت مظلّتها وخرجت هائمة على وجهها والنفس حزينة كالغطاء الرماديّ الذي تلفّحت به السماء، حتى بلغت الشير المكان الذي منه تبخّرت ميرا دون أن تترك منها أثراً.

الأمطار التي بدأت تهطل بغزارة لم تمنحها الفسحة التي كانت تتمنّاها مع الغائبة. عادت أدراجها تجرّ وحول الدروب بقدميها المسرعتين، تسمعها تتلاطم على نعل حذائها ككلاّبة تودّ تقليص

سرعتها. ارتسمت أمام عينيها مراحل حياتها، لا بترتيب زمنيّ، لا كما يحلو للحكايات أن تكتب، متشابكة خيوطها، متصالبة دروبها، مشوّشة، بانت لها كأسلاك الكهرباء المتدلّية بشكل فوضويّ بين البيوت دلالة على العصيان الذي تولّده الحروب في البشر.

خشيت أن تكون هذه البلبلة العاصفة في رأسها بداية خلل في الفكر، شبيه بما حلّ بالخالة جنان. مع هدوء عاصفة السماء، استكانت روحها واطمأنّت. فالصفحات البيضاء التي تنتظرها على الطاولة، جاهزة لأن تتلقّى ما نضج في طبخة حياتها. هي تلك المنطقة التي، بسحر ساحر تلتقي عليها جميع الأزمنة كما الموت والحياة، كمواعيد الغرام هي، التي ما بعدها افتراق.

أشاحت بذاكرتها عن تلك الحقبة المثيرة، بمغامراتها الجريئة، في عمر تهبّ فيه نار المجازفة ولا من يردعها. كانت كلّما تعرّت من ثيابها أمام المرآة تتذكّر مشاهد التعذيب في بقع الكيّ الراسخة كالوشم على ظهرها وفي كل ملمس مغضّن تسمع صوتها يتوسّل براءة.

العودة الدائمة إلى الوراء، إلى كلّ وراء لا زالت كدماته الزرقاء تتفاعل في مادّة الكتابة، في تلك الحاجة الملحاح إلى القوس يحزّ على وتر الكمان حكايات من وجدوا في جحيم الموسيقى مطْهراً لعذاباتهم.

في هذه اللحظة الحاضرة أمامها كأسئلة امتحانات آخر السّنة الدراسية، عبرت غيمة وردية في خاطرها كشحت الضباب الرمادي المقيّد خطواتها. سمعت صوتها الجوّاني يذكّرها بأنّها لولا

المحن التي مرّت في حياتها لما كانت استرعت للكتابة انتباهاً. عادت بها الذاكرة إلى عبارة حلّل بها المؤلف فعل الكتابة، كتنقيبٍ في شقوق الواقع، كما في الرؤى التي تجتاح المرء على غفلة، علّ الكاتب يبلغ تلك الذبذبات الكونيّة التي وحده الموسيقيّ قادرٌ على ترجمتها في أنغامه.

«هنا بين طيّات تنورة جدّتي تعلّمت أن أكون ابنة الحقول فأميّز بين شدو شحرور ونداء عندليب»... بدت لها العبارة وصفاً شاعرياً معقوداً بالسكر، لم تكن ورقتها المحروثة أثلاماً مقشّبة، مؤاتية لكي تستهل حكايتها بالعواطف الورديّة.

تأمّلت الورقة، هذه المساحة المطروحة أمامها كصحراء عليها اجتيازها بقلمها ويقينها أنّ للحكايات بداية ونهاية، أفراحاً وتعاسات، مياهاً ساكنة وأمواجاً عاتية، ولادات وموتاً. بيت جدّتها نسيمة كان في ذاكرتها السِفر الذي منه تكوّن قدر عائلة، هذا البيت الريفيّ الشاهد على أمور غيّرت اتّجاه الشمس فأضحى شروقها غروباً ومغيباً.

القلم بين أصابعها مفتاح للذاكرة. لقد عادت إلى هذا المكان بعد زمن من الترحال والاغتراب بعزم من يودّ مداواة الداء بالداء، بدءاً

من ترميم البيت وكشط آثار الحرب من نوافذه المشلّعة وجدرانه المكسوّة بشحتار الحريق الذي شبّ فيه، لعلّه يستعيد بعد ذلك الرهان على إنعاش ذاكرته، صدى أصوات مضت على غفلة دون أن يمنحها الوقت ثواني ولو قليلة للتأهّب على هذا الرحيل، أكان موتاً أو غياباً أو تخلّياً، من ميرا المتبخّرة في الأسطورة إلى والديها اللذين آثرا الهجرة إلى أوستراليا طلباً للنسيان وربما لولادات أخرى تشفع بنفسيهما المعذبة، فجدّتها نسيمة التي لم تستقبل عودتها بالزلاغيط، لم تفرش لها حضنها الواسع لتؤاسيها في كل ما حدث، أمّا الخالة جنان، فكأنّها في هذا المصحّ الذي أودعت فيه، كتاب مفتوح على الأساطير التي كانت ترويها للتوأمين، يتحلّق حولها مصابون مثلها بالجنون، بالانفصام، بالهلوسات، يستمعون إليها ويصفّقون لديميتير إلهة الزرع.

هوذا البيت تتذكّر جيّداً سطحه الذي كان مأوى للحمام الزاجل في موسم هجرته من الشمال إلى الجنوب، وقناطره المثلّثة، التي كانت السنونو تعشّش في زواياها. تتذكّر مساكب الحبق والمنتور، تأتيها روائح ومذاقات من البعيد من توت ومشمش وكرز.

ذكريات تفوح في حواسها، تستطعمها، تسمعها، صوت جدّتها وكلّه ملامة على هواء المدينة الفاسد: «هذا الشحوب في وجنات الفتاتين لا يستعيد انتعاشه سوى هواء القرية. سترين يا يمنى كيف سيتورّد الخدّ حين ستطلقين لهما العنان في الطبيعة». هذا الصوت تخاله قريباً منها، يطمئنها كمؤونة حطب لأيّام البرد، سوف يكون رفيقها في هذه العزلة المطلوبة. وربما في تلك المساكنة مع أرواح أهل البيت قد تصل إلى كشف لغز اختفاء ميرا. ضحكت في

سرّها فيما هي تتصوّر نسيمة مخبرة في دنيا الخلود، تنقل إليها ما توصلت إليه من تحرّيات.

الأمور لن تكون كما بالأمس. طبيعة هذه القرية نالت قسطها الوافر من التغيير مذ تطبّعت بعمران المدينة. الأشجار التي كانت تظلّل البيوت والدروب وتجدّد فيها الهواء تراجعت تاركة للبنيان العشوائيّ اكتساح الأخضر العنيد الذي لم تكن عواصف كوانين وحرّ آب الاستقواء عليه.

أمور حدثت في هذا البيت الريفي من زمان بعيد، لم تعد تتذكّر تاريخه في تقويمة السنين، بل تتذكّر جيّداً الرعب الذي هزّ جدّتها يوم سمعت نعيق البومة على سطح البيت. وما قالته لجنان: «هذا النعيق إنذار بخبر موت، فلعلّه موتي». كيف عساها تنسى البومة وزيارتها المفاجئة تنعى خبر موت، موت ميرا أو اختفائها الغامض.

موسم الصيف كان حريّة للتوأمين ميرا ومايا، تنتظرهما الشمس الصباحية في لطوة شجرة الإجاص، حتى إذا خرجتا من القنطرة الوسطيّة، بفستانيهما المعرّقين وقبّعتي القشّ المزنّرتين بشريط أزرق، أومأت إليهما للّحاق بها في نزهة طويلة إلى ذلك المكان المنسيّ من سفر التكوين، الذي لم تكن قد امتدّت إليه آنذاك فرّاعة حطّاب ولا معول مزارع ولا مزّقت صمته طلقات شاردة من بندقية صيّاد. الطبيعة هنا كانت حارسة ذاتها. أوراق الدردار اليابسة والبلّوط، المتساقطة كانت تغذّي تربتها. فلعلّ هذا المكان الصامت، سوى من هدير النهر الدافق في الوادي، استفز حواس الفتاتين في كلّ خطوة كانتا تقومان بها، تتوقّفان فجأة لتتنشّقا فوحاً عابراً من أريج برّي، فجّ، قارص، يدغدغ الشمّ ويطربه، ثم تواصلان السير برفقة الشمس الطالعة، لا يردع شرود التوأمين بين

أجمام الوزّال والعلّيق سوى حفافي الشير. هنا عند هذه النقطة كانت تتوقّف حريّتهما والشمس متيقظة لكلّ هفوة قد تقومان بها، مسؤولة عنهما إلى أن يحين موعد لقائها بالمغيب، إذ تسرع في لملمة أشيائهما وقبعتيهما وتعود بهما إلى البيت قبل أن يعمّ القلق في قلب أمّهما.

«البرنامج الصيفي معدّ بدقّة في مفكّرة الشمس». هذا ما كانت تقول الجدّة لتهدئة توتّر ابنتها كلّما تبلبلت عقارب ساعة الجدران وتاهت عن أرقامها، حتّى ذلك اليوم والأخطاء ممكنة حتّى في السماء عندما حادت الشمس عن اتجاهها ولم تصل إلى شجرة الإجاص في الموعد المحدّد. كان القدر يحوك نواياه بحنكة ودهاء مصوّباً إصبعه إلى ميرا الأجمل صوتاً من صوت مايا، الأكثر موهبة في العزف على البيانو من أختها، الأكثر شفافية. كان الأهل في مقارنتهم بين التوأمين يقولون: «كأن ميرا آتية من الأسطورة».

ففي ذلك الصباح ـ هكذا تبدأ الحكايات منذ القِدَم ـ لم يلاحظ أحد في البيت خروج ميرا المفاجئ، ولا حتى مايا الأخت التي لم تفترق عنها لحظة منذ ولادتهما. وكأنّ مرسالاً غامضاً تلقّته، ندهها إلى هذه المغامرة التي ما بعدها عودة.

فيما الحكاية تشتعل على قشّ الواقع وحطب الخيال، لاحظت المرأة أنّها رغم الامتحانات الصعبة التي تجرّبت فيها، ما زالت ممسكة بالخيط الذي طالما ربطها بقدر الجهة الأخرى من الوجود، أي بذلك اللامرئي، المادّة الخصبة التي تؤجّج الخيال. العلوم الحديثة علّمتها أنّ وراء المرئي البسيط، الواضح، النقي، هنالك شيء لا يُرى، لا يُمسّ، لكنّه يبقى موسوساً في البال، يستثير المخيّلة، حتى تغدو الصور الفرضية التي يولّدها شبه حقيقيّة.

تذكّرت ما شرحه أستاذ الفيزياء في درس القوانين الطبيعية، بأنّ الطاولة والكرسي والسماء المنجّمة هي في الواقع مختلفة جذرياً عن الفكرة التي نبنيها حولها. قال يومها إنّ المعرفة المعاصرة تعلّمنا أنّ الأشياء الخارقة، المثيرة بعجائبها تلتقي بالملموس في قران مدهش.

هي وميرا وُلدتا من رحم واحدة، من ذلك الرباط المتين الذي لا يقوى عليه صدع. معاً أدركتا أنّ الحياة نصفها واقع والنصف الآخر من وهم وخيال، ما أثرى لديهما ذلك الشغف بحكايات الجنيّات والغابات المسحورة. كانتا تتوزّعان الأدوار، الفتاة التائهة في الغابة لميرا والفارس الآتي على جواده الأبيض لمايا.

الورقة تحت قلمها تنتفض وتتشنّج. كلاهما يمجّان من هذا العالم السحريّ غموضاً. أو تكون ميرا، هي «أورورا» الخارجة من كتاب «الجميلة النائمة» لتحيا حياة البشر برهة ثم تعود إلى أسطورتها؟ هل تلك الحزمة الضوئية التي جرّت «أورورا» إلى النوم الأبديّ، هي ذاتها تراءت لميرا في ذلك الصباح فتبعتها؟ تنبؤات البصّارة ومضت في فكرها، خبر غياب قالت، لا هو موت ولا هو حياة.

عبر المشهد ناتئاً أمام عينيها. بشيرة الكرديّة كانت تعبر القرى والسفوح وشقبانها المعلّق برأسها حتى أسفل الظهر، محمّل ببقول البراري. تحطّ حملها أرضاً، وتمسح عرقها بذيل فستانها الأسود.

كانت الجدّة نسيمة تستقبلها بالترحاب:

«أهلاً بيشيرة، ماذا في بقجتك اليوم؟».

ولا تنتظر جواباً، بملء يديها تبدأ بإفراغ ما في محتوى الشقبان من زعتر وهندباء برّية وقصعين وعكّوب وسمّاق، فيما بشيرة تخرج من عبّها أصدافها. هذه الجلسة الصباحيّة النادر حدوثها بين قناطر البيت، كان لها نكهة القهوة المرّة والتبصير المغلّف بالتمويه، فتتحلّق نساء البيت حول بائعة الأعشاب، التي كانت تتحوّل إلى قارئة غيب حالما تحكّ الأصداف بعضها وتتلو عليها آيات يتردد

فيها اسم إبليس ثلاث مرّات مصحوباً بثلاث بصقات كفيلة بأن تطرده من مملكة الأخيار. وفيما العيون تحدّق بشفتي بشيرة وتستنطق ما ستتفوّه به، كانت هذه المشعوذة تطلب الصمت لاتصالها بهذا الغيب، مغمضة العينين.

بشيرة المسكونة بألف روح، كانت تقرأ ما في فكر الخالة جنان التي مذ عادت إلى القرية بعد إقامتها في العاصمة للتخصص بمادة التاريخ وعلم الآثار، وفي عينيها الزائغتين انتظار، وفي القلب كسر كانت تغلق على أوجاعه حتّى لا يخونها. هذه الصبية المفتونة بالتاريخ، لا سيّما تاريخ اليونان بأساطيرها وآلهتها، تستمدّ منها خيالاً يرونق الحياة ويمحي الحدود بين الواقع والخرافة، لاذت، مذ عادت مكسوفة، جريحة من تجربتها البيروتية، إلى التبصير في القهوة، وورق اللعب وشعوذات بشيرة، التي كانت تعلم ما في قلب جنان من أسى وانتظار، فتمضي تملّق الأصداف وتحوك في ما بينها أخباراً سارّة تطمئن هذه العاشقة الخائبة وتعدها بغد أفضل مذ ضلّ ساعي البريد عن عنوان بيتها.

إلى ذلك اليوم، حين تسمّر نظرها في الفتاتين الجالستين القرفصاء قبالتها تمجّان توقعاتها باهتمام. بلمحة بصر جمعت الأصداف في كف يدها حتى لا تشي عمّا قرأته. لكن ومن حيث لا تدري ربّما، كان صوت كالصدى، يتفوّه عنها: «أرى غياباً لا هو موت ولا هو حياة».

العودة إلى الأمس، بأسراره، بغرائبه، بأحزانه، هي المادّة التي تتكرر منها حكاياتها كبكرة تحلّ خيوطها مرّات وتعيد لفّها في لعبة عبثيّة لا نهاية لها.

لماذا هذا الحبر الحالك في قصصها؟ سؤال طرحه عليها أحدهم ولم تجد للسؤال جواباً. لقد كان على حقّ. القصص القصيرة التي كانت تكتبها كانت كلّها موشحة بالموت والغياب والتخلّي. هي ميرا تلقّنها من «هناكها» ما عليها أن تكتب، كأنها تطلب جلاء عن غموض رحيلها. الأسماء تتغيّر في كل قصة لكنّ الفستان المعرّق بالأزهار وقبعة القشّ لا يتغيّران، كختم ثابت في مسارها القصصي.

تمتلكها رعشة غريبة، مختلفة عن الخوف الذي باتت منذ عودتها من ترحالها القاسي، تتقاسمه مع أهل الوطن، حين تتزلزل البيوت تحت وابل الراجمات. في تلك اللحظة التي كانت فيها تعيد حسابات كتاباتها أدركت أنّها ليست ضحية ظلم وحرب وهجرة واغتراب، أسوة بأهلها وجيرانها ورفاقها، بل جلاداً تنجب من رحمها اليابسة كجذع ميّت أطفالاً لا للحياة، لا للشمس، لا يكاد عشبهم يعلو فوق سطح الأرض حتى تشقّ أمامهم الطريق إلى العدم، هذا سامر، وهذه تمارا وميرا ولينا، والجنين في أحشاء ماريا الذي لم يتسنّ له أن يكتمل... يا لها من أفكار سوداء أعادتها إلى «كرونوس» في الميتولوجيا اليونانية الذي كان يأكل أولاده عند ولادتهم. شعرت بحاجة الى البكاء، هذا البكاء المالح المسكّن للجراح، ولم تقطر دمعة. قالت في سرّها، «الجذع الميّت لا نسغ فيه». خشيت لو تطلّعت في مرآتها أن ترى «كرونوس» وقد استبدل ملامحها بملامحه القاهرة. خشيت خاصّة أن يصيبها تأثير حكايات جنان عن آلهة الميتولوجيات ما أصاب هذه الخالة الآتية من عالم خرافي، من جنون وتيه.

فكّرت ملياً بأنّ الوقت حان لكي تستشير محللاً نفسيّاً فيما تعانيه

نفسها من اضطرابات. خطر في بالها زياد مرجي هذا الاختصاصي بتحاليل فرويد ولاكان، رغم الانطباعات التي تركها في مقابلاتها معه، إنسان معتدّ بنفسه ومتشاوف. قالت: لا بأس سيكون هو.

المشهد الذي ظنّت خيوطه تآكلت وألوانه جرّدت مع مرور السنين عاد ينبش المنسيّ مذ استقرّت في البيت الذي ورثته عن جدّتها، ويفرفط الكمخة السميكة المتراكمة على جدرانه، فيلتقطه قلمها كحبيبات الزئبق الفارّة من ميزان الوقت. هي وميرا بين سنابل القمح الشامخة رؤوسها قبل أن تعبث المناجل في أعناقها ويبدأ الحصاد.

سهول القمح في هذا الموسم الخصب، باتت تعرف غيباً قهقهاتهما ورناناتهما المتماوجة مع الهواء. سنبلتان يانعتان. هكذا استقبلتهما الطبيعة صورة عن دفق الحياة وغزارتها، تحوكان منها في كل لحظة احتفالاً وطقوساً.

«كأنّ ما حدث كان البارحة». حاولت أن تستعيد الأغنية الصغيرة كما لو كانتا معاً، لكنّ القشب الذي غمر أوتار صوتها كان دوماً

يحول دون ذلك. «قلمي هو صوتي، هو غنائي، ويدي هي قائد أوركسترا لكلماتي، هي التي تمسك القوس وتكتب بها فرحاً جارحاً على الأوتار». شعرت بالامتنان لهذه اليد الجاهزة في نقل أفكارها على الورقة، تقرأ ما في فكرها وتحوّله بسرعة إلى أحرف سحرية مكسوّة بالظلال أو بالنور، تدرك ما في نفسها فتتلوّن العبارات بتنويسات الشجن والذكريات. يد كلّها طرب وزغردات في تخريمها القطبة تلو الأخرى لغة حيّة، زاخرة بالاستعارات والخيال.

لاشعورياً رفعت يدها إلى شفتيها وطبعت على الشريان النافر، الأخضر، قبلة عرفان لهذا الدفق الحيويّ المنبعث منها في كل لحظة. يد اختصرت في خطوط كفّها سيرة امرأة بكل مرحلة من مراحل حياتها.

تنبّهت إلى تكتكات الثواني في ساعة الجدران، الماضية في مهمّتها، لا تساير المرأة وقوفها في اتّجاه الأمس. المفكّرة المنبسطة أمامها بساعاتها ذكّرتها بزيارتها التي لا مفرّ منها إلى جنان في المصحّ العقلي. جنان الموشّحة بشال «أوريديس» كما في كلّ مرّة تعودها ولا تستطيع إقناعها بأنها جنان معلّمة التاريخ وخالة ميرا ومايا. بل تراها تحدق فيها بعينين جاحظتين لتفهمها أن «أورفيوس» سيفتن الشياطين حولها لينقذها من جحيمها، بأنغام سيتارته السحريّة.

هذا الموعد الموضوع في أعلى ساعات النهار عَصَر قلبها ألماً. جنان الغجرية بجمالها، العابثة بالتقاليد، المفتونة بعالم الأساطير، السبيل إلى الحلم وتلوين الواقع بالغرابة والسحر، كانت هي أيضاً ممّن نغتهم البومة بنعيقها، وممن قرأت «بشيرة» الكرديّة في جبينهم خبراً أسود ظلّ مستتراً في أصدافها.

في كلّ مرّة كانت تنوي الاطلاع على محتوى العلبة البيضاء، وما خزّنته فيها جنان من رسائل وكتابات حميمة، ثمّة يد خفية كانت تردعها عن ذلك وحسبها أنّها كما لو كانت تسطو على بستان محرّم قطف ثماره. وإذا بها في هذا الصباح، وهي تهمّ إلى مواعيدها، تحسم قرارها المتردد: «لعلّ حياة جنان لا تخلو من الإثارة. هذه المرأة التي حوّلت طفولتنا أنا وميرا إلى طقوس رعوية وتوجتنا بأكاليل السنابل، آلهتين من الأولمب، بينما هي في الجحيم، تنتظر أن يعيدها «أورفيوس» إلى عالم الوجود بفعل غنائه، ولم يفلح، بل ظلّت في عذاب الجحيم حتى زوالها، سوف تكون موضوع قصتي الآتية».

فكرت أنّ الحياة مهما قست هي نصفها أسود والنصف الآخر رمادي تنقشع فيه فسحات بيضاء حين تكون كف الصدفة مفتوحة للعطاء. لذا ستكون بألف خير حين ستخرج من المصحّ العقلي بعد زيارتها لخالتها وتنفض عنها سحر الأساطير. فالتحقيق الذي سهرت عليه ليالي طويلة بين البحث والتحرير سيكون موضوع نقاش شيّق مع زملائها. ماذا بقي في ذاكرتها من هؤلاء المتصوّفين الذين عبروا بسرعة في صف الفلسفة العربية؟ ها هي الصدفة تعيدها إليهم بقصائدهم، وفكرهم الفلسفيّ وتزهّدهم. ومن الهناك البعيد تسترجع عبارات من «منطق الطير» للعطّار، كما كانت تردّدها في سيرها المسائيّ على كورنيش عين المريسة وتتخيّل نفسها وعيناها على الأفق المكفهر بآخر خيوط الشمس، طيراً يبحث عبر الوديان السبعة مع سرب الطيور إخوته، عن الفينيق.

هذا التحقيق أطلق لروحها العنان إلى الشرق القديم وإرثه المعقّد. فرقة الدراويش التي جاءت من حلب إلى أحد مسارح العاصمة

لإحياء «الذكر» هي التي شرّعت الباب على هذا الموضوع. ففيما التنانير البيضاء الواسعة كمظلاّت، تدور وتدور على إيقاع من التأمّلات الروحانية، والمرنّم في اتصال مع هؤلاء الرجال المنخطفين بافتتان في دورانهم التنويريّ، كان فكرها يروح إلى هذا الشرق منبع النسك والتصوّف والزهد والتأمّل في المطلق. كلّ ما في هذا المشهد الدورانيّ كان مخاضاً لولادة تاريخ قديم بدأت جذوره في القرن العاشر ودليلها في هذا المسار، المستشرق لويس ماسينيون وبعض المواد الشحيحة التي وجدتها في غبار المكتبات، من سيرة «الحلّاج» الذي طاف الدنيا داعياً إلى الزهد واتّهمه المعتزلة بالشعوذة فسُجن وعُذّب ومات صلباً، إلى جلال الدين الرومي شاعر الدراويش والغزالي الفيلسوف الذي انصرف إلى حياة الصوفيّة وأغناها بمؤلفاته، وفريد الدين العطّار. لقد كانت في حال من السكر الروحيّ وهي تمجّ بلذّة ما بعدها لذّة هذا الأدب الشعريّ الممتص من رحيق الروح.

خرج نظرها من النافذة تتفقّد حالة الطقس. الأمطار التي انهمرت بغزارة ليلاً بانت لها في هذا الصباح متعبة ترشّ قطرات شحيحة على أوراق الشجر. اقتربت من المنظر وجبينها ملقى على حديد النافذة تتأمّل الضباب السائر في السماء كجنود سلام. انقبض قلبها من جديد حين فكّرت بزيارتها لجنان. هل في أن تعود بها إلى بيتها حلّ؟ سؤال جاء تلقائياً إلى خاطرها دون أن تقيّم مردود هذا الرجوع إلى المكان الذي انفجرت فيه أزمتها يوم حاولت أن تخرج أمّها من تحت الردم ولم تفلح فتحوّل صراخها نباحاً على حدّ قول العامل في البلدية وأصبح تصرفها بعده تيهاً وشروداً.

على مسافة عقود والدورة دارت دورتها مرّات صار بالإمكان

الرجوع شيئاً فشيئاً إلى هذا الأمس المضطرب بأحداثه والتنقيب في أسرار البيت علّها تهدىء من الذبذبات التي تعترض نخاعها. «سأخصّص نهاية الأسبوع لحياة جنان المطمورة في العلبة البيضاء فأتعرّف إلى عمق المرأة التي حضنتني ورعتني وأبعدت عن مراهقتي شبح التخلّي الأكول، ودفعت بي إلى عالم المغامرة بعدما أفعمت فكري بالخيال وكستني برداء الأسطورة». المراهنة دوماً على الكتابة، بين القصص المقطوفة من واقع الحياة والصحافة. هكذا ترى الدنيا أكثر ليونة والكلمات الكارجة على الورقة نغماً تطرب له النفس.

عادت إلى التحقيق تقلّب صفحاته وترمي نظرات خاطفة على كل مقطع وهي في غاية الحبور. فهذا الاحتفال الطقوسيّ سنح لها اختراق عالم التزهّد الذي طمحت إليه زمن العذاب في السجون الروسيّة. توقفت ملياً، تراجع الفصل الذي كرّسته «لمنطق الطيور» وعادت تقرأه بشغف والكلمات المحلّقة مع سرب الطيور تسمعها ألحاناً من أوتار قانون. تذكّرت قولاً من محاضر في الموسيقى القديمة:

«من لم يسمع نغم قانون يعلو في سماء مشرقيّة، لا يمكنه الانصهار في الأنين الكلّي». رجعت بذاكرتها إلى الدراويش الذين أوحوا إليها هذا البحث الشيّق. تراءوا لها طيوراً تحملها تنانيرهم البيضاء في موكب طيور العطّار وقصيدته الألليغورية.

ثمّة أغان تحطّ كمرهم عذب على جرح بليغ تبلسمه ولا تدمله لكنّها في جميع الأحوال ناجعة في تسكين أوجاع كُتب لها أن تكون دهريّة.

في ذلك الصباح الذي تلا إعلان وقف الحرب، تناقلت الإذاعات الخبر على إيقاع أغنية زكي ناصيف «راجع، راجع يتعمر راجع لبنان» التي عمّت أنحاء البلاد بصوته الرخيم المقوّى بالحزم والوطنيّة، فكان لترددادها طوال نهار وليل مفعول أقوى حماسة في القلوب من قرار وقف القتال وكأنّ شاعر الأزهار والفراشات حمل إلى اللبنانيين بأغنيته هذه بشرى الخلاص، ودعاهم من خلالها إلى التكاتف لإعادة بناء وطن احتاج إلى مئات السنين ليكتمل بجماله ورهافته في ذلك الانسجام المتوازن بين الطبيعة والبنيان فإذا بسنوات الحرب تحني ظهره للمتآمرين عليه لخرابه.

كانت في طريقها إلى أحد المجمّعات الآوية أعداداً كبيرة من العائلات التي هجّرتها العصبيات المذهبية والعقائدية من قراها، من أحيائها، من بيوتها، فالتمّت في هذا الاختلاط المفروض الذي سرعان ما ظهرت فيه أوبئة معدية وحالات نفسيّة خطيرة. هذا الصباح الصامت من أصوات الرصاص والانفجارات، لم يطمئن نفسها المؤقتة دوماً على القلق، لكنّها مضت إلى التحقيق الذي كلّفتها به صحيفتها برضى واقتناع. فشهادات الناس ستشي بكل أمان عمّا أصابهم من تهجير على أرض وطنهم واغتراب كل فرد عن جذوره.

في تلك الفترة التي تلت توقّف القتال، وظلّت ذاكرة الحرب راسخة في نفوس الأحياء والأموات، انقشعت تحت شمس ساخرة، فاجعة الدمار في المدينة المنكوبة وأكثر منها دمار الإنسان. لعلّها أمام هذا المشهد المأساوي شاءت أن تتجنّد لأن تكون لسان حال هذا الإنسان الحامل ندوب الحرب في إعاقات جسديّة ونفسيّة. صارت بدورها وهي تسجّل شهادات هذا وتلك تحلّل نفسية المصاب من خلال مصابها وتتلمّس عمق الجراح لديه في آن مع تحسّسها جراحها العاصية على الاندمال. فوحده المكسو بقروح أبديّة باستطاعته أن يمدّ جسر إلفة بينه وبين من بلي بالغربة القاتلة في هذه الكذبة التي بات اسمها وطن، حتى باتت تقارن بشعور بائس بين الحجر المقصوف والجسور المهدّمة التي ستمتد إليها الجرّافات يوماً وتعيد ترميمها، وبين الإنسان المنتظر مصيراً من الصعب ترميمه. فالأعطاب التي لحقت به أبديّة، تترقّع ولا تلتحم، تنز ولا تتخاوى. وهل من عمل إنساني باستطاعته مهما سخت مساعدته أن يعيد إلى الساق المبتورة بديلاً عنها؟ لا ساقاً خشبيّة مجهّزة بالوسائل الميكانيكية الحديثة بل ساقاً إذا حكّها استنفرت

تحت الأصابع قشعريرة الدم، وإذا احتكّت بجسم هاج العصب واستثار؟ وكيف السبيل إلى من أضاع يمينه عن يساره فهل يرمّم الانفصام كما ترمّم الجسور؟

هذه التساؤلات كانت بدأت تجتاح ضميرها قبل أن تعود إلى الوطن، غجريّة تتنقل من حديقة إلى أخرى ومن مدينة إلى أخرى، تؤنس المتنزّهين بأوتار كمانها لقاء قيمة مادية كانت غالباً ما تعبّر عن مفعول المعزوفة في نفوسهم.

في هذه الغربة كانت أخبار الوطن تلاحقها في الصحف المحليّة وأقنية التلفزيونات. وبالرغم من الخوف الذي كان يشلّ فكرها كلّما فكّرت في العودة، كان قرارها حاسماً، العودة كمقاتلة بين المقاتلين لا بالسلاح، لا بمادّة القتل والموت. فبعد هذا التيه الذي بُليت به، لتنسى، لتبتعد عن ماضيها أدركت أنّ عليها أن تواجهه بطفولتها وبجرأة فتسترجع ميرا «هذا الجزء المبتور منّي».

عادت. كان جبينها ملتصقاً بكوّة الطائرة في نزولها على أرض المطار تحاول بما بقي لديها من حيويّة تروّض بها وحش الخوف المستبد في شرايينها كمستعمرات نمل تقتات من دمها.

سنوات عديدة من الانقطاع عن بلدها، عن مدينتها، عن لغتها، عن الأرصفة التي كانت تشعر بامتلاكها الكليّ في عبورها، حين يتخاوى خيط الأصيل البرتقالي بأولى همسات المساء. «كان الكون يبدو لي في غاية السكون والأمان». هل بإمكانها استجماع ذاكرتها فتحصي كم من المواسم مرّت حين يحلّ الصيف وكانت من «الهناكات» تبحث عن ميرا، عن طفولتها، عن أكاليل سنابل القمح المجدولة على رأسيهما.

غربة طويلة انقضى زمنها كالأدوية التي مضى على مفعولها زمن، كانت أثناءها تنكش في حثالة ذاكرتها علّها تستخرج منها روائح اشتاقتها. «ثياب جدّتي نسيمة المغسولة بالصابون المعطّر بالغار. قهوتها المرّة المبهّرة بحَب الهال تفوح من الفناجين الصباحية» وتدور بفكرها دورة قرية فتلتقطها ياسمينة بيت الكاهن المستلقية بهمّتها الثقيلة على سور الحديقة تتحرّش بالمارّين وتستثير لبرهة أنفاسهم فتمتدّ يد لاشعورياً وتستضيف عن أغصانها زهرة. وتتراءى لها جنان منحنية فوق أجمام اللاوندة تحاكيها بأصابعها فيعلو من أريجها القارص بوح أسرار.

أمّا المشهد العائم على سطح الذاكرة ففي تلك الإغاثة التي صدحت من أحشاء أمّها يوم اختفاء ميرا، إغاثة استحالت شراسة وغضباً حين رأتها واقفة بمفردها على عتبة البيت لا تعي ما حدث. «أين أختك؟» قالت. هذا الصوت اللاسع كالسوط كيف تنسى آثاره على جلدها؟ وكان ينبغي لها أن تنسى لتنطلق إلى صفحة أخرى من الحياة كتلك التي كان القدر يحوكها لها على مغزله من خيوط شائكة، خشنة، وفي كلّ امتحان اختبار مختلف لإمكاناتها وكفاءاتها. وظلّ الماضي يشدّها إليه، يفرض نفسه على حواسها ومشاعرها فترتعش لمجرد نفحة هواء تلفح وجهها على حين غرّة، من ورقة حور صفراء أشعلت في سقوطها ذكريات، من بكاء طفلة أضاعت أمّها في مخزن للملابس...

«لعلّي في هذه الامتحانات التي تقدّمت إليها بجسارة في كلّ مرحلة من وجودي، سدّدت ديناً». هذا ما تمنّته وهي مع العائدين في انتظار حقيبتها «فأستحقّ في هذه العودة التعايش مع حكايات الناس وهمومهم. أشاركهم حربهم ولو بعد حين، أترقّب معهم

قمراً أو شمساً من كوّات الملاجئ».

ألسّنة الأولى كانت وحدها الرسائل تصلها من جنان حارسة هذا الجسر بين الوطن وإقامتها في روسيا إلى أن انقطع معها كلّ اتصال مع اشتعال الحرب وكلّ اتصال عاطفيّ.

فيما سيّارة الأجرة تجوب بحذر شوارع المدينة كانت العائدة، كأي كائن غريب، تحاول أن تتعرّف على معالمها ومع كل مسافة، مشاهد رؤيويّة تمحي من ذاكرتها البعيدة ما كان. «أتراني أكون في غربة أشرس ضراوة من أية غربة أصابتني حتى اليوم بدائها؟».

كسائحة في أرض الجحيم، كان السائق دليلها، يهزّ فكرها، علّها تستفيق من حنينها إلى بيروت الأمس. هكذا علمت بأنّها في طريقها بين بيروتتين، شرقيّة وغربيّة ولكل منطقة دين وربّ وعقيدة وشعارات تعلم من يضيع سهواً فيها أنّه في أرض معادية لانتماءاته.

قال: أهمّ من الرصاصة الطائشة التي تغدر بعابر سبيل ساذج، لا ربّ له ولا شيطان، هو الحذر.

فجأة توقّف. رأته ولم تكن خرجت بعد من ذهول ما سمعت، يفتح باب السيّارة ويدعوها إلى النزول مع حقيبتها:

«أنت هنا على خط تماسّ اسمه المتحف. هويّتي السنّية لا تسمح لي في التوغل داخل المنطقة الشرقيّة وإلا تيتّم الأولاد وترمّلت أمّهم. سائق آخر سوف يتولى أمرك، تكون له نقطة المتحف حدوده ولا يتجرأ خارجها».

بانتظار هذا المنقذ الآتي من شرق الوطن، ليخرجها مع متاعها من

هذا المكان المرصود لتلقّي الضربات من كل مكان والقذائف من كل الأحجام، تذكّرت ما رواه لها الشاعر المجريّ في بودابست عن الحرب وما قاساه الشعب من تهجير وقتل وتعذيب على يد النازيين أوّلاً ثم النظام السوفياتي، وكان هذا الشعب متضامناً، متلاحماً للاستقواء على العدوّ. أمّا هنا وبعد لحظات من وصولها إلى هذه النقطة الساخنة فقد أدركت أنّ الشعب هو من أصاب البلد بهذا الانفصام المريع. زُمرٌ دينيّة، عقائديّة، تتحارب، تتقاتل، تدمّر وتجعل منه مختبراً خدمة للقوى المتناحرة بسلاحها، وجبروتها على أرضه. سمعت الأنقاض حولها تقول: «لن يكون هذا الوطن وطناً بمعناه المقدّس ما دام الولاء للشخص لا للأرض».

وطن... ردّدت الكلمات في سرّها مرّات. ما معنى هذه الكلمة المؤلّفة من ثلاثة أحرف لا غير، وفي الإبحار في مغزاها تتغبّش الرؤية وتفقد هالتها. «وطني هو اللغة التي أكتب بها. أجل! أنا أنتمي إلى وطن: لغتي».

كيف بالإمكان إيقاف سيل الذاكرة، الكارج دوماً في الاتّجاه المعاكس لمجرى الحياة، ينبش في أسفاره قبوراً محفورة في النفس التوّاقة دوماً إلى استرجاع جراح عتيقة وتحسّس ندوبها الخشنة، تطلّ منها وجوه باتت ممحوة الملامح، يتضح من بينها ذلك الوجه الآتي من زمن خارج الزمان، يتقدّم موكب أعزّاء رحلوا على غفلة وهم بالكلمة الحرّة، الجريئة ينادون بوطن سيّد مستقل، غير آبهين لما ستجرّه عناوينهم الساطعة على صفحات الجرائد وشاشات التلفزيونات من ويلات وفواجع. هذا الوجه كان يكشح من أمام ذاكرتها أسماء تتوسّل استذكاراً وصلاة. هاتان العينان اللتان كانتا تقهران بشعاعهما العسليّ أشعة الشمس، تسربلان في لحظة تيه حاضرها، تقرأ في لمعانهما العجيب تراجيديا الطفولة وقدر فتاة في عمر الزهو وضعت إصبعها سهواً على أسرار الوجود حتى الهلاك... قالت والصور تتسارع في ذهنها «التراجيديا تطاردني منذ

الطفولة. كم من الأحبّاء، كم من الزملاء والرفاق مضوا في موكب الموت وأنا أحصي أعدادهم وأتعثّر بأسمائهم».

أكثر من الحرب وجرائمها، وأكثر من الجنون المستفحل في حاملي الأسلحة بغباء وغريزة حيوانية، كان غياب ميرا سبباً لأسئلة وجودية باتت مع الوقت وبقدر ما كانت الرؤيا تمعن إصراراً في مناماتها وصحواتها، أزمة نفسيّة ظلّت بإرادة منها مستترة عن عيون الناس الرقيبة، غيورة على سرّيتها أكثر من قصّتها العبثيّة مع «إيغور» أستاذها في معهد الموسيقى، وعودتها بعد سنوات من التيه واختبار مفعول السجون الشيوعية لا بشهادة براءة، لا اعترافاً بذنوب لم تقترفها، بل هي الصدفة الرحيمة التي أمسكت بيدها وساعدتها على الفرار كانبعاث لولادة ثانية. من هذه الفاجعة التي قصفت عمود العائلة الفقري، من خيوطها السوداء، بدأت الصبية المبتورة عن توأمها تؤاسي نفسها في الكتابة، هذه الأوراق التي كانت تحملها في بطن كمانها وتعبر بها محطات عمرها الندي. بين القلم المغموس في الحبر الحالك والورقة حكاية عمر، لولاهما لظلّ الصراخ متغلغلاً، موجعاً في داخلها... إلى أن قرعت ذات يوم باب عيادة المحلل النفسيّ تطلب اعتدالاً لنفسها المشحونة بالقلق، وتحليلاً واعياً، ربما يبرىء ما حسبته حتى ذلك الوقت ذنوباً. هذه الأغنية، أغنيتهما كانت تلاحقها باستمرار، توسوس في حنجرتها المخشّبة، تفرض عليها العودة إلى ذكرى تود أن تنساها: عيد الأمّ والتوأمان تنشدان لها صوتاً واحداً، واليد باليد، «ما أحلاك يا أمّي» فتغمرهما يمنى إلى قلبها والدموع في عينيها تحاول حبسها حتّى تخرج عبارات الحبّ من صدرها نقيّة صافية، لا تغصّ في الحنجرة: «أنتما أغلى هدية أعطاني إيّاها الله». لوهلة حنّ قلبها على أمّها الجريح لكنّها استرجعت ما حلّ

بها والمنظر يكشط عن جسمه غبش السنين لترى ما فعله القدر بهدية الله.

هذا ما كانت مصممة على ذكره لزياد مرجي هذا الخبير في شؤون النفس: «الأغنية توسوس في نخاع رأسي ولا أخطئ باللحن السليم، بل أسمعه يعلو من شقوق حنجرتي، ناصلاً من ميلوديته، منفصماً عن توأمه، يبكي فتوّة مقصوفة، فتزداد اختلاجات صدري ولا أجد سبيلاً لهذه الكآبة سوى ورقتي تمتصّ بطواعية حبراً موحلاً. الكآبة التي اعتنيت ببذورها، ورويتها بماء الحياة سبيلاً للكتابة».

في الليل الموحش الذي تطول فيه المسافات ولا تنتهي، كانت تسمعها تحاكيها. تريد منها استفساراً عن الأسباب التي رمتها في الضفة الثانية من الوجود.

«كأنّي كنت أسمعها تعاتبني لكوني لم أشاركها ذلك الاقتلاع من ملعب طفولتنا بل تخلّيت عنها برعماً على حدود المراهقة، ترحل وتتبخّر في المجهول، وانتهكت العهد الذي تواثقنا عليه يوم أطلقنا رحم أمّي إلى الدنيا، بألاّ نفترق. تريدني أن أتذكّر تلك اللحظة الواقفة على حدّ شفرة بين الشمس والظلمة. فالراحلون لا ذاكرة لهم سوى الاستفسار عمّا حدث، يتطاولون على الأحياء، يطاردونهم في مناماتهم، في ساعات النهار وأتعثّر في الإجابة لعجزي عن استنباط أسرار الموت وإدراك أساليبه. فما بقي من هذا الفراق، سوى ذكريات موجعة ورزمة صور لم تنجح العدسة في التقاط ذلك اللغز الذي كنت رغم صغر سنّي ألمس وجوده وراء ابتسامتها المشرقة، وخاصّة أغنية من أربع نوطات ولازمة أسعى بصعوبة إلى لملمة كلماتها المعبّرة لعلّي في رصف قوافيها أسترجع

بعضاً من طفولة أضحت أسوة بالأغنية شظايا من زمن بتنا نسمّيه زمن ما قبل الحرب.

«لقد كنت أكثر من العودة إلى ذلك الماضي بحاجة إلى الاغتسال من ذنب البقاء مهما حاولت إيلاد الأغنية بلازمتها ونوطاتها الأربع وكأنّي بها أطلب عفواً من مملكة الطفولة».

هذا البوح الأول في عيادة زياد مرجي غيّر تصرّف المرأة في معالجة قصّتها. فمن ضمير الغائب «هي» انتقلت براحة أكبر وإفشاءٍ جريء لحياتها، إلى «الأنا». به تعرّت عن غموضها وكشفت عمّا كان مستتراً في حنايا المرأة التي أصبحت. فهل كانت تهرب إلى «هي» خوفاً من محاكمة «الأنا»؟ هذا الأنا المرتبط بتوأمه حتى ما بعد الموت. هكذا أعطت الأوامر لقلمها لأن يكون قريباً منها، من خفقات قلبها وهي منكبّة على أوراقها وأداتها ضمير المتكلّم.

يوم قصدت عيادته كنت شبه مقتنعة بأن تلميذ جاك لاكان الذي كرّس اختصاصه لكيمياء الدماغ، مخلصاً لأوفى التقاليد العلاجية، مدافعاً في محاضراته ومؤلفاته عن الفكر المتحرر، الواضع دروباً حديثة للتحليل النفسي، لم يكن يعلم عنّي سوى مهنتي في مجال الصّحافة. أمّا «أنا» فكنت أعلم عنه الكثير من خلال المقابلتين اللتين أجريتهما معه أثناء مؤتمر التحليل النفسيّ الذي جمع آنذاك على ثلاثة أيام علماء نفس ومحللين من مختلف المدارس، لا سيّما الاجتهاد الشاق الذي وظّفته لاستيعاب كتابه الصغير «تدمير إمبريالية الوعي» وقد لاقى تعليقي الصحافي عليه صدى جيّداً لديه.

استقبلني بحفاوة دون تصوّر سابق لما جئت أبحث عنه في عيادته، سوى ربما متابعة لمواضيع سابقة كان يعالجها بشكل مبسّط كتوعية في متناول القرّاء.

دخلت فوراً في صلب الموضوع. معرّاة من وظيفتي كي يرى المرأة التي أمامه بوجعها وهلوساتها وعوراتها. قلت:

«قصدتك لأنّي بأمسّ الحاجة إلى معلّم في قضايا اللاوعي باستطاعته اختراق مجاهلي ورفع السدود عن بئر الخوف المعشّش في، النازف في شقوقه ناراً حارقة اسمها الذنب».

كانت المرّة الأولى أراه فيها يبحر في وجهي كأنّه يستفقد شيئاً أضاعه. سؤاله جاء ملتبساً:

«هل أنتِ في صدد كتابة رواية جديدة تريدين منّي أن أحلل شخصيّاتها معك؟».

قلت: «بل هي قصّتي، بمراحلها ولكلّ مرحلة عشتها حتّى الآن ارتباطها العضوي المؤلم مع الأمس البعيد. لا أدري إذا ما كنت أحنّ إلى الطفولة أو أنّي أسعى إلى الهرب منها. لا أدري إذا كنت أود أن أتذكّر لأكتب أو أن أنسى وأمضي لأعيش كلّ يوم بيومه كما سائر الناس المعتدلين مع الوجود. مذ بُترت عن توأمي «ميرا» وأنا أتبادل لعبة الحياة والموت معها قسراً لا بإرادة مازوشية منّي».

لم أقل أكثر. لم أبدأ بالحكاية من أوّلها، فهل للحكايات فعلاً مفتاح لا يدور في مزلاجها سوى بعبارة «افتح يا سمسم»، أو بأسلوب شهرزاد الحكايات «كان يا ما كان في قديم الزمان»؟

عاد وحملق في وجهي كرسّام يسجّل الملامح في ذاكرته قبل الخطوط الأولى على القماشة:

«إعلمي بأنّك في هذه المبادرة الجريئة لا بدّ أن تسيئي إلى قلم

كاتبة، من اطلاعي على البعض من كتاباتها وتمعّني بأسلوب معالجتها الأحداث الدامية، الجارية في الوطن، أدركت كم هي تجازف في اللاوعي الغامض وكم تغمس رؤاها وهواجسها في حبره، من أجل بناء عالمها الروائي. ثقي بأنّك في كل جلسة وأنت مستلقية على هذه الكنبة تخضعين نفسك لما يشبه التصوير على أشعة الليزر، الكاشفة تفاصيل منك كانت غير مرئية. المحلل لا يدّعي الفوز دوماً في هذا الغوص الدقيق في مجاهل الإنسان الضائع بين الواقع والوهم، عليه أن يحذر طالب التحليل كاتباً كان أم موسيقياً أم رسّاماً أو مبدعاً في أي مجال كان أنّه بتعريض خفاياه للتأويل والتحليل فكأنه يمسّ بأثمن ما في هذه البئر المتفجّرة عطاء، اللاوعي».

سألته:

«أين يا ترى أجد حلولي إذاً؟».

أجاب وكأنّ الجواب كان حاضراً قبل السؤال:

«في الكلمة... كلمتك. في تواصلك الدائم بها، تروين القصص، تحلّلين شخصياتها بأدواتك الفكرية والخيالية».

بالرغم من التحذيرات التي عرضها أمامي بأسلوب هادئ كي أعي خطورتها جيداً، بقيت على إصراري، جاهزة للغوص في هذا الإختبار المثير والذي آمل أن أصل من خلاله إلى تحرير كمخات الانحراف والالتباسات الغامضة، المحاصرة توازني.

قبل أن نحدد موعد الجلسة الأولى ذكّرني بابتسامة ساخرة على

طرف شفتيه بما حفظه من «فرويد» القائل أن «اكتشاف اللاوعي، هذا الذي جئت إليه أبحث عنه، لا بدّ أن يفاقم الجرح النرجسي الذي يذكّر الإنسان بوجوده، «فلا يعود «الأنا» سيّداً في منزلك. أمّا الوعي هذا الإحساس بالذات، فيقال عندئذ من مملكته مسبّباً ضربة قاضية على ما وراء النفس».

لم أفهم ما قاله. لم أعر اهتماماً إلى «سيّد المنزل» ولا حتى عندما ختم محاضرته العلميّة بعبارة أكثر غموضاً من مملكة الوعي والجرح النرجسيّ إذ قال عن لسان فرويد أيضاً إنّ في ما يخص اللاوعي فالمتكلّم هو العلّة في العلّة التي تتجاوز السبب. يبقى الكلام القوّة الفاعلة في التحليل النفسيّ».

قلت في نفسي كيف عساي سأنجح في سعيي مع هذا المتفاصح بمعلوماته الصعبة. قبل أن أنصرف طرح عليّ سؤالاً كان ذا أهمية كبرى لديه:

«بأي لغة تودين الكلام؟».

أجبته فوراً من غير أن أستفسر عن اللغة التي يرتاح لسماعها لعلمي بأنه أقام في باريس سنوات طويلة للعلم والتطبيق:

«سأتكلّم بلغتي ـ قلت ـ تلك التي أكتب بها، فعلاقتي بها ترابية، زرعية، عليها أرمي أحاسيسي بلا تكتّم. وسأكون كذلك معك كما لو أنّي أكتب وأنا مغمضة العينين».

الذاكرة كالناعورة مع كلّ دورة زمنيّة تغوص في عمق مياه الحياة لتعيد إلى سطحها أموراً من الوحول المتراكمة في أسفلها. كان لا بدّ لي من أن أسمعه في بداية جلستي الأولى مع زياد مرجي، الصوت الذي استفاق عليه حيّنا في ذلك الصباح من أيلول. صوت استغاثة من رحم امرأة كان لدويّه وقع أكبر تدميراً وخراباً من انفجار راجمة. دويّ بشريّ يخاطب الموت بالعويل.

قلت: من آفات الحرب التي تأقلمت في معايشتها مذ عدت من غربتي الطويلة، حتّى حفظت غيباً نوع الصواريخ الهابطة على البيوت، وطراز الراجمات الهادرة كبركان قبل انفجار، هو هذا الصوت الذي ما زال يطاردني في مناماتي، يومض أمام عيني، بين السطور التي أقرأها، بين المارّة، في صدى رشقات ليلية، يباغتني، يعيد إلى أسفل معدتي الجمرة بلهبها الحارق، فأشعر لوهلة بما يشبه

الإغماء، فتخور قواي، سوى قلبي الذي أسمعه يدبّك كالمجنون على قفص صدري يطلب النجدة.

صوت أمّي المفجوع وأصبعها المصوّبة في نظراتي المذهولة، يسألني: «أين أختك يا مايا؟ لماذا تخلّيت عن مرافقتها؟ لماذا خرجت من دونك؟» ومع كل «لماذا» كانت اللطمات والكدمات تنهال عليّ من كفّيها، من قدميها، تسمّرني في الجدار لتتحكّم فيّ تعذيباً وإيلاماً.

القرية نساء ورجالاً هبّت برفقة والدي وخالتي للبحث عن هذه الفراشة التي استبدلت في ذلك الصباح فستانها المعرّق بوشاح الأثير ومضت حيث الأسطورة التي كانت تتقن طقوسها كما ترويها وتزخرفها جنان بالأرجوان وكحل الشرق.

كنت تحت غضب أمّي فلقة التوأم التي لم تعد تستحق الحياة بعد هذا الانفساخ. لم أطلب النجدة، لم أدافع عن نفسي، لم أحاول الهرب من كلّابتي يديها. وقعت مغمياً عليّ من الإعياء والنزف من أنفي، من شقوق الجدار الذي أكل نصيبه من النزف من جرّاء كدمات رأسي الوحشيّة عليه.

كنت ممدّدة على كنبة ضيّقة منخسفة في وسطها. ربّما من كثرة المدمنين على عيادات أطبّاء النفس والأمراض العقليّة مذ عمّ الصمت الرهيب بعد إعلان انتهاء حرب ظننّاها لشراستها وكثرة المتعاقدين عليها، أبديّة.

على سنوات القتال الطوال، اعتاد الناس النوم على أصوات القنابل والتباري في لعبة إحصاء الجهات المتساقطة منها. غير أنّ إيقاف

الحرب فجأة في وطننا الصغير بدون سبب عاقل تماماً كما اشتعلت من دون أي دافع قابل للتبرير، بلبل توازن الناس في هذا التغيير المفاجئ وقضى على لعبة التوقّعات التي كانوا يمارسونها، بعدما أفرغت السماء من المبارزات بين فريق الراجمات وفريق الصواريخ. لقد كان شغل الناس الشاغل في بلد شلّ من طاقاته الحيويّة وسلّم زمام خرابه للميليشيات، مناصرة هذا الفريق على ذاك ولو أن الأهداف لدى جميع الفرقاء كانت تلتقي عند مفهوم واحد، تدمير البلد، تخريب أسسه ومحو ذكراه.

أتاني صوته الهادئ المهموس همساً يسألني:

«لماذا عدت وكنت تعلمين أنّ الوطن أصبح ساحة للاقتتال؟». كنت مستعدّة لسؤال طرحه عليّ الزملاء عشرات المرّات وكنت أتلعثم في الجواب الصحيح، للكتمان الذي أحطت به الناحية الغامضة من حياتي. قلت:

«كأنّي برجوعي إلى الوطن بعد تجربة قاسية في روسيا، جرى بعدها تيه في بلاد العالم، كنت أبحث عن علاج، ربما يعفيني من حربي الجوّانية المتقاتلة أسبابها بوحشيّة في خلايا عقلي، فأشارك الناس المفجوعين من جرّاء الحرب، حدادهم. أتعلّم خاصة أنّ البكاء الجماعي اغتسال من البكاء المالح الذي تذرفه ذكريات الطفولة كلّما هززنا أغصانها، هذا البكاء الشبيه بالنباح كلّما التطمت هشاشة البراءة بمعدن الظلم وتفتتت غباراً».

الخبر في ذلك الصباح تصدّر عناوين الصحف:

«انتهاء الحرب الطويلة في لبنان».

تخيّلت وأنا في طريقي إلى الجريدة أنّ الجو في البلد سيكون عناقاً وحبوراً وأملاً في المستقبل. عبرت فوراً في مخيّلتي مشاهد الفرح التي عمّت فرنسا عند إعلان نهاية الحرب العالمية الثانية، وباريس المحرّرة تحوّلت إلى ساحة للرقص والأغاني الوطنية. هنا كان انتهاء الحرب مختلفاً، شبه صفقة بين أميركا وإسرائيل وسورية، تكرّس لبنان الضعيف كبش محرقة يدرّ المصالح والمغانم على المحتل، والفقر والاغتراب والقمع على أهله.

بالرغم من وقف القتال ظاهرياً كما تناقلته وسائل الإعلام الأجنبية والمحليّة، بقينا نسمع دبيبها في دعسات جنود الاحتلال مقابل

صوت الراجمات التي صرنا مع الأيام نشتاقها في مقارنتها بالحواجز المذلّة وأجهزة المخابرات المستبيحة الشوارع والمؤسسات والفكر الإنساني. أما الأشباح الليليّة فلم نكن ندري بوجودها سوى حين يتوارى صاحب رأي عن الوجود فيتمّ العثور عليه بعد أيّام في الأحراج جثّة مبتورة الأصابع التي كتب بها احتجاجاً، مفقوء العينين اللتين تجرّأ بهما ورأى وشهد.

يوماً تلو يوم وفيما كنّا نلملم أشلاءنا لإعادة بناء الذات ونشيّد لأمواتنا مدافن تليق بهذه المحطة التي رسوا فيها مكرهين، بتنا ندرك المفعول السلبيّ الذي يقترفه وقف الحرب الكاذب على عافيتنا العقليّة بعد أن أدمنّا أصواتها المدمّرة.

للإنسان أساليبه العفويّة في معالجة أورامه النفسيّة. مداواة الحرب كان علاجها داءها. أخبارها أضحت كعصرة حامض إضافية على صحن التبولة، وزؤاناً مرّاً ضرورياً في رغيفنا اليومي، نتبادلها مع تحيات الصباح، نمسّي بها العابرين أمام بابنا، نأبى الانحراف عن تواريخها والتلعثم بأسماء الشهداء، وكأنّ في الابتعاد عن تفاصيلها الصغيرة والكبيرة نكراناً للوطن ووصمة عار على جبينه. الشاطر كان ذلك الذي يغالي في سرد الأحداث، فينسب لنفسه أعمالاً جريئة، وأحداثاً مفجعة من خطف وتهديد واقتحام لحرمة منزله، تكبّدها العشرات سواه.

بعدما توقفت الحرب وعمّ الصمت الكاذب صار بإمكان كل كائن قدّر له البقاء في وطنه حيّاً أن يحمل على صدره وسام الحياة، يموّه به هزيمته، إعاقاته الجسديّة والنفسيّة.

مرّات وأنا مسترسلة في الكلام، وكانت الجلسات على هذه الكنبة

متواصلة، تحدّدت في زيارة واحدة كل أسبوع، كان يتدخّل بذلك الصوت الخافت الذي كنت لا أكاد أعي ما يقوله، لينبّهني إلى عدم تقيّدي بتراتب زمني:

«أنت في صدد الخلط بين أزمنة متفاوتة، متشابكة في فكرك تعيق ما أنت تبحثين عنه».

كيف كان السبيل إلى هندسة سليمة في دماغي والأوهام تجتاحني في أمواجها العاتية؟ ما كنت أطلبه من هذه الجلسات هو التوصل إلى حلّ الخيوط المتشابكة التي كنت عاجزة عن فصلها أو بالأحرى لم أكن لأتجرّأ على التيه في كهوفها خوفاً من إيقاظ الوحش الراقد على باب أحلامي ويقظتي.

قال: «الحرب بمآسيها ليست قضية إنسان بمفرده. شعب بأسره زجّ في جحيمها. أنت نلت منها حصّتك بموت جدّتك، بجنون خالتك وسعيت إلى تعزيم الوجع الكبير بقلمك. لم يتفتت رحمك أسى مميتاً كما أصاب آلاف الأمّهات. أظن أن الهواجس التي تتآكلك هي أعنف من الحرب».

عبرت مشاهد سريعة في رأسي، مريعة، ساخنة من زمن ما قبل الحرب، كما قال. «لقد كنت مذ عدت إلى الوطن وقرّرت الاستقرار في بيت جدّتي، في اتفاق مع ذاتي، بأن أسدّ ثقوب هذا الأمس النازفة، بأسمنت الحرب. سنوات مثقلة بمآسي القتل والتهجير واستشهاد الرفاق الشجعان، حوّلتني من مأساة الفرد إلى مأساة وطن. بها أسكت الماضي. بيد أنّ الأسباب التي دفعتني إليك هي تلك الخيوط الزمنية، المتشابكة اللزجة في التصاقها ببعضها ولا أقوى على ترتيبها في مسارها الصحيح، محدثة خللاً

في جهازي العصبي. فهل أنا مسؤولة عن مناماتي أو عن تلك الاختلاجات شبه الصرعية التي تنتابني حين يعلو غناؤها من أعماقي، متزامناً مع صوت الراجمات، أو منذراً بحدوثها؟».

في مواجهة أسرار الكون تغدو الكتابة كما الموسيقى، كما النحت في الحجر، مغامرة لكل كائن يسعى إلى علاقة مطلقة.

في بداية جلساتي مع زياد مرجي، أو ربّما في لقائي الأوّل به لا كمحرّرة بل كطالبة علاج، وكنت مصرّة رغم تحذيراته الذّكية على الغوص في هذه التجربة الشبيهة كما قال بمغامرة في جحيم الذات، سألته إذا كانت ثمة وسيلة تخرج الصامت عن صمته وتدعه يحكي دونما تحفّظ عن كل ما حدث له. أذكر أنّي قلت له:

«في بئري سنوات عمر مطمورة في مياهها الآسنة لم أفش بها لأحد حتى الآن، بل كنت أسدّ منافذها أمام جميع الذين عرفوني في المدرسة والجامعة وفي شتّى الميادين التي توظّفت فيها، من حضانة أطفال إلى دروس خصوصيّة في المنازل إلى بائعة في محلّ

للعطور ومستحضرات التجميل، وظائف طيّارة لم أستقر عند واحدة منها من أجل متابعة دروسي في الآداب والموسيقى وكنت دوماً أحاول الهرب من ذلك الشعور المريع بأنّ المآسي تطاردني والأموات يلاحقونني لا سيّما ميرا التي شقّت أمامي درب التنقيب في أسرار الموت ويقيني أنّي بها سأبلغ الحدود، تلك النقطة القاطعة التي ستجعلني ألمس الأبديّة».

سألني: «ولماذا كل هذا التكتم؟».

«خوفاً من تدمير ما حاولت بناءه على مراحل متعاقبة من وجودي، وبالرغم من ذلك كان لديّ شعور دائم بأنّ ما حصل لم يتركني وشأني بل واظب على تعذيبي وقرض الحفافي التي أعدت مرّات ترميمها لئلاّ تسقط غباراً حين أعياني الجهد وأتلفني الصمت».

سمعته يقول بأسلوبه الهامس حتى لا تجفل الكلمات التي على وشك أن أنطق بها:

«الترتيب الرمزيّ الذي عليه أسّس فرويد التحليل النفسيّ إنّما هو قائم على اللغة كتحديد للخطاب الكونيّ الموضوعيّ. عالم الكلمة هو من يخلق عالم الأشياء الغامضة أصلاً، والقابلة لأن تتكوّن. الكلمة وحدها باستطاعتها أن تمنح جوهر الأشياء معناه، وبدون الكلام عدم. فأيّة متعة للكاتبة بدون هذه الوسيلة الرائعة، الكلمة؟».

قلت في خيالي، قد يكون حدّد كلمة «كاتبة» عمداً كي يخلق بيننا ثقة وجوّاً حميماً يناقض أجواء التحليل النفسيّ. ولكن وبدون قصد منه، أراحتني الكلمة وأشعلت فيّ إحساساً غريباً كالذي يعبر في وجنات المراهقات حين يمتدحهن فتى ويثني على جمالهن.

أبعدت فوراً فكرة علاقة بين زياد وبيني. فهل غابت عن فكري صورة التلميذة المتيّمة بأستاذها العجوز، تنتظر منامات الليل لتختبر بين ذراعيه طعم الحبّ الممنوع؟».

أفقت من سفري إلى هذه الحقبة السوداء لأجد نفسي أنّي ما زلت على الكنبة المنخسفة، وأوجاع نفسي أشدّ ضراوة من التوتّد الذي تسبّبه الكنبة في عمودي الفقريّ.

كان يحاول سبر ما في هذا الصمت المفاجئ. طلب منّي أن أساعده في ذلك:

«مهما علا صوتك صارخاً يطلب من الأعماق أن يكف هذا «الغناء» عن تعذيبك، ستظلّين ترمين التهمة عليه ما دمت مقفلة على الدملة النتنة التي تتآكلك».

أدركت أنّ هذا الرجل يقرأ ما في سرّي، يتحرّى عنّي، سمعت المخابرات السوفياتية تقرع باب غرفتي، ترفسه بجزمتها الحديديّة. الصور في رأسي سمعت ضجيجها، سرعتها المتزايدة، تشابكاتها في بعضها كأنّ حياتي كلّها تناهت في قمامة نتنة.

من أين أبدأ يا ترى؟ وكنت في هذا الوضع الأفقي سلّمت أمري للتحليل النفسيّ بقناعة كليّة بأن المصاب بجرح أو جروح في نفسه هو لا محالة إنسان مريض لا بد له من علاج. وعلاجي كما قال هو الكلمة، كلمتي.

كان عليّ أن أفتح نوافذي المقفلة وأن أجعل بيني وبين الهواء مسايرة، يحاكيني وأروي له، أفشي، أحرّك الوحول الكثيفة

لأستخرج منها جذور العلّة. لكلّ ذلك كنت تواعدت مع نفسي على أن أكون واضحة رغم الغبش المكمّخ ذلك الجزء من حياتي، أن أكون دقيقة في استرجاع التفاصيل الضائعة تلك التي قد تعيد إلى الفسيفسائية المفكّكة لحمتها، فأساعد بما أملكه من هذيان ووعي هذا المنقّب الوحداني في لاوعيي، الجاعل من الكنبة مختبره. بيد أن الزاوية المعتمة التي كنت حريصة على طمرها، كانت هي أساس العلّة، كما فهمت من أقواله التي لم يكن من السهل فهمها أحياناً كثيرة.

ظلّت كلماته الأخيرة، تسير معي على رصيف العودة:

«أي حكاية باستطاعتك كتابتها وجمع فصولها في تراتب زمنيّ صالح للسرد! وكيف السبيل إلى التقاط طرف الخيط والمادّة القصصية مبعثرة، لقيطة، تشكو من ثقوب، من فسحات بيضاء، من أصداء تتماهى فيها الأصوات ذات الملمس البشريّ الحقيقي. كأنّك يا مايا ابنة الخيال».

من بين الذكريات التي تترسّخ في الحواس وتبقى وفيّة لها، رائحة القهوة المبهّرة بحَب الهال التي كانت تلتقط شمّنا ونحن الثلاثة أنا وميرا وجنان نعبر الأزقّة الضيّقة المتعرّجة بين بيوت القرية، في تنزّهاتنا المبكرة المنسّقة لمشهد شروق الشمس، كنت أنا وميرا على يقين بما تخبرنا به الخالة بأنّ أجمل تحية نرفعها للشمس هي أن نستفيق قبلها ونقف على طلوعها. في ذلك الصباح وقد مضى على ذلك الأمس أكثر من ربع قرن كانت الركوة جاهزة بلهبها، القابض على سنوات خلت كرهينة لا يفكّ أسرها سوى انبلاج الحقيقة. لم أكن في ذلك اليوم وأنا أقرع باب خليل ونبيلة أحاول أن أستنبش ماضياً يعيد له ملامح طفولتنا. كان في بالي أن أقرع بيوت القرية كلّها ومن بقي من أهلها لأستدلّ منهم إلى ما حدث لجنان خلال المرحلة التي تركت فيها التعليم. مرحلة معتمة، كأنّ الشمس لم تعد تشرق أثناءها من خلف الجبال، كأنّ الليل الطويل

تولّى وحده توزيع مناشيره المقلقة وتشييع الأخبار التي من شأنها إلهاء قرية برمتها وإيجاد ما هو ألذّ وأمتع من برامج «أبو ملحم» و«أبو سليم» التلفزيونية.

القرية التي حضنتني وسعت إلى دمل جراحي بالتعويض عن أمّي الضائعة، بعشرات الأمّهات، بدت لي الحياة فيها وأنا أتجوّل في أحيائها التي قضت الحرب على العديد من بيوتها وجرفت من فيها إلى ديار الاغتراب أو الموت، جامدة، تنزّ من شقوقها فراغاً وحزناً. كنت مصمّمة مذ تسلّمت من كاتب العدل شهادة تعترف بأنّي مالكة هذا العقار وما يحوط به من بساتين، على ترميم الخراب الذي لحقه ومعه ترميم ذاتي. هذه الهدية من جدّتي نسيمة تلقّيتها صفحاً عن أخطائي التي اقترفتها وتلك التي زُججتُ فيها ظلماً.

لم يكن هذا المشروع المكلف مادياً ومعنوياً خالياً من الشعور بالانقباض. لقد كان حدسي يوسوس في نخاعي أموراً كانت مطمورة بين ثنايا العمر وسوف تنقشع حين يبدأ العمّال في رفع الأنقاض عن الغرف المنكوبة. وكنت مدركة بأنّ الذكريات ستستيقظ من بين الغبار لتنجلي معها حكاية المعلمة جنان، الراوية التي فتنت بقصصها خيالنا وظلّت حتى ابتعادي عنها وأنا في سنّ الشباب التائق إلى المغامرة الكبرى والتحرّر منها رغم تعلّقي الشديد بها، تخفي عن أنظاري سرّاً كانت تعيشه ليلاً متقوقعة في محبستها كما كانت تسمّيها «تخطّ رسائل منها إليها لا عناوين لها خارج غرفتها» والعبارة هذه للجدّة، قالتها ذات يوم بنبرة من التأفّف، وكان قد عيل صبرها من تصرّفات ابنتها الشاذّة:

«لمن تكتبين يا جنان؟ كفّي عن هذه الأوهام وعودي إلى المنطق فساعي البريد لن يقرع بابنا بعد اليوم».

مع الصباح كانت جنان تستعيد شكل المعلّمة، المتفانية في زرع الوعي والمعرفة في عقول طالباتها وكنت مذ أخذتني تحت جناحها، أعبّ العلم منها كما كنت أسمعها ونحن في طريق العودة إلى البيت، تشكو قدرها. لم أكن آنذاك على سعة من النضوج الفكريّ لأسبر ما في نفس هذه الخالة من أسرار عاطفيّة، لكنّي كنت ألتصق بها وأشدّها إليّ، عربون حبّ ومؤاساة. عمري الصغير لم يكن خزّن بعد في وعائه المثقوب على الهواء واللهو، ما يتساوى بجنان من حزن وشجن. فأجمل ما في الصغر تلك الممحاة الدعوب التي تجرف في دربها أنواع الجور والعنف والقهر تاركة مكانها طلاء مؤقتاً لا يطول به الزمن حتى تسقط قشوره وتنكشف الخدوش والإصابات النفسيّة التي كانت محجوبة بفعل الطفولة السحريّ.

كانت القهوة في ذلك الصباح مغليّة على نار تنذر بأخبار وشائعات وثرثرات. لمست ما يشبه الريب في نظرات العجوزين المتفرّسين فيّ كأنّهما ينتظران منّي أن أوافيهما بجديد. حفاوة اللقاء وقهوة الضيافة كانتا ملغومتين بالكتمان والأسرار المموّهة التي كدت أقرأ مغازيها بين طيّات التجاعيد القاسية.

فما علّمتني إيّاه التجارب القاسية حين كنت أمتحن قواي المعنويّة والجسديّة وأنا تحت أضواء التعذيب، خاضعة لاستجوابات عبثية تريدني أن أتلعثم في كلّ كلمة لتعلو وتيرة الاستحقاقات ويغدو العقاب الشرس، متعة وقهقهات في وجوه معدنية، حاولت في هذه الجلسة الصباحية مع هذين الجارين أن أواجه النوايا السيئة

والتأويلات المغرضة في حقّ المعلمة جنان، بسلوك هادىء واهتمام مصطنع لأقوالهما كفيل بأن يولّد جوّاً من الألفة مدعوماً برائحة القهوة المرّة ولهبها الخبيث.

«مسكينة نسيمة، لقد ذاقت مرّ الأهوال، باختفاء حفيدتها الذي ما زال لغزاً مرّ عليه الزمن ولم ينقشع. إلى إصابة جنان بالجنون وهجرة ابنتها يمنى حتى فاجعة موتها تحت أنقاض غرفتها. الراجمات التي فاجأت القرية في ذلك الليل لم تُتح لها فرصة الهرب إلى ملجأ الدير الذي أوانا. شباب الدفاع المدنيّ الذين لبّوا نداء الاستغاثة انتشلوا نسيمة من تحت أكوام الحجارة. في ضلوعها المحطّمة مآسي أسرة موسومة باللعنة كما كانت تردّد حين يضيق صدرها ألماً».

بالرغم من تأفّفي المكتوم داخل قضبان صدري من ثرثرات نبيلة وإلحاحها في إبراز الوجه السيئ للمعلّمة جنان وتأثيرها السلبيّ على طالباتها حتّى إقالتها من المدرسة، والخزي الذي لحق بأمّها من جرّاء ذلك، بقيت على هدوئي، أمجّ القهوة وأرهف السمع على أن أفصل في ما بعد القمح عن الزؤان والحقيقة عن هذه التعدّيات المغرضة في حقّ إنسانة أرادت دوماً أن ترشّ الأحلام في طبخة الواقع.

ويأتيني صوت جنان، أسمع صداه من البعيد، أتذكّرها في هذه المهمّة الصعبة التي كانت تعتبرها مجازفة بالرغم من خطورتها، مصمّمة على أن تجعل من طالباتها فتيات نموذجيات، يرفسن التقاليد القامعة، المحنّطة، ويتحررن من بيئتهن الصدئة إلى عالمٍ رحبٍ خارجها.

كانت هي المرّة الأولى أزور فيها جنان في المصحّ. المسافة التي قطعتها للقياها كانت أشبه بتلك التحدّيات التي كنت أمارسها على نفسي لأتقوّى. فالرياح التي سمعتها تصفر في صدري تلقّيتها كإنذار لكي أتوخى الحذر من هذه المقابلة. عاطفتي وحدها دفعت بي إلى هذا المكان المرصود على إذابة الذاكرة «والأنا» بالعقاقير المبيدة لكيان الإنسان وخصائصه فيغدو عوداً يابساً من بين العيدان المعدّة للمواقد. أمّا فكري فلم يتنبّه إلى ما ستكون ردّة فعل الخالة وابنة اختها بعد سنوات الغياب كلّها، وبعدما نالت كلّ واحدة منهما حصّتها من نعيق البومة على سطح البيت.

الاتصال بالدير جرى عبر الهاتف وصوت الراهبة يأتيني مرحّباً بهذه الزيارة ومذكّراً إيّاي بما يتوجب عليّ تسديده مقابل العلاج الذي تتبعه المريضة لتهدئة أعصابها المضطربة وهلوساتها التي باتت

مزمنة، بالإضافة إلى بعض الملابس الشتوية التي هي في أمسّ الحاجة إليها في أجواء الدير الباردة.

كنت في صدد تسجيل طلبات الراهبة حين سمعتها تكمّل ما رواه عجائز القرية عن جنان وكأنّ بين القرية والدير مسلسلاً مأساوياً يستحق إخراجه على شاشات التلفزيون:

«المؤسّسة الإنسانيّة لمساعدة القرى المنكوبة، هي التي أتت بجنان إلى الدير، لكنّ المسعفتين اللتين تولتا نقلها إلينا لم تتمكّنا من إفادتنا بمعلومات كافية عن وضعها سوى أنّها كانت تائهة بين أنقاض البيوت تنادي أمّها، بقميص شفّاف، وصلت به إلى هنا وترفض بالعويل والصراخ أن تتخلّى عنه. إنها حقّاً في وضع نفسيّ خطير».

قلت، للتعريف عن نفسي، ولكي تكف الراهبة عن ترداد مأساة جنان وقد سمعتها مرّات من عجائز القرية وفي كل مرّة إخراج مختلف يطلب فيه الراوي علاجاً للفراغ الذي بات قدره:

«أنا ابنة أختها ولم يمض على عودتي من الغربة سوى أيام، وسأتكفّل بجنان من الآن وصاعداً ولا أحد سواي».

رأيت عبر أسلاك الهاتف، أساريرها منشرحة حين وعدتها بأن آتي غداً صباحاً إلى الدير وأرى ما في وسعي فعله مع الرئيسة والأطباء المعالجين علّنا ننتصر على أوجاعها النفسيّة.

أقفلت السمّاعة والبكاء عواء في صدري. جنان هي التي ربّتني وأنفقت جنى عمرها في التعليم لتراني مكتملة ثقافة وعزفاً على

الكمان، وها أنا اليوم مدعوّة لأبادلها ما ضحّته من أجلي. فيا ليتني أملك العافية النفسيّة المتينة الكافية لمساعدتها وإخراجها من محنتها.

جنان وجدت من ينشلها من بين أنقاض القرية ويأتي بها إلى حمى الدير، أمّا أنا فأنقاضي فيّ تسير معي بأكوام حجارتها الثقيلة ولا أتوقّف، ولا أدع أحداً يقرأ ما في سطور نفسي.

تحوّل قلم الكاتبة، من ذكرياتها المقصوفة، الواضعة إصبعها باستمرار على الشقوق النازفة، إلى أوراق جنان المنسوجة على نول من الواقع والخيال، بأسلوب يستفز شغف التأليف والسفر في رحاب هذه المرأة التي آمنت بالأساطير خلاصاً من عذابات الأرض. من صفحة إلى أخرى كانت جنان جاهزة في ذهن الكاتبة بشعرها الأسود المشعث وعينيها الزائغتين بلونهما الأسود الليلي وتنانيرها الفضفاضة، الملوّنة، كتنانير الغجر، تطلب منها ما دامت استولت على أسرارها المخفيّة، أن تضعها في عالمها الخرافيّ، في سيرة نساء الأولمب. فحتّى في هذا المصحّ المرصود لمحو الذاكرة والمخيّلة سوى من الهواجس المريعة، ظلّت جنان تتكنى بـ«أوريديس». ففي كل زيارة كنت أقوم بها الى المصحّ، كنت أجدها في وضع جامد قبالة النافذة، تنتظر الخلاص من «أورفيوس» ونغم سيتاره الذي سيتغلّب لامحالة على الموت ويخرجها بعد الظلمة الطويلة إلى الضوء.

في هذا التناضح بين إناء الخرافة وإناء الواقع، إستدللت إلى الحبّ الحقيقيّ الذي منه عبرت جنان إلى إلياذة هوميروس وما عادت تغادرها. «تييو» عالم الآثار اليوناني الذي جاء إلى لبنان مع بعثة أركيولوجية مكلّفة من منظمة الأونيسكو للتنقيب في آثار صور شقّ لها طريق البحر بين بلديهما.

كانت يومها الطالبة في التاريخ وعلم الآثار حين دعيت لحضور الندوة التحضيرية لبدء التنقيب عن المدينة الرومانية ـ البيزنطية. بعدها وبناء على اصرارها مضت إلى صور في عداد البعثة، كطالبة متدرّبة وفي ذاكرتها ما روي في أقوال المحاضرين عن أعمدة من الرخام وشوارع مرصوفة بالفسيفساء ومدافن قد تكشف خلال الحفريات عن نواويس مزخرفة بالنحت وميدان للخيول شاهداً على ازدهار المدينة.

مضت إلى صور وفي نيّتها أن تكون المدينة الفينيقية محور أطروحتها، لكنّ الحبّ كان في انتظارها في الحفرة التي جمعت يديها بيدي هذا الشاب الملوّح بشموس التاريخ، الحامل في أصابعه أساليب الإغراء وحنكة القرصنة في سلب القلوب والتغرّب بها إلى الجزر المسكونة بالحوريات وربات الوحي.

لولا الأوراق المكتوبة بمادة البوح الحميم، لولا الرسائل التي كانت تعبر البحر المتوسط ذهاباً وإياباً وكلها وعود، ثمّ في اتّجاه واحد لم يبارح الغرفة الشاهدة على لوعة الصبية، لما كانت الكاتبة في دخولها أرض جنان واستباحتها ملكيتها الخاصة، التقطت رأس الخيط الذي قادها إلى أمس بقيت آثاره تولّد مواسم من الرسائل وصفحات من الخواطر الدامعة، إلى يوم خطف القدر ميرا وزلزل القناطر وتحققت توقعات بشيرة الكردية.

ميرا ومايا كانتا في سن الزهو آنذاك والافتتان بهذه الخالة وسنابل القمح بين أصابعها تجدّلها ضفائر تكلّل بها هامتيهما. الأسطورة التي كانت بحاجة إلى تردادها حين تخرج إلى رحاب الحقول كست الفتاتين بهذا الوهج الآسر من الخيال حتى أصبحتا تسمعان الهواء يكلّمهما عن نساء ساحرات ما بين ملتقى النهر بالبحر، يصل إليهن بحّار في مركب تسيّر اتّجاهه أشرعة بيضاء، فيختار الأجمل بينهن ليرحل بها إلى جزر مزنرة بمياه فيروزية وصخور مرجانية.

والآن والأوراق المعقودة بشريط حريري بين يديها تتساءل مايا إذا ما كان لهذه الخالة العجيبة من قدرة سحريّة استقوت على خيال ميرا وسطت على عمرها الرخص، حتى الجرّ بها لاشعورياً إلى مصبّ النهر الهادر حيث مركب البحّار في انتظار الفتاة المختارة لهذا السفر، إلى تلك الجزيرة الواقعة في الطرف الآخر من البحر.

في تلك الفترة التي تلت رحيل ميرا ربّما إلى الطرف الآخر من البحر ومن بعدها بقليل تزامن رحيل الأهل إلى طرف أو أوقيانوسات أبعد بكثير من البحر الأزرق وأكثر انقطاعاً عن الذاكرة للإنسان الذي يغامر في هويته حتى فقدانها في الغربة القاتلة، التصقت مايا بجنان تمتص من عرق جسدها ما يعيد إليها رائحة الأمّ الغائبة، طفلة بلا ذاكرة سوى ذاكرة الشمّ، بلا لسان سوى الصراخ الليليّ حين تتكثّف الكوابيس على وسادتها، بلا شهية للحياة، سوى هذا التأمّل في البعيد كأنّ في لاوعيها المؤقت على ساعة الأمس، انتظاراً أو ربّما عودة ما.

بدا الزمن في بيت القناطر محنّطاً ترشح منه رائحة العفن. عشرات العناكب غزت زواياه تحوك عليها عزلة وصمتاً، يكسر الليل جموده حين يعلو صراخ أبحّ من جوف جذع الفتاة

المصدّع، مصحوباً بارتعاشات حمّى كالتي تصيب الفراشات في اقترابها من الضوء.

من غبار نجم سقطت شظايا منه على الأرض باستطاعة العلماء أن يستنبشوا أسراراً تتعلق بولادة الكون. من أسماك أو نباتات محجّرة أصبح بالإمكان الوصول إلى نفس الحياة ما قبل التاريخ. من مزق ورق بردي ما زالت آثار مخطوطة فيه، قد تظهر معالم حضارات انقرضت من آلاف السنين. من كسرة خزف أو فخّار أو زجاج... فكيف بكلمة، بجذر كلمة فيما لو شقّت من الذاكرة؟ فقد تحمل معها أصواتاً ومعاني وعودة إلى الوعي. هذه النماذج التي صارت تكرّ في ذهن جنان والتي استمدتها من تاريخ الحضارات وما رافقها من دروس مثيرة عما يحتويه الدماغ البشري من حدسٍ وذاكرة وأحلام، كانت الأمل الذي اتكأت عليه لمداواة مايا واسترجاعها من هذه الغيبوبة التي تنزع من الإنسان عصبه المحرّك كلّ ذرّة فيه، جسديّة وعقليّة.

طوت جنان رسائلها وخواطرها وأقفلت عليها في العلبة البيضاء لأجمل قضية طارئة تتطلب عجلة ووعياً وإدراكاً.

كمولود جديد مطلّ على الحياة، راحت جنان تطبق على مايا كما لو كانت حفرة قابلة للتنقيب، تحفر في ذاكرتها وتستخرج منها صوراً من حياتها ترددها أمامها، تحثّها على النطق بها، تريها زهرة، إبريقاً، كتاباً وتطلب منها أن تردّد أسماءها، وفي ذهن المعلّمة قلق كبير خشيت أن يرتدّ على عافيتها الهشّة وهي أمام سؤال وجودي معقّد.

«أيكون هذا التطوع العاطفي الملحاح لإعادة بهجة الحياة إلى

«طفلتي» وفكّ عقدة لسانها، طموحاً يعوّض عن فشل حياتي العاطفية؟».

من بين الرسائل التي كانت تكتبها وتبقى في العلبة مراسلة فردية من قلب موجوع، واحدة مكتوبة بحبر الغضب الأحمر، تجهر فيها بمّا ذاقته من ثمالة الحبّ وأقصاه بين ذراعي تييو، الخبير بعلم الآثار واستثارة اللذّة لدى المرأة:

«كنّا في دنيا الأموات، نحمي بجسدينا عظاماً مفتتة، نكتب لها بقبلاتنا قدراً، ونلحم كسرات الخزف جراراً لاحتواء خمرتنا. هل تذكر؟ وما زال طعم نبيذك في مسامي، وأنا أهبك من إنائي نبيذي الذي لم يكن حان نضجة فشربته فجّاً، عجراً زادتك مرارته تنقيبا في أرجائي، وأنا أندفن فيك كما هذه الأموات القديمة في النواويس التي لم يبق منها سوى آثارٍ غامضة».

دروس التاريخ كانت تعيد إلى الفتاة مشاهد الأمس. فما كان لهواً وتمثيلاً في رحاب الطبيعة، يصبح طقوساً تسرق الفتاتين من الواقع إلى عالم الخرافة فيما تتوارى جنان بخيالها لحظات عنهما لتدخل ظلمة «أوريديس» وتروي حلمها الظمآن بالانتظار.

اللوحة فعلاً جميلة، تبهر عينيها. السماء الحزينة في ذلك الصباح أشاحت الضباب بأصابعها للذكريات، لاستعادة شيء مما كان. تراءت لها التوأمان مشعّتين بالنور تتبادلان سنابل القمح، والشمس شاهدة على مراسم التتويج.

قالت في سرّها: «ليتني أجيد الرسم وخلط الألوان لكنت أوقفت ذلك الزمن في لوحة». من البعيد يأتيها صوت جنان كما تتذكّره، أفقياً، متماوجاً مع صوت الرياح، ينافس الملحمة الهوميرية بأسلوب يفوق المخيّلة الأسطورية وغرائبها. بأنوثتها الخائبة، المدفونة تحت

أحلامٍ مكسورة، جعلت من نساء الإغريق دمى بين أصابعها تكسوهن بما يملّق رغباتها، ترشّ في عيونهن الشهوات المدفونة تحت جلد المعلّمة.

الصيف في ذلك الزمن، تتذكّره كان مسرحاً لأدوار مشمسة، أثيرية، للطبيعة الناضجة بإطارها وضحكاتها. أما بعد أن نعت البومة قدر العائلة، اختلطت المواسم وصار البرد ينز من شقوق ساعات النهار والليل. قهوة الصباح أضحت أكثر مرارة، وتفلها القاتم إشارات مقلقة في قعر الفناجين. هكذا كان الليل بديلاً عن شمس النهار.

رحلت يمنى مع ربيع إلى عالم الاغتراب للنسيان. أمّا «ديميتير» إلهة الزرع فظلّت في وجدان جنان، الأمّ المفجوعة على ابنتها كوري تبحث عنها ولا عزاء.

هل المآخذ التي ألقيت على المعلّمة الهائمة في تاريخ اليونان وأساطيرها نجمت عن تردادها قصة «ديميتير» رمز الأرض وفاجعتها إثر فقدانها ابنتها كوري؟

الحكاية تكررت في بيت نسيمة. وجنان في أوراقها تعيد تركيب الأسطورة بما حدث في ذلك الصباح.

«إله السماء «زوس» وعد إله الجحيم «هاديس» بكوري زوجة له سرّاً عن أمّها. وفيما الفتاة في الحقول تجمع من الشقائق باقة، انفتحت الأرض وظهر «هاديس» على عربة تجرُّها خيول سوداء كالفحم، وخطف الفتاة إلى مسكنه المظلم متمّماً وعد زوس له.

لم تتحمل ديميتير هذا الفقدان. لبست ثوب الحداد ومضت والمشعل في يدها، تسعة أيام وتسع ليالٍ تبحث عن ابنتها. واستمر الليل لا ينقشع».

تذكّرت لمامات من القصيدة التي كانت المعلّمة تلقيها بنبرة الأمّ المفجوعة، على تلامذتها، لإبراز عمق هذه التراجيديا، فتتلقّاها «مايا» طعنات في قلبها ولا ترفض الانسياق في شذوذ خالتها، المصرّة على هذا الحداد ولا تريد له ممحاة، مصرّة على أشباحٍ يغتالون حياتها.

فيما الأوراق بين يديها، سمعت القصيدة تعلو من أحشائها حزينة، مالسة كالحنان:

«أتذكّر كوري الغائبة / وبين يديها قلب الأزهار السوداء / وقعت في حقل بين نور وظلال / خطيئة الزهرة المقطوفة /...

كيف عساي أتفاعل مع هذه الرسائل والخواطر المكتوبة بالحبر الحارق، وهذه الاعترافات المهموسة على وسادة الورقة؟ أبشعور من الحزن؟ أبهذا الغضب تجاه قدرٍ تاه عن الحقّ فحرق حياة كانت مضاءة للحبّ، للعشق، للافتتان بالجمال؟ أم أكوّم المشاعر المثقوبة بالحسرات وأرميها في الموقد مع حطبات الشتاء؟ وكأنّي أتصرف بغباء بهذه الوليمة الأدبية المحرّمة بإبرة طرّاز المرّصعة بيد صائغ، المروّية تارة بدموعها وتارة بتلك الدهشة الساطعة التي نقلت عدواها إلينا نحن التوأمين؟

حياة جنان كانت موضوعة في هذه العلبة البيضاء، بواقعها بخرافاتها، بولع الاكتشاف، بانتظاراتها، لا في حكايا عجائز القرية والألسن المطاطة الممدودة من نافذة إلى أخرى ومن عتبة بيت إلى فناء دار، ولا في حجج المدرسة التي تخلّت عن خدماتها للآثار

السيئة التي زرعتها في طالباتها فكادت تبعدهن عن إيمانهن الحقيقي لتحقن رؤوسهن الرخصة بمعتقدات وثنية باطلة.

الجهل والغباء غدرا بجنان وتركاها أشلاء امرأة، بعدما فقدت رسالتها التربويّة تلك التي عكّزت عليها لتتمكّن من الاستمرار في الطريق الضيّقة التي بقيت لها بعد أن رأت الأفق من البعيد يقفل أبواب البحر أمامها.

من هذه الكلمات تبدأ حكاية جنان، فالحكايات التي كانت ترويها لنا وتستثير بها حماستنا وحميتنا.

«الغربة التي استقبلتني في المدينة لم تكن أكثر خشونة على جسدي وأكثر قساوة على نفسي من القرية التي ولدت فيها. كان عليّ أن أتأقلم مع هذا الحلم الذي كان يراودني وهو أن أصقل كياني في المدينة وأن يتفتح برعمي الذي كان ما زال مغمضاً لا يرى الضوء الحقيقي ما دمت في هذه البلدة المزنّرة بالجبال العالية، المتوحشة بصخورها، الرهيبة بنهرها الذي لا يغفو ولا يستريح على مدار الأيام.

«يمنى هي من سهّل لي هذا الانتقال الصعب، من قبضة أمّي إلى رحاب الشوارع وزحمات السير وصراخ الباعة المتجولين. كنت في ضيافتها، رغم شعوري الدفين بأن دخولي إلى بيت شقيقتي مع متاعي وكتبي اعتبره ربيع زوجها كغزو لحميمياته واحتلال للمقاعد التي يحب الاستراحة فيها. كانت يمنى تردّد دوماً عالياً أنّي هنا بشكل مؤقت إلى حين تفرغ غرفة في بيت الطالبات، وكأنّها بذلك تطمئن هذا الزوج المكفهر دوماً، الصامت غالباً، إلى أن ما يعكّر صفاء عيشه لن يدوم.

«بعد أشهر من هذه الإقامة الجبرية في بيت ربيع تبيّن أنّ مزاج هذا الرجل كان يتعكّر خاصّة حين يعلم أن دفقه المنوي لم يفز بإخصاب رحم زوجته وذلك منذ سنوات ثلاث على زواجهما. كنت أسمع بكاء يمنى اليائس متقطّعاً من الحمام فأعلم أنّ الشهر دار دورته ولم يتم اللقاء بين البويضتين، وأتحسّر مع تحسّرات شقيقتي وأحاول مواساتها بشتّى الطرق حتّى صرت أنضح من إنائها، مؤقتة على دورتها الشهريّة، فأشعر في عمق أحشائي هذا الهلع الذي تعيشه يمنى كلّما اقترب اليوم المكحّل بعلامة الترقب في تقويمة حياة امرأة وكأنّي تضامناً مع المرأة المهانة في نواة أنوثتها صرت أسوة بها في انتظار ما سيحدث في رحمي. هذا التواصل الدموي، بين الأختين، وهذا القلق القابض على أحشائها سرّعا انطلاقي إلى حيث أسترجع فرديتي وأقطع حبل السرة مع يمنى تاركةً إياها في هذا العقم النفسيّ الصادر عن معاملة زوجها القمعيّة، وسطوته على المكان الأكثر قدسيّة لدى المرأة، رحمها، هذا المنزل الذي يحتاج أكثر ما يحتاج له إلى شمس الحريّة، إلى المفاجأة التي تجعل ذلك القران السعيد بين بويضتين ساحرتين، لا الانتظار المكسو بالخوف والهواجس المانعة كلّ نبأ سعيد.

«الغرفة في بيت الطالبات كانت مجهّزة لاحتواء طالبتين. هكذا دخلت نجوى الفتاة الجنوبية في حياتي اليوميّة، نتقاسم معاً هواء الغرفة وترتيبها، أثاثها المتواضع ولهجتين مختلفتين جنوبية وشمالية، بحرية وصخرية.

كان لنجوى الكثير ما أتعلمه منها. كانت مشبّعة بتاريخ أرضها وتراثها. أصغي إليها تروي لي مدينتها صور فأزداد شغفاً بالتاريخ. فإذا التاريخ الذي كنت أدرسه في الكتب كان موسوماً بعتق

الأزمنة، كان تاريخ نجوى حيّاً، يربط الماضي بالحاضر. لقد كانت هذه الفتاة التقيّة التي كانت تفرش أرض الغرفة بسجادة مرصودة للصلاة، وتتقوّس عليها حتى يلمس جبينها الأرض ابتهالاً للخالق، مجبولة في آن بالطقوس التي بقيت سارية المفعول عبر الأزمنة. كانت كصيّاد ترمي شباكها في بحر صور وتجمع من غلاّت أمواجه قصصاً بلون الأرجوان وشفافية الزجاج. في كتاب ذاكرتها كانت فينيقيا ما زالت تلك اللوحة المتمددة على أزمنة كان فيها قدر الملوك والشعوب ممزوجاً بقدر سكان الأساطير. مع نجوى وصلت أبعد من البرنامج الدراسي. فكري القلق المتعطش إلى اختراق معنى هذا التزاوج، كانت هي تعيشه إرثاً طبيعياً. لقد كانت قصّة أوروبا شقيقة قدموس وحبيبة زوس من بين الدروس التي حفظناها في الكتب المدرسيّة والجامعيّة، لكن من ابنة صور كان لها مذاقٌ آخر. فأشعر وكأنّ نجوى تكتسي بأرجوان أوروبا وهي تعيد إلى بالي قدر تلك الفينيقية التي رحلت ذات يوم على ظهر ثور أبيض إلى جزيرة كريت. كانت أسطورة «زوس» تراود خيال الفتاة الجنوبية فأراها تدير بأنظارها في اتجاه الأفق المسطّر بالتاريخ في انتظار أن يجبلها القدر بمصير أوروبا. كان ذلك حلم صبية تعيشه بسرّية عن تقاليدها وتؤجّج به خيالها دون أن يؤثّر ذلك على تربيتها الصارمة. كانت نجوى تتقوّس على شكل قنطرة لتصلّي، وكنت أنا أجثو على ركبتي لأتلو «أبانا الذي في السموات» فنلتقي لاشعورياً في هذا التسبيح إلى ربّ السماوات عند إيمانٍ واعدٍ تتغير ملامحه كلّما وقع الجدل حول موضوع الأديان، نناقشه بغباء سنّنا والحشوة البلهاء التي دكّت في رأسينا ولا نفهم أسباب الانشقاقات الدينية والعصبيات والثورات والمذابح عبر الأزمنة. ولكلّ دين دعوته للتآخي والمحبة والسلام. ذات يوم وفيما النقاش حامياً بيننا يكاد يكسر تلك المودّة بين ابنة الجنوب

وابنة الشمال، فتحت كتاب «المواكب» لجبران خليل جبران وقرأت على مسمعها هذه العبارة:

«أن أنتمي إلى دين فذلك يعني أنّي أحاول اختراق ما هو وراء الإدراك. فعل الإيمان نابع من عمق النفس. فالله يكمن في المكان الساطع فينا».

على خطى نجوى دخلت زمن صور القديم وشطآنها التي ما زالت أمواجها تحمل إلى رمالها أصدافاً نقرأ في خطوطها الوردية الماضي الذي سيظلّ ينبعث من فقش الموج وزبده.

لم أكن أعلم يومها وأنا مع البعثة الأركيولوجية أتدرّب على الاكتشافات الأثرية وتوضيبها أنّي هنا في حفر التنقيبات ستلتقي بيدي «تيبو» هذا الإغريقي الآتي إلى الحاضر لنحيا معاً أسطورة قديمة كان الحبّ فيها مباحاً ومقدساً. الحفرة التي اكتشفت فيها حبّي الكبير، كانت مدفناً له».

كان العمّال يرفعون الأنقاض عن الغرف المنكوبة حين بدت العلبة التي كانت جنان تسمّيها مقبرة الرسائل. مرّات لمحتها جالسة على حافة سريرها تقرأ رسائل قديمة وتعيد قراءتها مرات كأنّها تسلّمتها لتوّها. كنت أعلم رغم السرّية التي كانت تحوط بها علبتها أنّ ساعي البريد ضلّ من زمن عن طريق عنوانها وما بقي لها من علاقة حبّ قديمة، سوى اجترار رسائل مضى عليها الوقت أو هي كانت تتراسل بها وفي فكرها التوّاق إلى الخيال أنّها تحمي عواطفها من اليأس.

هذا الأنين الناضح من أوراقها، هذا البكاء، المجصص في بدن الكلمة كانا الوجه الآخر من جنان، المرأة المفعمة بالحياة، فأتسمّر عند كل عبارة لأسمعها كغارق يطلب النجدة دون صراخ ونحن صغيرتيها كما كانت تدعونا لم نكن على قدر الغوص أعمق مما

كانت تتظاهر به، وفي شعورنا المتفاعل مع أفراح الدنيا أنّ جنان كانت تغدق علينا من طبيعتها، وتزيّن لنا الوجود من محصول مكافآت القدر لها. ننهل من صباها أجنحة للطيران، من حكاياتها غذاء للحياة دون أن تدعنا ندري أنّ وحش الكآبة كان كلّ يوم يَغرُز أصابعه أعمق في الأماكن الخفيّة، ولا نرى حتى لا يرى أحد أن داخل هذه الأنثى المشعّة بالعافية، بالحيوية، بالطفولة الدائمة عاشقة غريقة ممسكة بخشبة نساء الميتولوجيا لتنجو.

في ذلك اليوم المفجع الذي هبّت فيه القرية برجالها ونسائها للبحث عن ميرا كانت جنان من بينهم تستدلّ على لغز اختفاء الفتاة في الدراما الإغريقية وتحاول إقناع الوالدين المفجوعين بأنّ ميرا مضت في النهر للحاق بـ«كوري» إلى الجهة الأخرى من البحر، الشيء الذي جعل ربيع والدي يستشيط غضباً متّهماً إيّاها بالجنون والإستخفاف بهذا المصاب الكبير، وكأنّها في تواصل مع الكوميديا التي كانت توزّع أدوارها على الفتاتين في رحاب الطبيعة حتّى أصبحت الملحمة الهوميرية مستوطنة في دمها، بنسائها وآلهتها.

ابتعادي سنوات عن البلد، وتيهي المجنون في سراب «إيغور» وموسيقاه الثوريّة قطع حبل السرة الذي لحمني بخالتي طوال سنوات المراهقة وأولى مراحل الشباب المتعثّرة بين الواقع اليومي والخيال الغالب أحياناً بأوهامه على الملموس. في فترة التخلّي التي صدعت كياني كنت مرتبطة برسن القدر يجرّني دون إرادة منّي، إنما في حمى جدّة أعادت ولادتي ثانية من صدرها الواسع وخالة ورثت من طبيعتها المنفصمة تلك الثنائية التي عادتني مرّات ومرّات. كانت «الأنا» الآخر الملازم وحدتي حتى لا أتوحدن. كنت مايا وميرا في جسدٍ واحدٍ نخترع معاً والدين اضطرا إلى

الهجرة لبناء منزل لنا آمن على ضفّة بحيرة ونحن في القرية نتواصل في حكايات جنان ونحلم حتى لا يغافلنا الليل، هذا الليل المسكون بالمنامات الموحشة.

يوم استيقظت جيداً على ما حدث في بيتنا كان والداي يهمّان بالرحيل وذريعة والدي أنّ حرباً لا محالة ستقع من جرّاء توافد الأسلحة إلى الوطن قد تجرّه إلى الهلاك. أذكر قبلة الوداع الباردة التي طبعها على جبيني وأنا مقطّعة الأوصال كالوطن الذي نعى موته قبل أوانه، والدموع سيول تصب ملحها في وعائي، مع كلمتين قالهما قبل أن يتقلص ظلّهما ويغدو نقطة تحت أقدامهما:

«ستكونين هنا في مأمن يا مايا مع جدّتك نسيمة. سوف نعيدك إلينا حالما نستقر في غربتنا».

من أسارير أمي العابسة، وعينيها المنطفىء شعاعهما حداداً وذراعيها القاحلتين العاجزتين عن احتوائي ولو مرّة أخيرة كفعل غفران لما اقترفته في بقائي بعد توأمي، الشحيحتين في إرواء عطشي إليها واستنساخ عطرها فيّ حتى لا أنسى، أدركت أنّي في حسابها ميتة، لا جدوى من حملي في متاع الرحيل.

خرجت إلى ضوء النهار أقرأ بوضوح الحكاية كما روتها جنان، وكأنّها تطلب منّي فيما لو وقعت هذه الأوراق بين يديّ أن أعفو عن أمّي فعلها. الخط المخرّم بدقّة كنت أرشفه كموسيقى التسبيح والغفران، أمّا من داخلي فكنت أسمع زئير اللبوة يُدوّي في أحشائي.

«لا أريدك بمفردك. أو أنتما الاثنتان كما ولدتكما بعد سنوات من

الانتظار والبكاء أو لا شيء». كانت جنان على حقّ حين كانت تروي لي بعد ساعات الدرس في المدرسة التي كانت تعلّم فيها مادة التاريخ، وكنتُ أصبحت واحدة من تلامذتها، أنّ بين البشر وأهل الأساطير علاقات وطيدة تعمل للخير والشر، للخلاص والهلاك. أقوالها كانت تبلبل فكري وفي آن أطمئن إلى ميرا فقد تكون في حمى الآلهة الطيبين. ويوم جلت على من بقِي من سكان في القرية أسألهم عن جنان وما حدث لها حتّى أُدخلت المصحّ العقلي، كان أبونا يوسف كاهن الرعية الشخص الأكثر فلسفة لحال جنان من حكايات العجائز.

«علاقة جنان بآلهة الإغريق كانت أكثر من علاقة إنسانة مثقّفة، شُغفت بالأدب اليوناني وتخصصت به. ابتعادها عن الكنيسة بعد عودتها إلى القرية وعن ممارستها طقوسنا الدينية ثم تعمُّدها إلى خلق بلبلة في فكر طالباتها والانسياق إلى عالم الخرافات والشعوذات كان نابعاً من معتقداتها الوثنية المناهضة للوحدانية والكفيلة بإقصاء الإنسان عن إنسانيته. لقد كان سلوكها هذا المستخف بقوانين المدرسة وعادات القرية سبباً في إعفائها من رسالتها التربويّة».

لعلّي ورثت عصب الكتابة منها. جنان لم تكن الأمّ البديل وحسب، الساهرة على تربيتي وثقافتي وأناقة ملبسي. من لقاحها أتلقّى القطرة تلو القطرة، ومن روح المغامرة التي لم تتجرّأ على إفلات العنان لها، تسلّمت المبادرة بتشجيع منها لأحقّق ما لم يسعها تحقيقه. زياراتها الأسبوعيّة لي في «بيت الطالبات» الذي كان منذ سنوات مسكنها كانت احتفالاً بالحياة. معاً نمضي إلى الشاطىء ونغرس أقدامنا في زبد الموج وهي في حال من النشوة، وفي كل زيارة تعدني برحلة إلى شواطىء صور ولم تفعل، بل كان فكرها في تلك اللحظات يتخلّى عنّي فترحل بمفردها إلى أماكن أدركت في ما بعد أنّها في ترابها تركت أحلامها وبين كسرات الخزف حطام قلب لم يرحل.

من زيارة إلى أخرى صرت على بيّنة من الشجن القابع بين طيّات

أسرارها، تراوغ عليه، تقنعه بما لديها من إرادة حتى لا أسأل.

كانت هكذا جنان منكشفة على الدنيا ومدفونة تحت طبقاتها في آن. أسطورية من جبلة الملهمات وواقعية من تربة قريتها وقشّ البيادر. ذات مرة وإزاء إلحاحها لكي أُخرج كماني من علبته وأعزف ما كان أغنيتنا أنا وميرا أدركت أنها بحاجة إلى البكاء. هذا البكاء المطمور منذ سنوات في أعماق تربتنا حتى لا يعلو زرعاً أسود على سطحها. سألتها ما لم يكن بوسعي البوح به من قبل:

«خالتي جنان لِمَ كل هذه الكآبة في عينيك؟».

أجابتني كمفكّر يتأمّل مديداً في الحياة قبل أن يتفوّه بكلماته:

«إنها داء مقدّس. هي المرارة التي لا بد منها لكي نرى الكون أصفى. هي المرارة التي تُفرزها الكبد فتتحوّل الى حبر أسود. منها يستوحي الكاتب والشاعر ومنها يعلو نغم حزين من ناي سحري. قالوا إنّها مرض، خطيئة أو شهوة، أما ما باستطاعتي قوله فهو أنّها منسوجة فيّ، تلقّمني كلماتي. هوميروس كان أول من صوّر الوجه الأسطوري للكآبة، الناجم عنها بؤس الإنسان وتعاسته. ويوم أمسكت بالريشة أغمسها في حبري الحزين لأكتب تراءت لي الكآبة شموساً سوداء ما زال وهجها الحارق إلهاماً للشعراء. هاتي الكمان يا مايا واعزفي، فأنا بحاجة إلى ذلك الاحتكاك بين القوس والوتر فيمتلىء قلبي بالشجن اللذيذ الذي يذرفه هذا الاحتكاك، حنيناً ورثاءً وبكاء.

لم أكن يومها على اطّلاع بقصتها مع عالم الآثار «تيبو» كما لم تكن لتشق لي فسحة منها تسمح لي بها اختراق ما وراء تنهداتها.

كانت هي المسؤولة عن حذافير حياتي. تريدني أن أتخطّى قواعد التربية الصارمة وأقتحم المجهول. في هذه النزهات المشرَّعة على الهواء، كلّمتها عن إيغور. «اذهبي يا مايا واكتشفي الدنيا ولا تخافي. هنالك دوماً ممحاة تزيل الأخطاء التي نرتكبها».

تلميحاتها هذه لم تكن آتية من كتاب القواعد الحياتية، كنت أشعر بأنّها منبعثة من إنسانة اضطرت إلى التراجع بعد أن كسرتها المغامرة ولم تواجهها. وها هي تعوّض عن الندم بتلقيني حكاية الطير الذي تخلّى عن عشّه والشجرة التي كانت فارشة أغصانها له ومضى يعبر السماء على جناح ريح هوجاء طلباً للحريّة التي لا حدود لها.

لم أنس ذلك اليوم والشمس ربيعاً تلفح شعاعها في عيني جنان فيتوهج السواد الحالك من بين أهدابها مرصعاً بنقاط كالألماس. كنا جالستين على صخرة وأرجلنا متروكتان لمزاج الموج في ذهابه وإيابه. قالت ونظرها يلاحق الشمس النازلة في اتّجاه الأفق: «هذه هي الحياة تختصرها الشمس بشروق واعتلاء ثم مغيب. أريدك أن ترتفعي بموسيقاك ليظلّ ارتقاؤك مديداً عالياً لا يهوى. فهل ما يعرضه عليك أستاذك إيغور كفيل بأن تصبحي كما قال أهمّ عازفة كمان في هذا الشرق؟».

كنت آنذاك في مرحلة تفكيك أسرار الآلة معه، لا كلعبة للتسلية واللهو، بل كما قال لي «هو الشغف بالآلة الذي يولّد الموسيقى. هذا الكمان الصغير بحجمه، كبير في احتوائه طقوس التعبير على أنواعها، والتنقيب، حين يستولي العازف على أسراره، عن الروح الشاردة في خشبه».

كلامه كان له التأثير البالغ فيّ. مع الأيام طغى سحر المعلم على تلميذته، ودروس الموسيقى على مادّة الآداب وأدبائها.

ما أحاول هنا تبريره بالكلمات لا يفي المشاعر الحارقة التي وحدها الموسيقى قادرة على التعبير بها، رغم ذلك سأحاول العثور على الكلمات الواضحة كي أعطي لقصّتي مع إيغور مانياتوفسكي بُعدها السرديّ الحقيقيّ. فكما كانت المرحلة الأولى من حياتي ولادة من رحم يمنى وموتاً على يدها، كذلك بدأت ولادتي الثانية مع معلمي، أنهل من بئر إلمامه في الموسيقى ما يروي عطشي وعلى يده أختبر أمرّ العذابات التي لا تشفى.

لم أكن بحاجة في ذلك العمر لأن أكون هائمة في تشايكوفسكي وبروكوثيف وموزار وبيتهوفن لأتنشّق الجو الذي أحاطني به هذا الرجل الوسيم الحامل سنواته الستين بأرستقراطية وأناقة. كما لم أجد في حنوّه عليّ أباً أستعيض به عن أبي البيولوجي. ففي اقترابه منّي كلما لمس يدي ليلينّ المعصم على القوس كنت أشعر بقشعريرة وحاجة كبرى إلى البكاء. لا شك أن الانفعالات التي تزحف في الشرايين وتبلبل مسار الدم فيها قد لا تجد أوصافاً لها في الكتابة. كنت أفتح صفحة جديدة لمنعطف مأساوي آخر من حياتي دون أن أدرك عواقبه. إيغور بلكنته الروسية التي كان يلمّها سمعي كحصى خشنة تقرع على اللغة الفرنسية، كان بعد الدرس وبعد أن أكون أدّيت ما كلّفني به من تمارين أختمها دوماً بمعزوفة يختارها لي بما فيها من مهارات معقّدة، كاختبارٍ لقدراتي التقنية، يطلب مني البقاء معه لنتحاكى كما كان يقول. كان لكلّ واحد منّا حكاية. أما حكايته هو فكانت لها خلفيات سياسية ما زالت خيوطها في روسيا ولو بعد عشرين عاماً من إقامته في بيروت،

سارية المفعول تطالب به ليسدّد عقوبات من الزمن الستاليني.

كنت أرى في عينيه الزرقاوين ضباباً يطفىء شعلتهما برهة فيبدو لي ككفيف يستدلّ بعصاه على الدرب الصحيحة دون أن يتعثّر في متاهاتها.

من هذه اللقاءات الفردية مع أستاذ الموسيقى التي كنت أرويها لجنان وكلّي عجب في أن يكون اهتمام هذا الرجل بي لا لتلقيني تقنيات الكمان وروح الوتر وحسب بل لكونه اختارني من بين طلابه في معهد الموسيقى وعاء أميناً يصب فيه مأساة موسيقي راهن على الموسيقى سبيلا للانعتاق من سلاسل القمع وعلى المسرح الغنائي صرخة مدوية للحريّة.

بدت لي هائمة في أفكارها بعد خروجنا من مكتب إيغور. هذه الزيارة التي لم تدم أكثر من نصف ساعة ارتسمت ملحمة هوميرية في خيال جنان. كان الصمت يلفّنا إلى أن سمعتها تقول:

«أرى بين المعلّم والتلميذة سحراً سيىء الطالع من الصعب مقاومته. ستكونين يا مايا ضحية علاقة أكولة غامضة سوف لن تنجو فتاتي من لهبها الحارق...

توقفت فجأة كقرص من الجليد والتفتّ إليها. كانت منخطفة في عالم غريب عن هذا الشارع الشعبيّ الذي كنّا نسير فيه وكأنّها تتلقى مرسالاً عليها تبليغه قبل فوات الأوان. هززتها من كتفها وقشعريرات حمى تعاودني، تتذكرني من ذلك الزمن الرهيب، وقلت وأنا أحاول إخفاء خوفي:

«ما بك يا جنان ورثت فنّ التبصير من بشيرة الكردية. فهل كانت نوايا أستاذي مكشوفة إلى هذا الحد، حتى استطعت قراءة طالعه السيىء في بضع دقائق؟».

شعرت خالتي باضطرابي، فاقتربت منّي حتى التصق جسدانا بحنان ورعاية وأكملنا سيرنا ونحن نسمع دقات خطواتنا على الرصيف كقرع طبول تنذر بدخان أسود. وأنا أسمعها أقوى وأكثر صخباً تعقيباً على كلماتها الأخيرة:

«لن أتمكّن يا مايا من ردعك فقدرك مرسوم في السماء، سوف لن تنجي منه».

لقد كان قدري في تلك اللحظات متشابكاً بقدرها، دون أن أعي أنّ في زمن ما قبل ولادتنا أنا وميرا ثمّة فتاة في سنّي بارعة بجمالها هائمة في أحلامها، كانت تشيّد على هذه الأرض الضيّقة التي نشأت فيها سلّماً تبلغ به مملكة نساء الميتولوجيات. فإذا بالخرافة تغدو واقعاً، والصدفة تكبر لتغدو رصداً.

ثم وكأنّها تتكلم مع ذاتها، راحت تردّد كسرات من أبيات شعر وتحاول تصحيح المنسيّ منها في مخارج الكلمات:

«في كفيك أشرب ماء

بين ذراعيك أحترق جمرا

لهبه عشق، ورماده موت..

القصيدة بدت من أنفاسها متعبة، محطّمة تتوقّف قبل أن تنتهي.

الآن وأوراقها رست بفعل القدر بين يدي بت أعلم ما كان من تشابكات في قعر ذاكرتها ورؤى تتكلم عنها قبل حدوثها. كنت فعلاً تحت تأثير هذا الشيء الغامض الراشح منها بكتمان وسرّية وظلّ غريباً عن محيطها.

«سوف لن أتمكّن يا مايا من ردعك، فقدرك مرسوم في السماء ولن تنجي منه..».

هذه الكلمات التي عزوتها يومها إلى تنبؤات سخيفة من وحي أصداف بشيرة الكردية، أعود اليوم وأقرأها في اعترافاتها. جنان لم تتمكن من ردع نفسها عن اقتراف ذنوب الحبّ كما وصفته:

«كان بحّاراً خرافياً آتياً من الإغريق وكنت فتاة عطشى إلى المعرفة، إلى السفر إلى الحبّ. هو التاريخ المعشش في التربة كتب قصتنا. والتاريخ يبرر رغباتنا الدفينة، يخرجها إلى الضوء. احتكاك الأصابع كحجر الصوان، أطلق شرارات كان لا بدّ منها لكي أستسلم إلى عنف الرغبة دون أن أحسب للفراق حساباً. فالمركب كان في انتظاره كما قال، مودّعاً: سأكون في هذا البحر كالهولندي التائه أرسو على شواطىء ما زالت رمالها تلفظ أسرار حضارات قديمة، ثم تحملني الأمواج إلى حضن البحر، حتى تنقشع لي أرض أخرى.

بقيت صامتة. دموعي الكارجة على وجهي كانت سؤالي له: وأنا؟ وأصابعي التي ما زالت متشابكة بأصابعك؟ وعناقك القابض على جسدي، ينضح في أساطير أرضك؟ أتكون تلك الاكتشافات الأثريّة النادرة، التي ترتعش بين أيدينا تحت أشعة الشمس، هل هي أبهى وأروع من اكتشاف الروح النابضة فينا»؟

هذا اليوم المرصوص على ورقة، هذا التعرّي من الهوية الأمّ واستبدالها بما يزعزع الإيقاع الإنساني، طلباً لما هو أوسع من العالم، هذه الأوراق التي ما تجرأت على قراءتها بلهفة الفضول، بل بما يشبه السجود أمام هذا القلم المبلل بريق الملهمات، كانت تسير أمامي في طريقي إلى المصحّ وأنا أتلقّى على رأسي إشارات من نيازك هاربة تكلّمني عن جنان الشاعرة الآتية من الهناك من زمن بعيد.

كيف سيكون لقاؤها بي؟ هل ستتذكّرني؟ هل ستعاتبني على تخليّ عنها؟ أم هي خرجت من فضاء الوقت، شاردة في عالم لم تعد ثمة ذاكرة تنير سراديبه.

وقفت على عتبة غرفتها أنتظر منها إشارة، انفعالاً وجسدي يرتعش كالأوراق الصفراء الأخيرة التي لم يسقطها هبوب الريح بعد. بعد

لحظات من التحديق بي وأنا لا آتي حراكاً اتجهت نحوي بذلك الهدوء المصطنع الذي تتصرّف بمعياره العقاقير المسكّنة وقالت: «ها قد عدت يا ميرا». أخذتها بين ذراعي ورحت أقبّلها وهي مستسلمة لهذا الشوق ولا تبادلني إيّاه. بعد هنيهة أبعدتها عنّي وتأمّلتها لألمح ما هو أصعب من فقدان الذاكرة، فقدان بريق العينين. سألتها:

«خالتي جنان لماذا أنت هنا؟».

بلسان متلعثم كسكّير تعتعته الخمرة أجابت:

«أنا بانتظار أورفيوس. أسمع سيتارته من بعيد تزف لي اقتراب موعد لقائنا. هل رأيته يا ميرا أنت الآتية من الهناك؟».

كان الطبيب الذي طلبت منه بعض الإرشادات قبل أن أغوص في هذه التجربة، أوصاني بألّا أناقضها بل أن أمشي في هذيانها حتى لا أبلبل عالمها الهشّ.

قلت: «وما الفائدة من ذلك؟ وكيف بالإمكان إعادتها إلى رشدها إذا دخلت عالمها وأصبحت شريكة في هذيانها؟».

قال: «عالم جنان غامض وكل ما يتعلّق بها منذ ولادتها حتى الآن هو من وحي الأساطير. هي بنت عالماً افتراضياً وظّفت فيه خيالها ورفضها للواقع».

وددت تصحيح بعض من هذه النظرية، بذكر الجانب الطبيعي من حياتها أكان في تربيتها لي بعد فراقي عن أهلي، أو في الأوراق التي تركتها في غرفتها الشاهدة على امرأة أحبّت وخرجت عن

تقاليد قريتها لتعيش نار الحبّ بجرأة، حتى الاكتواء به.

تأمّل ملياً بما حاولت به تبرير التهم الملصقة بجهاز جنان العصبي ثم قال:

«لقد تكلّمت عن سرّية هذه الأوراق التي لم تكن جنان لتبوح بها إلى أحد. تشخيص حالة مريضتنا توافقنا عليه في هذا المصحّ على أنّ جنان مبعثرة كقطع البازل وقد بات من الصعب جمعها. لقد أتت إلى المصحّ في حال من الهذيان الجنونيّ، تائهة، تبحث عن أمّها. فما رواه لنا الكاهن هو أنّها تلقّت الصواريخ التي هبطت على القرية ودمّرت بعض منازلها كلعنةٍ من الألهة. صراخها غطّى الكارثة التي مُني بها الأهلون. بذراعيها كانت تحاول شقل الحجارة لإنقاذ أمّها. ولم ينسَ الكاهن أن يضيف إلى سجلّها أنها تلقّت صدمة كبيرة يوم أُقيلَت من وظيفتها في تعليم مادّة التاريخ. ولا بدّ أنّك على بيّنة من كل ذلك، لذا باستطاعتك أن تشاركي في علاج خالتك فيما لو زوّدتنا بأوراقها فقد نلمس فيها ضوءاً جديداً على وضعها».

خرجت من العيادة وقلبي ينتفض كعصفور عالق بين رجمة أشواك. سألت نفسي إذا كان بإمكاني المشاركة في معالجة جنان أنا المصابة باللعنة التي أصيبت بها فكلتانا فتحنا قبرينا لندفن فيهما مغامراتنا الفاشلة. ارتسم وجه إيغور أستاذي في بالي. هذا الرجل الذي أعطاني تأشيرتي دخول إلى روسيا، واحدة لأتمكّن من موسيقاي وأتعلّم لغة تولستوي وبوشكين، وأخرى لأعود منها بجروح لا تندمل، لم يتخف أمام جنان الساحرة. ففي ذلك اليوم كشف من دون أن يدري أوراقه، فقرأت طالعه وحذّرتني منه ونحن في تيهنا على أرصفة المدينة. لكنّي وشرايين «ميرا» تنضح

فـيّ، لحقت تلك الإشارات السيئة التي أودت بي كما أودت بها إلى الهلاك على مسافة سنوات من عمرينا. ماذا كان يقصد إيغور بقوله حين أبدت جنان خوفها فجأة من أن يكون لابتعادي عن البلد تأثيرات سلبية على حياتي، هي التي طالما شجّعتني على المغامرة والخروج من القيود العائلية:

«الحياة؟ ما هي الحياة سوى حفنة ماء يدعها الصغار تسيل لاشعوريا بين أصابعهم. في تاريخ الزمن الحياة هي لا شيء سوى سكرة. وحده الموت حقيقة».

ها هي جنان اليوم في مختبر التحاليل النفسيّة والعلاجات الكيميائية، التي من المستحيل أن يعود منها المصاب صافي العقل، متوهّج الفكر. قلت في سرّي وأنا أهمّ بالدخول إلى غرفتها:

«كلتانا نعيش هوية ضائعة، في وضعين مختلفين. هي سجينة هلوساتها وهذيانها وأنا حرّة أدوزن بين شخصيتين المشمسة والظليلة، واحدة تنكش بمعول حياتها أرضها لتستخرج منها ماء صالحة تروي بها موسيقاها وكتاباتها وأخرى تمشي بثقل في وحول ماضيها فيتعثر الفكر في مضيقاته، محتاجاً إلى يد تنشله من كوابيسه ويطول الليل سادّاً منافذ الضوء على آت سليم.

الكتابة... ردّدت هذه الكلمة مرّات كمن يقول «افتح يا سمسم» فتفتح المغارة المقفلة على كنوز الدنيا. أجل! الكتابة التي أطلّت عليّ كالبشارة من كوّة زنزانتي تطلب لي عفواً عمّا زججت به ظلماً، فيما جنان تخلّت عن أوراقها، لتتحرّر من ثقل حياتها. لقد وجدت في الجنون باباً للخلاص.

كان قراري حاسماً. لن أخون بوح جنان في رسائلها ولن أفض سيل أوجاعها على طاولة العلم والاختبار. جنان حكاية فتاة من أرض فينيقيا، ربّتها الطبيعة وأغدقت عليها شاعرية وخيالاً وحلماً كبيراً تجسّد بـ«تييو» عالم الآثار الآتي من أرض هوميروس. حضارتان التقتا في معالم أثرية واحدة وجذور تاريخية صنعتها الأسطورة وصبغتها بأرجوانها.

أكثر ما كنت أخشاه من ألاعيب الحرب، من خطف وقتل وترويع، الإعاقات الجسديّة والنفسيّة تلك التي تلبسنا على حين غرة لتغدو مع الأيام أليفة إعوجاجنا ورفيقة عوراتنا، فالإعاقات المشرّشة فينا منذ الصغر، تتكتل فوقها وتتحالف معها.

صرت حذرة، أراقب انفعالاتي وتصرّفاتي، ألاحظ أحياناً كثيرة أنّي أكلّم نفسي عالياً. مصحوباً حواري العقيم بإيماءات من يدي لا أتنبّه إلى حجمها إلاّ ونظرات المارّة متفرّسة فيّ، لا تعفيني من فضولها.

هذا الخروج التائه من حدود ميزان العقل، هذه الأفكار التي تفلت من خلاياها حرّة من أي حساب وتترك الوعاء العابر على الدروب عرضة للتأويلات الساخرة كانت الدافع لكي أقرع باب عيادة المحلل النفسي، علّه يساعدني على عثور الضائع منّي، أو أكثر من ذلك، أن يتبعني في سفري المرصود للعذاب، مهما كلّفني البوح

من تعرّ أمامه وإفشاء أمور كنت أخجل من أن أضيء الذاكرة عليها.

زياد مرجي... اسمه ومض في فكري. هذا الاختصاصي في أوجاع النفس والمدافع بشراسة عن أخلاقية التحليل النفسي، كان هو من تصدّى للقانون الذي سنّته وزارة الصحة والفارض أطراً وسنناً لهذا الطب وممارسيه. صرخته كانت فاعلة يومها: «الحرية للتحليل النفسي لا لقمعه». إنسان لامع ثبّت نفسه من هذا الجيل الجديد الحارس تقاليد المحللين القدامى، برؤى طموحاته المراهنة على مدرسة متعددة الاختصاصات توسع آفاق المحلل وتمنح أفضل النتائج للمصاب. هكذا جذب الصّحافيين إلى ندوته التي كان ينظّمها بشكل دوري تحت عناوين مختلفة ومحاضرين من مدارس التحليل النفسي في العالم وموسيقيين لديهم ما يقدّمونه في شأن معالجة الأمراض النفسية بالموسيقى. وأكثر ما راهن عليه، محترفات للرسم خاصة بالأولاد المصابين منذ الصغر بالانطوائية، وكنت بحجة الكتابة عنها، من المدمنين على هذه الأجواء التي كنت أرشف منها خلاصاً لأوجاعي، وسوداويتي. لقاءاتي العديدة به في مجال نشاطاته صارت أكثر إلفة ومودّة بيننا حين أجده على صفّ واحد معي في الأمسيات الموسيقية، أو أصادفه في معرض لوحات فنيّة يدوّن انطباعاته على دفتر صغير. في تلك اللقاءات كنت أخاله رفيقاً مسكوناً بالهواجس الجمالية التي كنت مصابة بها، وأحاول معالجتها في مقالاتي. وكان غالباً ما يدعوني إلى مقهى لنتبادل حول فنجان من القهوة أفكارنا عن هذا العازف أو تلك الرسّامة فأشعر بالاعتزاز بأن أكون برفقته وأن أكون خاصّة جزءاً من حديثه. زياد مرجي كان بارعاً في الإصغاء، يعيدني كلمة قلتها مرّات حتى يثقب معناها، ثم وأنا المصغية بشغف، يكلّمني عن

أسلوبي المنمّق في الكتابة، ومعالجتي أي موضوع مهما كان علمياً جافّاً، بإنسانية وشاعرية: «إنك قصصية قبل أن تكوني صحافية. تتنقلين بين الحياة والموت بقلم رؤيوي يلمس اللاملموس وكأنك من عالم آخر. فمتى سأقرأك في كتاب؟».

هل هذا كلّه ما شجّعني لكي أقرع باب عيادة زياد مرجي أم أنّني كنت بحاجة إلى اختصاصي يمدّ لي يده، فينقشع ذلك الأمس البعيد، وأعود لألتقي بعمري الثاني الأكثر قبحاً من الأول بلا خفر، بلا خجل، علّي أستقر في موضعي الحقيقيّ بلا هرب من قدرٍ مسعور بنار الذنوب الأكولة.

في فترة ما من هذا الواقع المضطرب بين حاضرٍ وماضٍ، بين حربي وحرب الآخرين على أرضي، ضائعة بين فتاة ذاك الزمن والمرأة التي هي اليوم، المسلوبة من كل شيء سوى من قلمها، لجأت إلى علماء النفس أحاول فهم تجاربهم من فرويد إلى جوليا كريستيفا علّي أجد في تحاليلهم ما يطمئن النفس الشاردة خارج وعائها.

في الحقيقة، أكثر ما كنت أصبو إليه هو الابتعاد عن العالم الصاخب والانفراد مع ذاتي حتّى يتسنى لي الاستماع إلى صراخي الجّواني بمنأى عن التشويش المستفحل في وطن فقد توازنه وكيانه وصبغ بشحتاره الأسود، وجوهنا. لقد كنت مدركة وأنا ألملم خيبات وجودي في كتاباتي ولا أرتوي، بأنّ الأحداث هي التي تصوغ الأقدار وتقولبها بمعايير من موروثات كلّ كائن.

داء الثعلبة الذي فتك بفسحة من رأسي وتركها عارية كصحراء قاحلة، تزامن مع تخلّي والدتي عنّي. هجرة الوالدين قابلتها هجرة مستعمرة بكاملها من خصلات شعري جابهتها جدّتي فوراً بمرهم

أسود ركّبه طبيب أعشاب في طرابلس وعلّمها كيفية استعماله. بخرقة صوفية كانت تحف المكان الأصلع حتى يبدأ الدم ينز من المسام ثم تمرح الدواء وتكبسه بإبهامها حتى يتشرّبه الجلد المتهيّج. هذا العناء من جدّتي نسيمة لم يخلع عن الثعلبة حداد التخلّي وظلّت رفيقة عمري تتهيّج وتتفاقم في أشدّ مراحل حياتي ثم تتقوقع بين خصلات شعري الطويل المموّه الفراغ كلما أشرقت شمس خجول من وراء الليل.

في بيت جدّتي الذي منحني سقفاً ولطوة وذكريات، ضممت صوتي إلى أوراق جنان الساحرة. صرنا اثنتين نقاتل الماضي أو نخفف من قساوته. في أوراقها الملتهبة، المنطفئة، الجارحة، المستسلمة أصغيت إلى صوتي الخارج من أعماقي يسألني بهمسات لا أكاد أسمعها:

«من الغائبة منكما أنتما التوأمان؟ من هي المنسيّة هناك عند النبع أنت أم ميرا؟».

أحياناً كثيرة كنت أفكّر بأنّي ربما أنا الميّتة وليست هي فيبدو لي العالم بكامل روعته وكأنّي بذلك أتحرّر من الانتظار ولا أصارع النسيان. بيد أن القلم المغموس في حبر المخيّلة كان يضعني في مأزق من واقع جليّ، إذ كان لديّ انطباع وأنا أكتب بأنّي تخطّيت نزاعي مع الحياة والموت وخرجت من عتمة الليل إلى شعور من الارتقاء الأثيري فوق حثالات الدنيا. لكن سرعان ما كانت هوّة الوقت تلتقطني وترميني في وادي الحقيقة السحيق.

هل كان مكاني على هذه الكنبة هو الحلّ الأوفى لمواجهة الحقيقة؟ أية حقيقة؟ ومراحل عمري قامت منذ الطفولة على أكاذيب

وحقائق، على واقع وخيال، على حبّ وكراهية، على عائلة مزيّفة وأخرى فرضية، على لقاءات نحسبها دهرية. وإذا بالفراق على منعطفات المفاجآت تلك التي تترك في النفس كدمات سوداء تتجذر فيها منعاً للشفاء.

قلت في سرّي: «من أين أبدأ؟ أمِن الكان يا ما كان فتتحول العيادة إلى فراش وثير، تستلقي عليه شهرزاد حكواتية كلّها إغراء تروي لشهريار شهواني قصصاً ترجيء الموت إلى أجل آخر؟ أم أنتظر أن يمدّني بسؤال يكون موضوعاً لإنشاء من المواضيع التي كنّا أنا وميرا نعالجها من غلاّت الصيف وحكايات جنان؟».

راحت الأفكار تؤرجحني وأنا أحزم متاعي استعداداً للسفر. كنت كلّما ارتفعت نسبة الملابس الصوفية من الحقيبة وتكدست فيها ما تحتاج له حياة بكاملها، أخشى أن يكون لهذا السفر معنى الاغتراب الذي ما بعده عودة، كما حدث مرّات في هذا البيت الذي شهد صقيع الغربة التي تبتر الإنسان من جذوره وتجرّده من هويته.

أتكون اللعنة التي حملتها البومة إلى سطح بيتنا، هي ذاتها اللابسة ثوب السفر تأخذ بمن فيه الواحد تلو الآخر على دروب الغياب.

لمّا مضى عشرون على رحيل جدّي إلى المكسيك تاركا زوجةً صبية وابنتين صغيرتين، أطفأت جدّتي نسيمة الفتيل المغموس في الزيت الذي كانت تجدّد شعلته كل يوم أمام شفيعه مار أنطونيوس الكبير، نذراً لعودته. كانت وصيّته كزنبرك الوقت توسوس في ضميرها: «إيّاك يا نسيمة والرزق». ولم تخلف الوعد. بساعديها

واجهت عواصف الشتاء، وجفاف الأرض حين كانت السماء تبخل على البساتين والكروم بالمطر. ومن الغلاّت ربّت يمنى وجنان، وعلّمتهما في مدارس الراهبات. وعندما أقبلت يمنى على الزواج من ربيع، رصدت محصول العنب كلّه لجهازها وفستان عرسها.

في ذلك اليوم الذي أطفأت فيه الشعلة ومعه النذر تطلعت في صورة القديس المتنسّك في الصحراء وقالت له: «أنت الشاهد، لا مكان لطانيوس في هذا البيت بعد اليوم».

كم من الشموع انطفأت والجدّة تدخر في قلبها وجع الرحيل، من ميرا إلى يمنى وربيع وها أنا اليوم تستثيرني فكرة الاكتشاف ونظرات نسيمة تنتقل بأسى من الحقيبة إليّ، صامتة تتقبل صدمات الفراق بوقار، ومتنزّهة عن الانفعالات الكبرى. هكذا التمّت على حالها يوم اختفت ميرا، حلزونة مسحوقة لا تطلب إسعافاً. ثم تنتفض أبيّة، من فئة الأشجار الأليفة المتجذرة في أرضها، الواقفة بعظمتها تظلّل على نوافذ قلوبنا المشلّعة. لقد أعادت ولادتي حقّاً من رحمها المتغضّنة. أخذتها بين ذراعي والدموع تطفر جارحة من عيني: «أنا عائدة يا جدّتي. لا يطول سفري. هذا بيتنا. أعيدي إلى الفتيل شعلته وصلّي لكي أعود مع كماني مكلّلة بالنجاح». تأمّلت في العصفور الذي كان منذ هنيهات يتنقل على أغصان شجرة الإجاص وقالت: «العصافير تعود إلى عشّها مهما ابتعدت وتغرّبت. ذاكرتها أقوى من ذاكرة الإنسان وحنينها إلى الشجرة التي أوتها تحت أوراقها عضويّ، لا شعراً يأتي إلينا من بلاد الاغتراب ولا رسائل من وراء البحار. كوني يا مايا مثل هذا العصفور وارجعي، فقلبي لن يستريح، إلا أن أراك مطلّة من القنطرة مبتهجة، فتبتهج

لعودتك طرابين الحبق والفلّ والمنتور». ثم أومأت إلى قبعة القشّ المزنّرة بشريطٍ أزرق وقالت: «لهذه القبّعة ذاكرة فراق ولوعة. عودتك عزاء لها».

«مهما عاكستك الرياح ومهما قسا عليك الزمن، إيّاك ان تطفئي كمانك. فمن يطفىء كماناً فقد فردوساً».

أقوال معلّمي كنت أعبّها دروس حياة أروي بها عطشي كما قواعد الموسيقى التي كان يلقّنني إيّاها بروحه المتقشّفة عن ملذّات الدنيا سوى عن موسيقاها، فأستشف فيه نموذجاً عن الإنسان الروسي الذي يطلب العلم والمعرفة حتى في فقره، حتى وسوط العبودية فوق عنقه.

«الموسيقى كانت خبزنا اليوميّ حين لم يكن في البيت رغيف نتزود به أنا وأخوتي. والدتي هي التي بالرغم من الضيقة الاقتصادية التي كنّا نعيشها، أثرت فينا روح الموسيقى. كانت ابنة رقيق معتّق زمن القياصرة، خرج من العبودية وأصبح محرّراً في الصحف. أسوة بشقيقاتها تلقّت أمّي العلم في المدرسة وشغفت بالدروس الموسيقية

التي كانت تعطى ساعة في الأسبوع. يوم تزوّجت حملت في جهازها إلى البيت الزوجيّ البيانو. كنت صغيراً وصورتها في ذاكرتي أسمعها تعزف ألحاناً أدركت في ما بعد أنها لشوبان وبيتهوفن وموزار. حياة الريف كانت ضجراً بالنسبة لابنة المدينة. بعيداً عن سان بترسبورغ صارت تملأ الفراغ بمدّها يد العون إلى نساء القرية في ولاداتهن وأمراضهن. وفي البيت حين ينتهي النهار ومعه مسؤولياتها تجاهنا، كانت تفتح غطاء البيانو وتجلس أمام ملامسه متأمّلة فيه، ثم تبدأ أصابعها تكرج هادئة، والأنغام تتراقص حولها وتؤنس كآبتها. في هذه الأجواء كنت الأكثر انجذاباً إلى الموسيقى من إخوتي، أطلب من أمّي أن تسيّر يدي على الخط الصحيح. هكذا بدأت ترهف أذني وتغني أحاسيسي البكر وأنا ألتهم ما تعلّمني إيّاه بشغف. لم أكن يومها أعرف من الموسيقى سوى ما تفعله من تأثيرات في النفس. فيا ليتني في ذلك العمر تكهّنت أنّ الموسيقى بإمكانها أن تكون مطباً توقع صاحبها في الهلاك.

«الثورة البولشيفية التي نادت إليها العمال والفلاّحين والجياع كانت منعطفاً كبيراً في تاريخ روسيا. انتفض الشعب ولبّى النداء. والدي كان من بين الذين مشوا في المظاهرات واجتاحوا ساحة المدينة، وقبل أن يرتفع العلم الأحمر على قصر الشتاء كان والدي في عداد الأموات. ساخر هو القدر. لقد آمن والدي بالثورة البولشيفية خلاصاً للشعب ومات لأجلها وإذا بي ومن بعده بسنوات أصنع موسيقى مناهضة للنظام الستاليني. لقد وجدت فيها، لا هرباً من الملل والكآبة كما تداوت بها أمي، بل إزميلاً نحت قدري وصقل أفكاري الوطنية. الموسيقى جعلت منّي إنساناً متمرداً على سلطة خبيرة في قمع الحريّات وتحطيم الأقدار المنتجة...

عدت في سؤالي إلى تأثير الوالد على موسيقى الابن:

«أيكون موت والدك سبباً لصناعة موسيقى ثورية؟».

أتاني جوابه من مفكّر حرّ قشع الحقيقة باكراً:

«نضالي ضد النظام السوفياتي بدأ يبرعم فيّ منذ الصغر عندما شنّت حرب عشوائية على الديانات، وطهّرت القارة الروسية من الكنيسة الأرثوذكسية. البيوت الريفية التي أحرقت مع سكانها هي تلك التي كانت تتعالى منها رائحة البخور المشتعل أمام الأيقونات المقدّسة. كانت أمّي شديدة الإيمان نرافقها إلى الكنيسة فيسكرني لهب البخور المتعالي من المباخر. في سن العاشرة حين تركت القرية لأعيش حياة المدينة في بيت جدّي، وأتعلّم الموسيقى في أكاديميتها ظلّت ذاكرتي تشتعل بالبخور في صقيع المدينة وأجوائها الملحدة.

«افتراقي عن أمّي حزّ في جرحاً عاطفياً لم تستطع الموسيقى مداواته. فالموسيقى لا نكاد نلمسها حتى ترتعش شجناً وحنيناً».

ساد صمت، سوى من عقارب ساعة الجدران التي بدت فيها تكتكات الثواني، صاخبة، هوجاء، كذلك اليوم الذي اختفت فيه ميرا وتبلبل ميزان الوقت وجنّ خارج وعائه.

بكاؤه كان صامتاً، يحاول لملمة الدموع الكارجة بين أثلام وجهه بمحرمته. بكاء كتوم يفرض على الرجل ألّا يجاهر به. امتدّت يده إلى صدره وأخرج القلادة المعلّقة بسلسال حول عنقه. كانت علبة فضيّة مستديرة كالتي تكتم فيها أغلى الذكريات. فتحها ودعاني لأرى صورة امرأة شبه ممحوة:

«علمت بموتها وأنا مطارد بعد فراري من الاتحاد السوفياتي. مارينا المرأة التي ظلّت الصديقة الوفيّة والحبيبة المخلصة، هي التي في اتصالاتي السرّية بها نعت إليّ خبر وفاتها. كان لا بدّ للجلاد من ضحية بديلة عنّي. أمّي دفعت ثمن فراري».

أطبق غطاء العلبة الفضيّة وقال:

«هذا كل ما بقي لي من المرأة التي حفرت في أعماقي حتّى عثرت على نبعة الماء الصالحة للشرب».

اجتاحت فكري عشرات الأسئلة المتشابكة ببعضها تدور في فلك معلّمي مذ كان طفلاً إلى حين قتل والده في الثورة. ويتغيّر المشهد فيما هو يحاكي هذا الماضي العكر بلا توقّف.

قاطعته وصوتي يرتفع فوق صوته ليسمعني:

«هل الموسيقى تفضح نوايا مؤلفها كما القلم كما الكلمة؟».

«للموسيقى علامات ومعان جمة بإمكان النوايا السيئة أن تعتبرها مشينة في حقّ الثورة ومثالها كما مؤلفّها عدوّاً للشعب. لقد آمنت بمثال الثورة أسوة بالكثيرين من الموسيقيين والفلاسفة والكتاب. لقد كان للبعض الجرأة في الكشف عن وجه النظام السوفياتي الخفي. هؤلاء اقتيدوا إلى الغولاغ ليكونوا عبرة للآخرين. البعض منهم عادوا ويا ليتهم لم يعودوا فاقدي الذاكرة، محطّمي الإرادة، مجرّدين من عملهم والبعض الآخر اعتنقوا النظام السادي حرصاً على حياتهم ومصير أولادهم. فأصبحوا تحت لقب «موسيقي الشعب» مكلّفين التحري على سائر الرفاق، وتقديم التقارير في

حقّهم. صرنا نتحاشى اللقاءات والوقوف في أروقة الأكاديمية لنتساير حتى بات كلّ مؤلف في عزلته. هذا الواقع أيقظ الإنسان المتمرد والراقد فيّ.

«تذكّرت والدي المسكين الذي رفع راية الثورة حتى الموت. قلت، ستكون لي أيضاً ثورتي المحقّة الواشية بالموسيقى ومن على خشبة المسرح الوطني على القمع واضطهاد الأدمغة، وقتل الإبداع».

وها هو القدر الساخر حيناً والشفوق حيناً آخر اختار إيغور مانياتوفسكي من بين ملايين الضحايا وقاده إلى ضفّة النجاة:

«أراك أمامي حيّاً، ولا أستطيع سوى أن أتصوّرك ميّتاً من زمان تحت راية ثورتك المتمرّدة على الحكم..

قلت ذلك لكنه لم يسمعني، كان هناك في معركته مع النظام المبيد:

«كان الموت آنذاك مكافأة لمن يقف في وجه الكرملن ويصرخ الحقيقة عالياً. إثر موت صديقي الشاعر ميخائيل بافلوفيتش مشنوقاً في غرفته، أخرجت النصّ الذي كان سلّمني إيّاه قبل أسابيع من القبض عليه. كان يومها في غاية النشوة. أذكر جيّداً ما قاله لي:

«قمر تشرين» قصيدة نقدية كاريكاتورية، تتهجّم على النظام بشكل ساخر. طموحي أن نحققها معاً بموسيقى متناغمة مع فحواها، على شكل أوبريت. هذا العمل إن تسنّى له ورأى النور، سيكون له أثر كبير في البلد، وأظن أنّ أهل النظام سيقدّرون الجانب الفكاهي ويغمضون العين عن الجانب النقدي.

«هل كان جدّياً في اعتقاده أن النظام الستاليني سيكون شغوفاً بمداعبات «قمر تشرين» له؟ كان إنساناً أمامي من كوكب آخر. أدرك ما في نفسي من مخاوف. لكن ثقته بنفسه كانت أقوى من التلطّي في الكذب والرياء. قال:

«على كل رجل جريء أن يرفض الكذب. الكتّاب والفنّانون بالرغم من وجود البعض منهم اليوم في الغولاغ يحفرون الخنادق، أو يحفرون قبورهم، بإمكانهم أن يهزموا الكذب والرابح الوحيد هو الفن في كل مكان وزمان».

«استلمت منه «قمر تشرين» باقتناع. كلماته بدّدت الخوف المعشش فيّ. قلت في سرّي ستكون هذه الأوبريت سلاحي. بها أتسلّل إلى ضمير المواطن وذاكرته. بهذا القرار الجريء، مضيت إلى القرية مع عدّة الشغل، مشتاقاً إلى أمّي ومعزياً إيّاها بفقدانها ابنتها البكر فاليريا بداء السلّ. كان مضى عليّ زمن لم أرَ فيه أمّي وإخوتي. وجدت البيت مكسواً بالحداد وصورة فاليريا الحلوة الحزينة النظرات معلّقة بمحاذاة صورة والدي. بكت أمّي على كتفي بكاء مرّاً والبكاء يتقطّع في حنجرتها. قالت:

«لقد فرغ المنزل يا إيغور. سيرغي وأنطون التحقا بالشبيبة الشيوعية، السبيل الوحيد لتجنّب المطاردات والاستجوابات. لقد جاءوا مرّتين يسألوني عن ميولك الوطنية وكنت أردّ بسذاجة أنّك موسيقيّ مؤمن بالموسيقى لغة محبة وسلام».

«في تلك الآونة كان الشعب الروسي يعيش كابوس التطهير. المخبرون والدسّاسون في كلّ مكان واللوائح السوداء مكتظّة

بالأسماء. بين ليلة وضحاها كانت حياة كلّ منّا مرصودة لأن تغدو كابوساً، الاعتقال أو الموت.

«وبالرغم من كلّ ذلك انطلقت في كتابة موسيقى «قمر تشرين» «لقد شعرت بدين تجاه ميخائيل. رهانه كان كبيراً على هذه القصيدة يريد لها عاصفة من الضحك كما قال. أذكر كلماته:

«دع الموسيقى تفرقع ضحكاً». كان الجو مؤاتياً في منزلنا الريفي للتأليف وكنت في قرارة نفسي أشعر بالقرب من أمّي «نينا» بالأمان. وأكثر ما يعزّي قلبها، أن نزور معاً قبر فاليريا ووالدي ونزيّن تلة التراب بأزهار البريّة. كنت أندهش من ذاكرتي وأنا أتمتم معها الصلوات عن روح أعزّائنا. الإلحاد المعمم في الاتحاد السوفياتي، لم يتمكّن من نزع الإيمان المشرش في جذور الإنسان الروسي. ومع عودتي إلى المدينة بدأت العمل على الأوبريت تحت غطاء اسم مستعار «رقصات على ضفاف الدانوب» لتفادي ما قد يسببه لنا العنوان الأساس من أضرار جسيمة. لقد مات ميخائيل قبل أن يرى ثمرة ثورته على النظام مجسّدة بالصوت والرقص على خشبة المسرح الوطني. القصائد العنيفة التي نشرت له في صحف أجنبية استعجلت ميتته شنقاً لا بيد الـ«كا.جي.بي» بل بيده هو أمامهم».

كمسافر على درب طويلة أخذ نفساً عميقاً، شلّته استراحة ثوانٍ وأنا في ذلك المزيج من الإضطراب والتشوّق لمعرفة ما حدث. سألته منتهزة سكوته:

«في هذه الأحوال المريعة، السائدة كيف تجرّأ المغنون والراقصون والموسيقيون على ارتكاب هذا الخطأ الفادح؟».

أتى جوابه تلقائياً من فنّان يؤمن بالحرّية مادّة للإبداع:

«وهل كان في قصيدة ميخائيل ما يدعو إلى الحذر؟ في باطنها ثورة أمّا في ظاهرها فأبيات جميلة كلّها أمل وتفاؤل بالحياة. قرأتها مرّات حتّى تتخمر في ذاكرتي وأغدو قادراً على أن أكسوها بموسيقى تعبّر عنها. كنت في حال من النشوة وأنا أكتب مقاطع الأوبريت حتّى صرت أرى النوطات ترقص طرباً على ورقتي وروح ميخائيل تملي عليّ المقاطع الغنائية حين تعلو الأصوات المتحاورة تحلم بثلوج ناصعة لا تدنّسها وحول ولا تبعثر أكفانها رياح.

«كان كلّ شيء على ما يرام والحماسة في ذروتها لدى العازفين والمغنين والراقصين. «قمر تشرين» كان بالنسبة لهم نافذة مشرّعة على مواسم جديدة من خيرات الموسيقى المشغولة على نول الحلم والأمل.

«وليلة الافتتاح غصّ المسرح الوطني بالناس، الذين تفاعلوا بشدّة مع الأغاني وإيقاع الموسيقى المزغردة طرباً. وحدهم رجال الكا.جي.بي تلقّوا جوهر الرسالة.

«كنت في مقصورتي أتلقّى التهاني من الناس حين دخلت مارينا ملتفّة بشالها الأسود وعلى جبينها برقية مستعجلة: «حاول الفرار يا إيغور بأي ثمن وإلاّ ارتبط مصيرك بمصير ميخائيل».

«لم أعر اهتماماً لتحذيرها حتى لا أفسد السعادة التي غمرتني بعد نجاح الأوبريت. اقتربت منها ورحت أقبّل شفتيها وياقة معطفها العابق بعطرها، هذا العطر الذي طالما هيّج أحاسيسي وصنع منّي عشيقا لا يرتوي.

«مارينا تانييف أسرت حياتي وقيّدت مشاعري، يوم سمعتها في المعهد الموسيقي تعزف على أوتار كمانها «سيرينادا حزينة» لتشايكوفسكي. كنّا رفيقي مهنة واحدة، نتحاشى اللقاءات الحميمة حتى لا يظن النظام فينا سوءاً. لكنّي في ذلك اليوم ومارينا منسجمة مع روح تشايكوفسكي حتى الانخطاف لم أتمكّن من كبح مشاعري. جئت إليها بعدما صمتت الأوركسترا وظلّ كمانها في سمعي يبوح لي حبّاً يودّ الانطلاق في رحاب الكون. بأسلوبٍ أكاديمي يحفظ كلامنا من التأويلات المغرضة السائدة بين رفاق وُشاة، هنأتها على مهارتها في هذا العزف المنفرد ثم كلمتها عن تشايكوفسكي وكلّي فضول لأن ألمس عمق أحاسيسها.

تأمّلتني لحظات وابتسامة رقيقة على شفتيها قبل أن تقول:

«عندما يموت فنّان، يهتزّ العالم برمّته. تشايكوفسكي مات انتحاراً تسعة أيام بعد ولادة سمفونيته السادسة تلك التي كسته بالشهرة. صمّمت أن أعيش في ذكراه من خلال موسيقاه حتى أصبحت «سيرينادا حزينة» تميمتي أتخاطب بها معه».

«في اليوم التالي وكان المساء يلقي بظلاله على الثلوج المتراكمة على مدخل المعهد رأيتها واقفة كقرص جليد أسود. اقتربت مني وبعجلة قالت:

«أنا في انتظارك في بيتي. لدينا أشياء كثيرة نقولها».

لم تكن خائفة، بل جاهزة لما يروي ظمأ امرأة وحدانية نذرت حياتها للموسيقى بعد مقتل شقيقيها في الثورة البولشفية. وكنت

وأنا أقرع بابها خائفاً عليها. لكن كان كلّ شيءٍ مرسوماً بيننا منذ الأزل.

«الإنسان الجائع يسرق طعاماً يسدّ به جوعه. والعطشان يجرع حتى من الماء الموحلة ليطفىء عطشه. كنت جائع حب وحنان. ومارينا أيضاً. كنّا كلانا في هذه المدينة القاسية بحاجة إلى بعضنا لنرتوي، فالموسيقى المكتوبة تحت ستر الليل بالخوف والهلع لا تروي بل تزيد كاتبها نقمة وغضباً.

«مارينا... كانت المرّة الأولى أرى فيها جسدها الملآن عارياً يطلب كساء من القبل والعناق ليدفأ. أخذتها بين ذراعي والليل حارسنا، ننعم بهذه اللحظات النادرة قبل أن يفاجئنا صباح سان بترسبورغ الرمادي».

كأنه كان يكلّم ذاته، غير آبه لوجودي وأنا أتلقى من هذا الوصف المجوني ما أجّج غيرة أكولة في داخلي. ألم يشعر مذ بدأت أدرس معه الموسيقى أي جوع عاطفي كان ينهشني وأنا أحزّ القوس على الوتر وأتمنّى لو هذه اليد المنشغلة في تليين معصمي تمتدّ إلى عنقي، إلى جسدي، تعرّيني من لباس الكذب وتعبث فيّ حباً، فأكون مارينا العشيقة التي ارتوى من روحها، من جسدها وما عاد بحاجة إلى سواها؟

شعرت والبوح ينخر مسامي، بكراهية لامرأة كانت حاضرة لاستقبالي ورعايتي في منزلها.

هذا الاسترسال اللاواعي من عاشق يتذكّر بصوتٍ عال، كان بودي لو أَضع حدّاً له، ولم أستطع.

«قد أكون ما زلت عدو الشعب في ذاكرة النظام السوفياتي ولو بعد رحيل الديكتاتورية، وإعلان العفو الشامل عن المنفيين والفارّين من الغولاغ. هنا في لبنان لم أتقاعد. البلد استقبلني وقدّر تضحياتي لطلابي. والغرفة التي أسكنها في برمانا منذ أكثر من ثلاثين سنة، باتت تحوي العديد من المؤلفات التي أوحاها إليّ ناس هذا البلد وشمسه وطبيعته والوجوه البشوشة. لكنّها لن تكتمل سوى باسترجاعي القيمة الأساسية التي أنتجتها في الخفاء وطمرت الجزء الثائر منها في صندوق في محاذاة بيت أمّي، ومن محتواها نسخة عن أوبريت «قمر تشرين». القصيدة بخط ميخائيل بافلوفيتش والنوطات بيدي. إنها قطعة أثرية. أتفهمين الآن لماذا أعلّق آمالي عليك؟ هناك في هذه القرية النائية، ستنكشين داخل المربّع الترابي الذي سأرسمه لك.

قلت وقشعريرات الخوف تنساب في ضلوعي:

«مايسترو لماذا لا تقوم أنت بهذه المغامرة وقد شمل العفو كل الفنّانين والمفكّرين؟».

أدرك ما أعانيه من قلق، وفي الوقت ذاته كان يعلم بأنّي جاهزة بحبّي له للقيام بهذه المخاطرة. قال:

«الرسائل التي تصلني من مارينا لا تشجّعني على العودة رغم اشتياقها إليّ. إذ أقرأ بين السطور بأن الذاكرة الستالينية باقية، تمارس إجحافاً في حقّ الفنّانين والمفكّرين. ماذا يا ترى سأكون فيما لو سلّمت بهذا العفو، سوى مواطنٍ من الدرجة الثالثة، مجرّداً من خصائصي، مراقَباً ليلا ونهاراً، محطّم الكرامة، كنّاس شوارع، عامل تنظيفات، فيعتريني هلعٌ أقوى وأشدّ ظلمة من الكوابيس

الليليّة التي تتلطّى على وسادتي حين أخلد إلى النوم فأستفيق مذعوراً وذلك الشاب أمامي فارّاً يعدو في السهب، يقطع الأنهار، يحتمي في الأحراج وصوت الرصاص يلاحقه، يبحث عنه في كل مكان.

مضى العمر وكلّل الشيب هامة إيغور مانياتوفسكي وما زال شوقه إلى مارينا على ازدياد. عرفت فيه رجلاً متقشفاً في بزّته الروسية السوداء، متقشّفاً في أسلوب عيشه، يعطي أفضل ما عنده لتلاميذه. كنت من بين هؤلاء أكثر من تلميذة راهن على مواهبها البكر لتتفوّق بل مرآة لعذاباته. لقد وجد في هذه الفتاة المشلّعة المعلّقة بوتر الكمان لتنجو، الشخص الملائم لقضيته العاصية، وتلك الغريقة التي لا تتردّد في سعيها لإنقاذ غريق آخر.

قال لي يومها: «من يقاوم الديكتاتورية بموسيقاه بمقالاته، بكتبه، بفكره، فكمن يقترف جنحة لا صفح عنها».

كنت مستلقية على كنبة الطبيب المحلل، أتكلّم عن هذه المرحلة الكبرى من حياتي، كأنها الأكثر قساوة مما سبقها. قال لي يومها:

«يوم قدمت أوبريت «قمر تشرين» على المسرح الوطني كنت على يقين بأني ذاهب إلى الحرب، حيث على المحارب أن يكون جاهزاً للموت. الثورة على الظلم وقمع الحريّات كانت في دم كل شاعر، كل صحافي، كل كائن توّاق إلى الخلق بلا قيود. ثورتي أنا تفجّرت في موسيقاي، كنت في كامل وعيي، ترتسم في ذهني العواقب التي ستنهال لا محالة عليّ وعلى مؤلفاتي. ورغم تحذير مارينا بعد الليلة الأولى من تقديم الأوبريت، استمررت أتنقل من بترسبورغ إلى موسكو أصرخ غضبي على مسارحهما ضد القمع والاضطهاد. وحدها موسيقاي كانت تحكي، فتهيّج الجماهير الكادحة الفقيرة، حتى حصل ما كنت في انتظاره. كنت لقمة سائغة بين يدي المخابرات».

كنت جاهزة دوما بسمعي وحبّي الكبير له، يروي ونظراته الزرقاء تنساب من النافذة وتمضي أبعد من قمم الأشجار، قصّة شبيهة بمصير آلاف المفكّرين والفلاسفة والموسيقيين الذين أتلفت أعمالهم وخلايا عقلهم في أشغال الغولاغ الشاقّة.

عاد من رحلته البعيدة ليتابع حكاية في استطاعتها أن تؤلف كتاباً من تلك الكتب الموجعة، المشوّقة:

«تعلمت أن أروّض الموت وأنا في طريقي مع رفاقي إلى الموت، إذ كان علينا أن نحفر قبورنا قبل إعدامنا. ترويض الموت أعطاني فعلاً الحقّ بالحياة. قرأت مرّات ومرّات «إيفان إيلليتش» لتولستوي وكنت في كل مرّة أتمرن بالخيال لأعيش ذلك النزاع الذي من الصعب على أي كائن حيّ احتماله. وتلك الوحدة المخيفة التي على الراحل أن يألفها كي يألف حدث الموت».

لقد بتّ أدرك وأنا أصغي بتقوى إلى أقواله الأسباب التي حوّلته من عاشق ثائر، إلى متقشّف نذر نفسه للموسيقى ولا لشيء سواه.

سألني زياد مرجي كأنه يحاكي معلّمي:

«بالرغم من ذلك استطاع أن يفلت من قبضة الجلاّد وأن يهيم فارّاً يبحث عن مأوى يريحه من محنته..».

قلت والشعور بالتخلّي يعيد سكّينه طعنات في قلبي:

«أما أنا فأي فرار يخلّصني من حملي الثقيل ما دمت الفلقة من توأمي الباقية زوراً على قيد الحياة وكلمة أمّي تلاحقني: «أو أنتما الاثنتان كما ولدتكما أو لا شيء» كيف السبيل للفرار من قبضة هذا الجلاّد؟

كتهديد قادم لا محالة صرت أشعر بانقباض شرس يغلق مجاري الهواء في صدري، وأنا في هذه الطائرة الماضية بي إلى المجهول.

بعد وجبة الطعام وطقوس الشاي والفودكا، انطفأت الأنوار وغطّ المسافرون في النوم مما زادني غربة وقشعريرات برد أفكر بما ينتظرني بعد ساعات.

راح فكري إلى جنان أستأنس بكلماتها الأخيرة على أرض المطار، وتطمئنني إلى أنها سترسل لي على عنوان مارينا تانييف مع إطلالة كل شهر، مبلغاً كافياً يؤمن إقامتي في بيت مضيفتي وحاجاتي. قالت: «أريدك يا مايا أن تنظري إلى المستقبل. الماضي بات وراءك. سأراسلك دوماً وأعطيك من أخبارنا أنا وجدّتك».

في هذه البلبلة من الأفكار عاد صوت إيغور يروي لي قصّته في

الغولاغ، هذه القصة التي أعادها على مسمعي مرّات، وفي كل مرّة يلقي بحزن بالغ مقاطع من قصيدة الشاعر البولوني تزيسلاف ميلوتش كتبها في أحلك ساعات الحرب العالمية الثانية.

«في هذا البرد القارس والجوع الضاري ونحن في الخنادق نحفر القنوات والقبور، كان الشعر لسجناء الغولاغ كقطرة ماء لعابر صحراء. كانت الأبيات تعلو من كل سجين على إيقاع المعاول، فتلين الحجر وتحنّن الصخر. ذات يوم والموت كان بدأ يستبد بهزالنا صدحت قصيدة من بين السجناء، عرفت أنها لميلوتش، من القصائد التي تخرق في حنايا الذاكرة وتتشبث بها:

«لا تحب بلداً: البلدان تنهار بسرعة
لا تحب مدينة: المدن تسقط بسرعة
ألق بذكرياتك وإلا نز من الدرج
دخان يفسد أنفاسك
لا تحب أحداً: الناس يمضون بسرعة
أم أنهم في التيه يطلبون النجدة
لا تتأمّل أبداً في مياه الأمس
صفحاتها المتآكلة لن تعكس أبداً الوجه المنتظر..».

هذه الكلمات التي قال عنها إنها لا تكتب إلاّ بيد معتقل، صرت أرددها في سرّي وتأتي معها صور سوداء لمعاناة هذا الشعب.

فهل كنت أعلم وأنا على جناح هذا الطير المعلّق بين السماء والبحار بأنّي سأكون ذلك المعتقل البديل عن معلّمي؟ وهل كانت

بشيرة الكردية ستتنبأ لي بأنّي سأعود أشلاء إلى بلد فتح هو أيضاً جبهاته للحروب والمجازر، وأحمل قلمي سلاحاً لأخبر، لأكشف، لأشي وأنا في كلّ بيت أسمع حكايةً في صمت سكّانه، في صور الراحلين المعلّقة على الجدران؟ هذا القلم الذي لولاه لباتت ورقتي بلا ذاكرة.

كانت مارينا تانييف في انتظاري على أرض المطار، متلهّفة للتعرّف إلى تلميذة إيغور. تأمّلتني لحظات قبل أن تأخذني بين ذراعيها كأمّ اشتاقت إلى ابنتها بعد غياب. شعرت بالغربة التي كنت مكسوّة بها كمعطف من جليد تذوب شيئاً فشيئاً من خلايا فكري.

قالت: «بسبب الظروف التطهيرية التي يعيشها البلد لم يكن في وسع رسائلنا المتبادلة أن تتضمن شرحاً طويلاً. كان إيغور مقتضباً في كتاباته بعد زمن طويل من الانقطاع. لكنّي أدركت من رسالتيه المتعلّقتين بك أنه يراهن عليك كخيلٍ رابحة، في مخطط ساذج شبه مستحيل. فكّري يا مايا بأنك هنا في حمايتي وضيافتي للدرس والتفوّق. وسنرى في ما بعد إذا كان من الممكن التوصل إلى جنى حياته المودعة في حِجْر في المعهد العالي للموسيقى».

أدركت فوراً أنّها ليست على علم بالعلبة المدفونة في محاذاة بيت

إيغور العائلي، على ضفاف الفولغا، أو أنّها تؤثر الصمت حتى لا يخونها لسانها. قلت في نفسي: ما زال الوقت باكراً لنتعارف جيّداً، ونبوح بأشياء لبعضنا دون خوف أو شكوك.

مارينا تانييف أستاذة الكمان في المعهد العالي للموسيقى كانت على العكس من معلّمي، منفتحة، واثقة، فتحت لي قلبها حالما وصلنا إلى بيتها في حيّ شعبي من المدينة. وأول ما قالته لي إعرفي أنّك في لننغراد، لا في بترسبورغ الاسم المتأصل في دم إيغور.

سألتها:

«كيف استطعت أنت أن تحمي نفسك في تلك الأجواء المحمومة آنذاك، علماً بأن علاقة حبّ وعمل ربطتك بهذا الرجل. كيف؟».
أجابتني ولا ذرّة أسف في أقوالها:

«كان عليّ أن أحفظ رأسي من إعدام محتّم. جمعت مؤلفات إيغور التي خبأها في بيتي وسلّمتها إلى الـ«كا.جي.بي» كفعل ولاء للنظام. كانت خيانتي كبيرة للرجل الذي أحببته ووعدته إخلاصاً. ومن جهة أخرى ارتقيت في مهنتي حتى أصبحت مديرة قسم الموسيقى الوترية في المعهد».

يا له من اعتراف رهيب. كنت لا أصدق ما أسمع. وكأنها كانت في انتظاري لتفشي الثأر المتغلغل في نفسها مذ أطاح إيغور بحبها وأصرّ رغم تحذيراتها على إشعال ثورته الفنّية في وجه النظام الستاليني. لم تصفح مارينا بل استطاعت أن تحمي نفسها غدراً بالأمانة.

سنوات طويلة، تبدّلت خلالها الأنظمة في روسيا وإيغور يجترّ في حياته الآمنة في لبنان حلماً عتيقاً ظنّه أبدياً.

كنت أوضب حاجاتي في الغرفة الصغيرة التي خصّصتها لي حين دعتني إلى غرفتها. في شراييني كان الدم فاسداً أسود، وأنا في هذه الكلاّبة لا أستطيع إفلاتاً.

رأيتها وقد فرشت على سريرها تشكيلة بديعة من الأيقونات. قالت:

«اختاري ما شئت منها. المعالم الدينية باتت ممنوعة هنا».

بالرغم من تصرّفها اللائق معي، والعاطفة التي استقبلتني بها على المطار، صرت أقرأ في عينيها الرماديتين قساوة، وفي نبرة صوتها أمراً ناهياً آتياً ربما من التدريب العسكري الذي خضعت له تصفية لضميرها إزاء الحرب.

جلت بنظري في الغرفة التي عاش فيها إيغور نار الحبّ مع مارينا. انقبض قلبي غيرة وصوته في أذني يصف لي زمن الحبّ المسروق من تقويمة الاعتقالات والتعذيب:

«كنت أتسلل ليلاً إلى بيتها في هذا الحيّ الشعبي. نلقي بأتعاب النهار خارجه، عاشقان ظمآنان للحبّ ننهل من موسيقى شهرزاد كل مباح لجسدينا، وقبل أن يطلّ الفجر ويفشي أسرار حبّنا، كنت أعود إلى بيتي خائفاً من أي عابر سبيل، خائفاً من ظلّي المطارد خطواتي. هكذا كان الليل في سان بترسبورغ يغطّي بمعطفه الدامس خطوات العشّاق على الثلوج المتحجّرة على زوايا الأرصفة».

كم هي الحياة قاتلة في هذه القارة حين يأتي إليها الإنسان من الخارج، ملتفّاً بعباءة غربة القدر، ليجد نفسه مدفوناً في غربة أكثر قساوة منها. لقد كانت اللغة العائق الأقوى في بدايات حياتي في لننغراد ولم أيأس. كان لا بدّ لي من التأقلم في أجواء معهد اللغات والمعهد الموسيقي وفي كليهما النظرات المتفرّسة فيّ كأنّها تؤنّبني لكوني بينها.

أمّا مارينا فكنت أحاول بقدر المستطاع أن أكون عند حسن ظنّها، وأن أتبع نصائحها كما كانت تقول. فلقد حذّرتني منذ الأشهر الأولى لإقامتي الروسية، ألّا أبعث برسائل إلى الوطن قبل أن تكون رقيبة عليها. لذا كنت أكتفي بأن أطمئن جنان وجدّتي إلى صحّتي وأن أُعلم إيغور بأني على تقدّم في آلة الكمان. رسائل لا أشواق فيها ولا وصف للحياة هنا. فبقدر ما كنت أخشى ردّات

فعلها كنت فعلاً ممتنة لما تبذله من جهد لكي تنمو الآلة بين يديّ وتترقى. كانت أستاذة عريقة مدرَّبة على عدم التهاون مع تلامذتها من أجل أن تجعل منهم موسيقيي الشعب الروسي.

إذا كان من الصعب جدّاً التأقلم مع رفاقي في المعهدين، غير أنّي تخاويت باللغة الروسية. حتى صرت بظرف قصير، أجيد تركيب جملة، وأنقل نصّاً من الفرنسية إلى الروسية. في نهاية الفصل الدراسيّ كنت من بين التلاميذ الآتين من أوروبا والشرق الأقصى الأكثر تقدماً، حتى اعتلى اسمي رأس قائمة الناجحين.

مارينا هي التي اقترحت أن نبعث ببرقية إلى الخالة جنان، نزف إليها الخبر. وعاد الجواب يذرف فرحاً ومعه حوالة سخيّة من المال، اعتبرتها مضيفتي مكافأة لجميلها واهتمامها الكلّي بي.

ودارت السّنة دورتها وأنا لا أتجرّأ على التلميح بما أوصاني به إيغور. كانت خارطة بلدته مزنّرة بحبر أحمر حتى لا يتيه الزائر عنها، وأن أتحيّن الفرصة الملائمة لأبوح لمارينا بمّا في قلبي. ذات صباح كنا نمشي بخطى مسرعة للوصول إلى معهد الموسيقى قالت ولهب البرد ينساب من فمها:

«هذا المساء، أقيم سهرة هادئة مع بعض الأصدقاء. أود أن تكوني معنا. ثمّة أشخاص في الحزب طلبوا التعرّف إليك».

لم أتفوّه بكلمة. فالدعوة انصبّت على رأسي ككتلة جليد. تساءلت في سرّي: فهل من دور تريد مارينا أن تزجّني فيه؟ هل أساءت فهمي حين رأت الخارطة على فراشي؟ والبلدة المزنّرة بالأحمر؟ وكل ما قلته يومها: «هل بالإمكان، تلبيةً لرجاء إيغور،

أن نذهب معاً إلى بلدته ونزور مدفن عائلته. لقد كلّمني مراراً عن بيت أمّه. فلديّ رغبة في أن أتعرّف على هذه المنطقة؟».

لم تكن مارينا من العشب الساذج الذي يُداس بسهولة، كانت دوماً مروّسة، أنظر إلى بدانتها وأسأل نفسي أي امرأة أحبّ معلّمي، هو الأرستقراطي الملامح، المرهف دوماً ببزّته الروسية التقليديّة، المتقشّف عن ملذّات الدنيا لأجل الجوهر الذي دمّر حياته لأجله: الموسيقى الحرّة من كل قيد. أمام صمتي المضطرب أضافت:

«كوني جاهزة بأجمل ما عندك من ملابس. السهرة ستكون ودّية من السهرات الروسيّة التي لم يتسنَّ لك التعرّف إليها بعد».

«التعرّف إليها بعد»... وكأن البرنامج الذي جئت إلى روسيا من أجله شمل أيضاً ليالي أفراح مارينا مع رجال الحزب. لعنت إيغور في سرّي وحدسي يقول إنّي وقعت في المطب الروسي قبل أن أقوم بالمغامرة إلى بلدته. تماسكت حتى لا أفرط في العويل، علّها تقرأ في صمتي حقيقة فتاة مترفعة عن الدهاء والمكائد.

ما لم أدركه إلا وتوق الاستخبارات في عنقي، هو أن الميّت في روسيا لا يموت بل يبقى مطارَداً في عظامه، في ذاكرته، معلّقاً اسمه على لائحة الاتهامات مهما دارت الأزمنة وتغيّرت الأحكام.

إيغور مانياتوفسكي الموسيقيّ البارع الذي حطّمت الثورة جناحيه كان يردّد دوماً وهو يحثّ طلابه في المعهد الموسيقي في لبنان على التفاعل مع النغم كلسعة نار «إنّ من يثُرْ وينتفض لا بدّ أن ينهش الحياة بين شدقيه».

عجيبة هي الصدفة، تبتدع على حين غرّة أموراً غير متوقعة تفاجئنا في البرهة التي تبادرنا بها، تبلبل أفكارنا، تحثنا على فك مغزاها في هذا السؤال الساذج: هل الصدفة خبر يأتينا عن قصد أو عن غير قصد؟ ولا ندرك سوى بعد حين أن للصدفة مهاماً، ساعي بريد لدى القدر تباغتنا بأسلوبها الشبيه بالألاعيب الفنّية لتوزّع علينا مراسيل تعيدنا في قراءتها المتمهّلة إلى نقطة الصفر من الوجود أو إلى مراحل مختلفة منه.

الصدفة غير المتوقعة جاءت في ساعة كنت فيها في المعهد العالي للموسيقى أطبّق المنهج الحديث لآلة الكمان على طلاب ثلاثة كان قُبِلَ ترشيحهم لمباراة الجائزة الدولية لهذه الآلة. هذا المنهج كان وضعه معلمي إيغور وصار بين يدي أنهل منه، بعدما حللت مكانه أعيش على ذكراه المؤلمة كما أقرّ له بالدَّين الكبير لما أغدقه عليّ

من معرفة وُرؤى مستقبلية لكمانٍ سوف يبقى دوماً ملطّخاً بالمآسي المستترة في أحشائه.

ما كنت أعرفه عن المؤلف الموسيقي ايليا الصافي، هي دراسته القيّمة التحليلية لموسيقى الشعر. وقد جاء في هذا الصباح يحمل إلي عرضاً قبلت به فوراً دونما تردد، دون أن أربط هذه المصادفة بخيط القدر الذي عليه ارتسمت حياتي كلها.

دخل فوراً في لب الموضوع:

«البرنامج الذي صممته مع الطبيب النفسي المولَج في مراقبة حالات المساجين النفسية، وافقت عليه مديرية السجون، على أن نبدأ تجربتنا في سجن الرجال أولاً أي لدى المحكومين بالسجن المؤبد. لقد ارتأيت الموسيقى علاجاً يسكّن بعضاً من الفتن والشغب التي يفتعلها هؤلاء. المتطوعون إلى هذا الاختبار باتوا كثراً من أساتذة عود وقانون وناي وغيتار وإيقاع. فإذا العدد الأكبر من المساجين اختار الإيقاع دفاً وطبلاً ودربكة، فللصخب الذي تجلبه. المحلل النفسي وجد في هذا الخيار أمراً طبيعياً، كمتنفس للضغوط التي يعيشونها.

وما المطلوب مني؟ قلت.

«أن يكون مقابل الإيقاع، كمان، يسكّن الأعصاب، ويهدىء من العنف المتغلغل في البعض منهم. لقد وقع اختيارنا عليك على أمل أن تعطي ساعة من وقتك في الأسبوع لهذا البرنامج الإنساني.

هي تلك النقطة الجاثمة على الباب الحديدي التي كان علي

اجتيازها لأغدو داخل السجن، التي استوقفتني لأقرأ ملياً الرسالة المخطوطة بيد القدر.

قلت في سرّي: هل أنا هنا في صدد تليين قلوب المساجين والتخفيف عن ضغوطهم أم لأداوي في سجن آخر، عذابات السجن الروسي التي لا تبارحني؟ استقبلني حراسّه بحفاوة وتقدير للرسالة التي جئت لتلبيتها؟

كانوا خمسة في انتظاري، أحاول بما لدي من إيمان أن أفرغ ما في نفسي من ذكريات الاستجوابات المغرضة، لأتمكن من التحاور معهم، ومدّهم بثقتي بهم كما تمتد اليد للمصافحة. لم نتكلم عما اقترفه كل منهم. بل عن آمالهم وأحلامهم، عن اليأس والتفاؤل. أسماؤهم... قالوها كرجاً فيما كنت أتلعثم بين مايا وميرا. لماذا كل هذه المقارنات؟ أنا هنا بصفتي معلّمة موسيقى لا سجينة عتيقة جاءت لتطبق اختبارها عليهم.

شعرت لديهم بحاجة للكلام أولاً قبل الدرس.

قال ماجد والكمان الزهيد على ركبتيه:

«كأني بهذه الآلة التي اخترتها تلقائياً، لن أتوصل إلى أكثر من صرير عليها وأزيز، لكنني أعد نفسي بأن أكون مواظباً على الدروس، علّك تلمسين أن هذا الخاطىء الفاحش الماثل أمامك ما زال قادرا على البكاء».

وسألت غسان عما يتوخاه من هذه الدروس.

أجابني بشيء من الازدراء:

«وهل الملعون من بطن أمه يجد في هذه الآلة التوبة والغفران؟»!

أما عامر فلم ينتظر مني سؤالاً، كان متأهباً للاعتراف:

«والدي كان يعزف على الربابة ويغني مواويل بغدادية. القدر العاهر جعل منه تاجر حشيشة ليعتاش ويعيل عائلته، فهلك وهلكنا معه. لقد ورثت عنه تجارة المنكرات، فصرت قواداً أتاجر بالمومسات إلى أن وقعت الجريمة. قولي يا أستاذة، هل النقر على أوتار هذه الآلة يعيد للإنسان الفاسد اعتباره؟».

كان لكل واحد منهم حكاية مأسوية من مآسي الحياة، والمطلوب مني ساعة في الأسبوع على وتر كمان، يغطي شحتار السجون بلون وردي.

حدّقت ملياً بحسن. كان حاضراً على كل كلمة يتفوّه بها الرفاق منتظراً مني سؤالاً ليحكي:

«مذ وعدونا بك وأنا أحلم بالحرية عن طريقك. أقرأ في عينيك حزناً أنت وحدك تعرفين أسبابه. وأتمنى أن يقودني الكمان، حين أتقن مجالسته، إلى ما يجول في نفسي. كل من اقترف جنحة يقول أنا بريء والبريء الحقيقي ستلمسينه غداً على خشب هذه الآلة».

هل كان حسن في تخاطر بين فكرينا؟ هل في هذه المصادفات يواصل القدر حياكته المكوكية كي يبقى الرباط وثيقاً بين الأزمنة؟ كيف بإمكاننا أن نختصر الوجود بمدّه وجزره بعنوان واحد؟ قرأت في عيني حسن المتقلبتين بين اللحظة والأخرى إلى أسود ورمادي،

صراعاً مغلقاً أقوى من تظاهرات الرفاق على أسوار السجن، وأكثر مردوداً على النفس من الإضرابات عن الطعام.

تمنيت في فكري لو باستطاعتي ان أتبنّى مأساته كما آمر السجن في ذلك الأمس الأسود، فتح زنزانتي وساعدني على الفرار. كنت وحسن شقيقين في التجارب الوجودية الكبرى.

سألت جمال تلميذي الخامس والفكر ما زال عند حسن يرحل منه إلى لننغراد: قل ما عندك:

«من بين الآلات التي عُرضت علينا لنكون فرقة موسيقية اخترت الكمان لأنه الأصعب وتالياً سوف لن أكون عند حسن ظنه. هكذا أكون صادقاً مع نفسي والخاطئ قلما كان صادقاً. في هذه المناسبة أشكر كل من قام بهذه المبادرة التي إن صنعت منا شيئاً فمهرّجين تافهين أمام الأوادم».

هكذا أصبح يوم الأحد، قداس أخوّة ومحبة مع طلابي المساجين، وأنا بالذاكرة لا أختلف عنهم. لقد كانوا الوجع المطهّر ماضيّ. أنتظر كمدمن على الكحول يوم الرب هذا، لأداوي علّتي بدائهم. مضت أشهر وأنا مواظبة على هذه العلاقة، نشيّد معاً مسكناً حراً للنفوس بين قضبان السجن، ورهاني الوتر الذي بين أيديهم الكفيل في إيقاظ البذور الطيبة الراقدة في أعماقهم.

لم يكن الأمر سهلاً في بداية لقاءاتنا حيث كان علي ترويض الفكر المشتت واستمالته ليتقبّل الموسيقى إناء لاحتوائه فالشغب كان ذريعتهم للبقاء، والثقة المسلوبة منهم يحاولون استرجاعها بأي ثمن كمقويّات لنفوسهم المطمورة تحت طيات الاتهامات الكبرى.

كنت جاهزة لهذا الاختبار بكامل أحاسيسي تلك التي بدأت تتحرر من عقدها النتنة، في جوار هؤلاء الذين كانوا في كل لقاء يتفاعلون لا شعورياً معي كالأواني المستطرقة، ننضح من بعضنا بعض، وفي هذا التبادل فكمن يطلب من الآخر عفواً.

يوم استراحت القوس من تصلّبها وصارت تخطو خطواتها الهمجية على الأوتار، همد الهيجان المتأجج فيهم. فالكمان بصريره وأزيزه المريع أضحى البديل عن لسانهم. لدى البعض لمحت اندهاشاً إزاء تجاوب الآلة مع مزاجهم المضطرب. وما تنبهت إليه في هذه الورشة الشبيهة بالحفر في الصخر، ذلك السعي المضني الذي كان حسن يقوم به لاستخراج النغم، كأنه وجد في الكمان صديقاً حميماً يصغي إلى عذابات جوّانية عميقة. مرات لاحظت انزعاجه من الفوضى التي كان الرفاق يختلقونها بأقواسهم المهتاجة كسيوف في ساحة المبارزة، فيما كان هو ينقّب بين خانات كمانه عما يريحه من صوت ضميره.

الدرس الكبير الذي حفظته من هذه الرفقة الأسبوعية هو أن الموسيقى العلاجية ليست في الانتقال المباشر إلى موسيقى باخ الساكنة، الهادئة ولا إلى الأنغام العذبة التي كتبها موزار في صغره، بل أن تكون الآلة، السوط الذي يجلد به المريض النفسي مآسيه. هكذا في لقاءاتنا الأولى تركت لهم العنان كي يكفّروا على خشب الكمان عن ذنوبهم، أو عن ذنوب ارتكبت في حقهم فكانوا المظلوم لا الظالم. ويوم شعرت لدى البعض، بالقوس في تآلف مع الأوتار، والأصابع تتنقل بشغف بين الخانات، مضيت إلى أسلوب آخر وهم يستمعون إلى ما أشرحه لهم كتلاميذ نبهاء في الصفوف الابتدائية. كلّمتهم عن اللحن الذي يضاف إلى آخر على

سبيل المصاحبة. وبكماني بدأت الشرح التطبيقي وهم في هذه الطقوس الروحية خارج المكان الموجودين فيه، يمجّون مفعول القوس السحري على الوتر كمختبر للتوبة أو كشهادة براءة من جنحة مضى عليها الزمن.

لمحت حسن يمسح عينيه المغرورقتين بالدموع بكم قميصه. هذه اللحظات الصامتة سوى من الموسيقى كانت فرصة مناسبة لأشرح لهم ما أنا في صدد فعله:

«هذه المصاحبة هي نوع من الكتابة الموسيقية تتحاور فيها أصوات داخلية. هذا ما علّمني إياه معلّمي وسرت على تعاليمه ويقيني أن الموسيقى هي رديف الفكر الإنساني. فمهما فعلت فيكم من حنين وأحاسيس قوية، اعلموا أنها ليست سحراً أو تنويماً مغنطيسياً يضل الإنسان في متاهاته، بل هي فكر وتأمل».

ما لم يكن طلابي في السجن على علم به، هو أني في زمن ما من حياتي، كانت لي أيضاً تجربتي المريرة في السجون، ولياليها الطويلة. وعلى غرار نزلائها، نلت ما لم أقو على تجنبه من تلف ودمار. فلعل هذه الوديعة المختومة بالشمع الأحمر في نفسي هي التي أرست هذه العلاقة الودية معهم، ما جعل التجاوب مع الموسيقى أشف وأكثر طراوة، والطبيعة المرصودة للمناورات والشغب، أكثر هدوءاً، لا سيما حين أبدأ الدرس بمقطوعة عذبة تحوّل طاقاتهم المكبوتة إلى سفر في الخيال. بعدها أطّلع على ما حققه كل منهم على آلته. أستمع، أصحح، وفي آن أحلل ما في النفس المضطربة من أعباء وأخطاء اقترفت، أسمعها تهدر غضباً لدى عامر، وأنيناً لدى جمال في تكراره مرات العبارة ذاتها. كنت ألمحه ينزل القوس عن الوتر بإعياء، شاكياً من وجع في مفاصله، ودوار في رأسه. أوجاع حسن كانت مختلفة، مرسومة على جبينه

المفلوح بأثلام العمر قبل أوانها.

في قرارة نفسي كان رهاني الأكبر على ماجد وغسان اللذين أبديا منذ اللحظة الأولى التي بدأنا فيها الدروس، اندهاشاً بهذه الآلة القادرة رغم صغرها أن توقظ المشاعر الإنسانية وتغسل ما في النفس من زغل.

يوم ائتلف الخماسي وأصبح بوسعه القيام بمعزوفات سهلة من الفولكلور الشائع، مع غض السمع عن النشاز والهفوات التي من الصعب ترويضها، تمنى عليّ حسن أن أقبل انسحابه من الفرقة. في أسارير وجهه المغضن وأصابعه المرتبكة ببعضها قرأت سبباً لهذا الاعتذار. كان بحاجة لأن يكلّمني على انفراد بالرغم من أني لم أكن في هذا المكان سوى بصفتي الموسيقية. فهل كان يحق لي أن أسمع، أو أن أكون كرسي اعتراف لمن وجد فيّ قلباً يغمض عينه عن هفوات الآخرين؟

ما قلته له لم يكن كافياً:

«لست أنا يا حسن من يبت بقرارات كهذه. أنت تعلم أن إيليا الصافي وخدمة لسكان هذا الحبس، أراد الترفيه عنكم بالموسيقى وإخراجكم من كآبة حياتكم بإطلالة على الناس في ذكرى الاستقلال. فإذا كان لديك ما تشكو منه، اذهب وقل له ما في خاطرك، فالموسيقى ليست إلزاما، هي أدب وسلوك وإكسير يعيد الأمل إلى اليائسين...

سمعت صدى أصوات من أمس بعيد يهاجم ذاكرتي وأنا أحاكي حسن. لوهلة شعرت بهذا الغثيان العتيق يعود ليطفو على

حنجرتي، والرؤية مغبشة، يتزاحم فيها نغم كمان حزين، مرتبك، يعلو ويتفشى مع الغثيان، يعيدني إلى هناك، حيث الحكم الصارم عليّ، عزف مستمر حتى الاعتراف بما أنا متهمة به.

في هذا الانخطاف عما كنت فيه منذ هنيهات، تراءى أمامي المشهد، الفظّ، الساخر، المدعوم بجرعات همجية من زجاجة الفودكا، تحرّض محتسيها على اقتراف أبشع الآثام في حق الوتر، يبلبل رسالته بتلك القهقهات الماجنة، ويأمرني بأن أواصل ما يريد الأستماع إليه بالسرعة التي تروق لسكره.

صوت حسن أعادني من هذا الجحيم الذي ما برح يدعوني إليه في مناماتي، أما الآن وقد قادني القدر لأن أعيش ساعة في الأسبوع مع المساجين، أصبح جحيمي في صحواتي، يتنقل معي لا سيما وأنا أقرأ على جبين حسن، والكمان تحت إبطه، مرسالاً عاجلاً يود إبلاغه لي دون سواي:

«أستاذة مايا، بل أريد أن أكلّمك أنت. أراك متجهّمة وفي نظراتك خوف وارتياب. دعيني أشرح لك سبب قراري هذا. لكل سجين الحق في أن يكون له صديق يزوره ويسأل عنه. فلعلّي لمست لديك حزناً يشبه حزني، ومأساة أسمع صراخها وأنت تروحين وتجيئين بالقوس على الأوتار. لكمانك حكاية طويلة، تذرف فينا ألماً وتطلب مني أنا شخصياً المستحيل. الحكايات مفصّلة على قياس كل منا. فبقدر ما تكون معجونة بالمآسي، يغدو البوح بها صعباً. لقد حاولت بكل ما لديّ من إيمان في رسالتك أن أداوي ما اقترفته بالأمس وأنا أتلقّن منك السبيل إلى مطهر الموسيقى، لكنني بعد الاختبار وجدت نفسي غير جدير بهذا المطهر. فأنا قاتل. لذا أطلب منك أن تترأفي بي وتتوسطي لدى إيليا الصافي

كي يعفني من هذا العقاب».

في هذه المسايرة التي شاءها حسن على انفراد، استباح ما في داخلي من حكايات. لقد كان على حق حين قال إن لكل إنسان حكاية ومأساة. كشحت الغمامة السوداء التي وقفت على جبيني لأسيطر مجدداً على الموقف. قلت:

«وهل ثمة من عقاب نقوم به بجلونا الحداد المكسوة به قلوبكم؟ بين الزملاء الذين اختاروا الكمان وكان بإمكان كل منكم تبنّي آلة أخرى أكثر زهواً وإيقاعاً، كنت يا حسن الأكثر تفاعلاً مع القوس. فبمدة قصيرة رأيت أصابعك تتنقل من خانة إلى أخرى دون أن تتعثّر بالخط النغمي وكأنك في زمن ما كان الكمان أليفك. رأيتك أيضاً تغمض عينيك كضرير يرى في عتمة إعاقته دربه الصحيحة إلى الموسيقى، وتطلب مني الآن إعفاء. أنا لست قارئة غيب ولكن قد يكون السبب، أبعد في الزمن من وضعك، سجيناً، لم يكتشف في الكمان من جدوى لوجوده البائس».

هل كان في كلامي هذا ما يفتح جراحاً قديمة؟ رأيت حسن يرتجف كعصفور مجرّد من ريشه. بدت لي نظراته تخرق أسوار السجن وتجني مرارة من أمكنة ملبّدة بالشحتار.

قال، ولم يكن مضى على رجوعي من سجني الروسي سوى دقائق:

«اسمعي، والبوح لك وحدك أنت. أنا في هذا السجن مؤبد تحت عنوان رهيب: قاتل. أجل أنا اقترفت جريمة لا تغتفر، بقتل زوج أمي. الكل يعرف ذلك والمحكمة الجنائية حكمت على عنقي

بالإعدام، إلى أن خفّض الموت السريع بموت بطيء. سبب إقدامي على هذه الجريمة ظل مستتراً، جمراً مؤجّجاً تحت رماد كثيف، مكتوماً أمام الديّانين، بناء على الوعد الذي أقسمته لأمي. فلو أجهرت يومها بحقيقة ما جرى، لما كنت أقاسي اليوم السجن المؤبد، بل مسرّحاً، يدل علي الناس كمصلح للفساد والرذيلة.

«سكتت أمي عن الفعل الشنيع الذي اقترفه زوجها العجوز في ابنتها الضريرة، حتى لا تلوّث سمعته في قبره. وبناء على توسّلاتها ضحيت بحياتي متساوياً بقدر أختي عفاف، فيما أمي ترتع بأموال هذا المجرم، دون محاسبة من ضميرها».

سألته: «كم مضى من الزمن على هذه المأساة؟».

«عشرون عاماً، ربما أكثر، ربما أقل، فمن يعش داخل السجون، يخرج من روزنامة الوقت. أمي لم تأت مرة لزيارتي، كأنها بابتعادها عني تكفّر عن خجلها، كأن حرمانها من زوجها الذي مدّها باليسر بعدما ذاقت الحرمان وطعم الفقر مع والدي، جعلها تدفن ضميرها تحت طبقات من جفاف القلب. في المحكمة، ما زلت أسمع صرختها المدويّة: «هوذا القاتل!» لم يلتفت قلبها في تلك اللحظة إلى ابنتها الضريرة».

خطوة تلو أخرى دخل حسن في حكايته المذهلة، يصبّها في بئري المرصودة لاحتواء المآسي. حولنا كان الصمت إطاراً لهذه التراجيديا المريعة. فجأة أخذ كفي بين يديه كمستعط يطلب حسنة وراح يسكب فيها شلالاً من بكاء كان محصوراً في جفاف جسمه فانفرج.

«مرّة أخرى أطلب منك أن ترفّهي عن السمع بالقلب والروح، لأن ما أنا في صدد قوله، هو بمثابة اعتراف كنت قطعت لأمي الظالمة عهداً بكتمانه. هي قصة عائلة فقيرة من أب وأم وأولاد، نسيت الآن كم كان عددهم. المصيبة ضربت البيت بولادة عفاف كفيفة. كان على كل منا مؤازرتها لتشب بيننا باعتدال لا يفرّقها عن أخوتها شيء.

«والدي كان أكثر من أمي رعاية لطفلته. يصغي إلى نبضات قلبها، إلى تحوّلات جسمها، من طفلة إلى صبيةّ حتى إذا التقط الخيط النوراني المشع في داخلها، راح يوجّه مواهبها في حرَف تجعل منها مواطنة مفيدة لمجتمعها. في مؤسسة المكفوفين تعلّمت حياكة البسط. من ظلمتها توصّلت إلى تنسيق الألوان وتشابك الخيوط، ما لفت اهتمام جمعية الإنعاش الاجتماعي بها وتأمين الدعم لها لكي تحصل على نول خاص بها أسّست عليه فورا حياتها كإنسانة متحرّرة من أي دعم خارجي لها. كنت ألمح وراء نظرها الفارغ، روحاً ترى الدنيا بكامل روعتها، فالنول اعتبرته مكافأة على صراعها للّيل الذي بليت به. ذاع صيتها في البلدة والجوار وتكاثرت عليها الطلبات حتى بتنا في البيت معاونين لها، نتعلّم منها حياكة المسدى المزدان بالرسوم والدبج والتوشية والتطريز فوق الخيوط المنسوجة.

«ذات يوم وجدها والدي في حالة انخطاف تلاعب بأصابعها الخيوط الجاهزة على النول. حين انتبهت إلى وجوده، بادرته بقولها:

«اسمع يا أبي. إني أعزف موسيقاي على النول. الخيوط أوتاري».

«آه كم كان أبي عطوفاً عليها، مصغياً رغم فقره إلى مواهبها حتى لا تمحوها عتمة ليلها الطويل. فهل كان يشعر في قرارة نفسه، بذنب اقترفه في إنجابها ضريرة؟ بعد هذا المشهد أخذها إلى المدينة وأدخلها مدرسة الموسيقى للمكفوفين، ومن الأرباح التي كان شغل النول يؤمنه لها ابتاع لها كمانا، لم يطل به الوقت حتى أضحى أليف وحدتها، والأنغام العذبة تعلو من أصابعها كأن صوت الله دخل في أوتارها، كما الألوان التي كانت تتحسسها في حياكة بسطها. لعل ما توصّلت إليه عفاف من ابتكار وعطاء كان تعزية لهذا الوالد الحنون. فرحته بابنته لم تدم طويلاً. موته المفاجىء في الورشة التي يعمل فيها سلب عفاف الأب الحنون والداعم مواهبها. النول والكمان أنقذاها من اليأس.

«أما أمي فلم يدم حدادها على والدي سوى أشهر قليلة، إذ جاء من يعيد إليها صبا الشباب، وينتقم لها من العوز الذي اختبرت آفاته في بيت أبي. أبو براهيم كان مغترباً قضى حياته في أفريقيا حتى إذا جمع من تجارة الحبوب ثروة، عاد إلى بلدته حرّاً بعد ترمّله، يبحث عن زوجة تشاركه ما تبقى له من سنين العمر. أمي الأرملة كانت طلبه، امرأة في ريعان الأربعينيات، عرفت بأنانيتها أن تصون جاذبيتها وأن تسد أذنيها عن أقاويل البلدة وثرثرات نسائها.

«بزواجها من أبو براهيم وانتقالها إلى بيته، خلعت أمّنا أسمهان اللون الأسود الحدادي إلى غير رجعة وصارت تتمختر في القرية بألوان مفرقعة، وحلى برّاقة، سرت شائعة بأنها حلى الزوجة المتوفاة بحمى التيفوئيد.

«كانت بين الفينة والفينة تأتي لزيارتنا حاملة إلينا أصناف المأكولات والحلوى، وفي غياباتها الطويلة،كان زوجها البديل عنها. وغالباً ما

كان في زياراته لنا يتربع على الأرض بجانب عفاف، يسايرها ويتفرّج على سرعتها الهائلة في حبك الخيوط وتنسيق الألوان، ثم يضع قيمة من المال على المنضدة ويعود أدراجه.

«إلى ذلك اليوم الذي وقعت فيه الكارثة. عند دخولي إلى البيت سمعت أنيناً آتياً من غرفة عفاف. أذكر أننا في ذلك اليوم تركنا البيت أنا وأخوتي باكراً، كل إلى عمله، وعفاف في البيت وحدها مع نولها وكمانها.

«المشهد الذي ارتسم أمامي أشعل في رأسي مسّاً من الجنون. كانت عفاف مقوقعة على ذاتها، ممزقة الثياب، وبين فخذيها سيل من الدماء، تفشى على البساط واختلط بألوانه. كلمة واحدة تمتمتها بعياء حين حملتها بين ذراعي وخرجت من البيت أصرخ طالباً النجدة» .أبو براهيم دنّسني».

التقرير الطبي كشف عن جريمة اغتصاب شرسة مزقت أحشاءها شر تمزيق. بدأت التحريات تبحث عن الفاعل والفاعل ظل مكتوم الهوية في القرية، والشائعات تروّج قصصاً من الخيال، من دون أن تلتفت الألسن إلى أبي براهيم، الرجل الوقور، السخي، الذي مد يده للفقراء والمرضى، وحضن بعطفه أولاد أسمهان. الفرّاعة التي بها شققت جمجمته لم تورّط أخلاقه المترفعة عن كل ظن.

«لم أغسل يدي الملوّثتين بدم هذا الكافر، لم ألذ بالفرار، قبضت على نفسي وسلّمتها للعدالة، معترفا بأني أقدمت على هذه الجريمة بدافع الغيرة من رجل أغرى أمي بالحلى واليسر وأبعدها عن ابنتها الكفيفة. فلو كانت معها لما كان حدث لها ما حدث.

«بعد أيام من النزاع توفيت عفاف متأثرة من نزف شديد في أحشائها ورضوض في جمجمتها.

«بانتظار مصيري الأسود، كانت البلدة رجالاً ونساء تشيّع أبو براهيم رجل الخير والإحسان، بالخطابات اللائقة بمآثره، فيما ووريت عفاف في الثرى بصمت حزين كما عاشت في الظلمة وأنارتها بضوئها الداخلي».

هل يولد المرء حاملاً من رحم أمه كتاب حياته بفصولها وأحداثها الصغيرة والكبيرة؟

هل الإنسان ملزم بما خطّه له القدر ولا يقوى على التحرّر منه؟

كانت هي الجلسة السابعة في عيادة زياد مرجي. بانت لي الكنبة المنخسفة في وسطها وكأنها اتخذت حجم أوجاعي النفسية والجسدية. في هذا الوضع الأفقي كنت أستمع إلى التشابكات الصارخة بين الباطن والوعي، مشاهدة أمام حلبة مصارعة بين متصارعين شرسين.

تنبهت إلى صوته يدعوني للكلام، فيما كنت أتلقى صمته خلال الجلسة، رنيناً يحاكيني، يتجاوب مع مراحل من طفولتي ومراهقتي، يشق لي دروباً متعرّجة، أعبرها بصعوبة ولا أصل. فالخيط مبتور

بين الوالد وبيني، هش إلى ساعة الفراق. وتتلعثم الكلمات حين أقرع باب أمي الذي أوصدته في وجهي كأني حدث خاطىء في رحمها. هنا كنت أشعر بتدخل المخيّلة في سردي، عنصراً لا بد منه للتفوّق على الواقع أو ربما لتشييد توازن في هذا البنيان العائلي الذي زعزعه رحيل ميرا. وكنت أعزو هذا العداء إلى غياب الإيمان في هذه العائلة. فوالدي أرسى قناعات مناهضة للدين، يناقش بها في كل مكان، معتبراً أن الديانات وجدت لتفرّق لا لتجمع، لتحدث الثورات والحروب والانشقاقات، لا لسلام العالم وطمأنينته. ما كنت أتشرّبه منه صغيرة في المدينة، كان ينعكس إيماناً دافئاً حالماً تستلمنا الجدة نسيمة في إجازتنا الصيفية، إذ كانت تعوّض عن الجفاف الإيماني بمسبحتها والبخور المشتعل أمام صور القديسين، وقداس الآحاد الذي كان فرضاً لا جدل فيه ولا تباطؤ.

كنت هناك في ذلك الزمن حين سمعته يسألني:

«في أي سن جاءتك الكتابة كملاذ يقيك قساوة الحياة؟».

قلت وأنا ما زلت في أجواء البلدة وبخور جدتي:

«بعد غياب ميرا. بعد التخلي الشرس الذي أصابني، كان عليّ أن أنقذ نفسي من غرق محتّم. الكلمة كانت في جواري. استعنت بها كحبل امتد إليّ لأتعمشق به وأنجو، فإذا بالكلمة تغدو حياة بكامل معانيها. التحمت بها وما عدنا نفترق. فكما خالتي جنان جعلت من رسائلها الوهمية حديقتها السرية، كذلك صرت أرمي بذور خيالي وأمنياتي في تربة ورقتي، أرويها، أتأنى في عياقتها، أحصدها غلات كاذبة للاستقواء على ضعفي. في عقلي الضرير كنت عازمة على مواجهة القدر ومبارزة نواياه، لا أن أقع في لجج الجنون كما حدث لجنان».

قال:

«وهل نجحت في هذه المبارزة»؟».

جاء جوابي تلقائياً لم يعز تفكيراً وتحليلاً:

«كلا! فالقدر كان دوماً أقوى من آمالي. والكتاب الذي حملته من رحم أمي كان يطوي الصفحة تلو الصفحة، معطياً إياي الوقت لكي أقترف أخطائي، وأنحدر شيئاً فشيئاً إلى عمق امتحاناتي وتجاربي».

كأنه اختصر جلساتي كلها في عبارة واحدة:

«كفّي عن هذا السعي العبثي في أسرار القدر. علاقتك ثنائية بين الأنا الملتزمة بالحياة والأنا المدعوة على مذبح القدر للاعتماد في الكتابة».

«هذه الليلة ستكون ليلتك يا مايا. الرفاق موعودون للتعرّف إلى ضيفتي اللبنانية وجميعهم من الوسط الموسيقي والأدبي والشعري. استعدي لكي تكوني نجمة هذه الليلة، فصديقي يوري مرافنسكي هو في لجنة الامتحانات في المعهد الموسيقي وسيكون المشرف على نتائج الشهادة العليا في شهر حزيران. بتفوّقك يعلو أستاذك معك ويرتفع قدره. لقد راهنت عليك من بين طلابي وسوف لن أخسر الرهان. هذه الليلة أريدك أن تكوني العازفة التي تلهب القلوب والفاتنة بأناقتك وعياقتك».

مرات وأنا في صدد تكرار المقطوعة التي وقع عليها اختيارنا لهذه السهرة، عادت مارينا نتاييف إلى غرفتي، لتشدد على مظهري وحسن هندامي، أمران لم يكونا في النظام الشيوعي الصارم من أولويات الحياة. طلبها المتكرر أثار فيّ تساؤلات مكدّرة، عزوتها

فوراً إلى القلق المزمن المتأهب دوماً للقبض على أسفل معدتي بكلابته.

الأيام التي تمر ببطء في هذه المدينة الضبابية الباردة، كانت تطلب مني العزيمة والقوة لأفوز بما جئت من أجله، تاركة في القرية جدة حنوناً، وخالة هوائية، تجبل الهواء بين أصابعها وتحوكه ضحكاً وسعادة لابنة أختها. لقد كنت فعلا في رعاية هذه المرأة الصارمة في مهنتها، أنهل من مبادئها وتعاليمها درراً لكماني ومن نصائحها القيّمة لي صرت أرتفع إلى الصفوف العليا وأتشرّب أرفع مما يمكن إعطاؤه للطالب ليترقى. ومارينا دوماً إلى جانبي، والدرع الواقي لحياتي في روسيا. ترافقني إلى دروسي الليلية في معهد اللغات والآداب الروسية الجامعة أجانب من جميع بلدان العالم، وفي طريق العودة تأبى إلّا أن نتساير بلغة بوشكين كما كانت تقول، فتصحح الأخطاء التي كنت أقترفها إن في تركيب جملة أو في صياغة فعل، وتنتقد لهجتي المتأثرة باللغة الفرنسية، فتعيدني بها مرات حتى يتركّز اللفظ ويغدو سليماً مغسولاً من أي جسم غريب. حتى صرت وأنا في سريري أغالب النوم، أتسلى بترداد الكلمات ومخارجها الشبيهة بحفيف الأوراق. أو أستعيد صفحات من درامية «النورس» لأنطون تشيخوف، أتحاور بها غيباً مع شخصياتها، فأشعر في عمق نفسي وكأني مدعوّة لأن أكون فرداً من عالمه المسرحي. الحوار الذي كنت أتنقل به من فصل إلى آخر أعاد إلى ذاكرتي الأدوار التي كنا أنا وميرا نؤديها بين سنابل القمح وصوت جنان يعلو من أسطورة ديميتير وكوري كالريح الآتية من البعيد، الفارشة جناحيها لتحملنا إلى بلاد الأولمب.

في غرفتي الروسية كنت أتحوّل إلى «أركادينا» الممثلة المسنّة التي

تعود بعد زمن لتلتقي بعشيقها الكاتب «تريغورين»، لكن نينا الصبية الحالمة بالمسرح، تخطفه منها وتهرب معه. في تبادل الأصوات والأدوار صقلت لغتي ولهجتي، أما على أرصفة لننغراد المسوية، فقد كانت مارينا تلقنني اللغة من فحوى حياتي في وطني، وأنا أجد صعوبة في دمج الهوية بمآسيها وأشجانها بصقيع هذا البلد. كنت أشعر بالكلمات تعرج وأنا أركّبها في فكري قبل أن تولد مع البخار الذي ألفظه من شفتيّ المقزّزتين، وأتوخى الحذر في ما أقوله حتى لا أقع في مطب الطفولة. كنت مع مارينا أتخطى هذه المرحلة المريرة من عمري، فأبدأ تماريني الروسية من ذلك اليوم الذي ولدتني فيه جدتي من قلبها وتبنتني خالتي إثر اغتراب والديّ إلى أوستراليا.

كانت مارينا تحب من الأخبار تفاصيلها. والتفاصيل مفردات أغنت قاموسي الروسي كما وفضول مارينا لمعرفة المزيد عن المعلّمة جنان، المتخصصة في التاريخ وعلم الآثار، وصولاً إلى الموضوع الشائك، إيغور، حيث كانت بأسلوبها الخبيث والمعسول، تتحرى لضبط حقيقة علاقتي به، دون أن تبدي شيئا مما كان يعكّر صفاء رعايتها لي. بل علاقتها بي أدفأت شتائي الروسي رغم طبيعتها الفظّة في تعاملها مع طلابها، وكان ذلك من بديهيات التربية والتعليم من أجل ترسيخ المبادىء في وجدانهم، وحفر حضارة روسيا وعظمتها في عقولهم.

شعرت بسطوتها الكاملة الفارضة تفاوتاً بيني وبينها. أرخيت رسني حتى لا تستثير هذه المواجهة مبادرة جسورة منّي قد تُجلَبُ عنها عواقب وخيمة.

انتظرت أن تتكلم:

«تعرفين أنّك هنا في رعايتي ولولاي لما كنت استطعت الدخول إلى المعهد الموسيقيّ ومعهد اللغات والآداب. لي حقٌّ عليك إذاً في أن أسألك عن نوع العلاقة التي تربطك بمعلّمك. فمنذ إقامتك في لننغراد تكاثرت رسائله على عنواني، سائلاً عنك، عن دروسك، عن تقدمك في العزف، ثم يأتي على ذكر مؤلفاته ويتمنى عليّ أن أقوم بالمساعي العالية، كي تعود إليه قبل وفاته، وكلّه اقتناع بأنّي ما زلت على عهدي له، جندياً، حارساً أعماله، بعد أن فرّ من روسيا وراح يبحث عن بلد يأويه. من أنت أيتها الشابة في حياة إيغور

مانياتوفسكي، تلميذة أم ساحرة أغوت العجوز وأعادت إليه بجسدها صباه؟».

كانت قاسية، ظالمة، والغيرة تنهش صدرها. وقبل أن يأتيني الجواب على حكمها هذا، ساكناً، كما تمنيته في قرارة نفسي، رأيتها وبحركة مباغتة تشق طرفي معطفي كما لو تفتح مصراعي باب، بيديها المرتجفتين وتتفرس في تقاسيم جسمي كمن يقرأ خارطة للاستدلال على طريقه. شعرت بالدم الذي كان منذ هنيهات يخفق بجنون في شراييني وقد تحوّل إلى ملح صلب. لم آت بحركة. وهل كان بوسعي وأنا محاصرة بهلوساتها وكلاّبتها أن أنقذ نفسي من جحيمها؟

باقترابها أكثر، صعقني لهاثها المخمور بالفودكا. كانت ثملة لا تعي ما تقترفه يداها، وتعابير وجهي تقول اشمئزازي عالياً بلا تخفٍّ. وحين بتّ أمامها عارية من ستري، تحوّل غضبها إلى ما يشبه النباح، تطلب منّي أن أصف مجون إيغور بحذافيره.

«جسم كهذا يجعل القدّيسين يخطئون. إيغور ليس بقدّيس، فما زال طعم عشقه في مسامي، ينقّب في اللذة ويجرعها كاملة. قولي أيّتها الغاوية في لباس الطالبة، ماذا فعل بك حتّى قبلت بمشروع كهذا لن يجلب لك سوى الويلات؟ قولي، لماذا أنت صامتة؟ كيف استدرجته إلى أنوثتك؟ وهل خرجت سالمة من بين ذراعيه وقد جعل منك دميةً يتلاعب بها حسب مصالحه كما فعل بي؟».

سمعت صوتها ينوص شيئاً فشيئاً كقنديل شحّ زيته، وهي متكمّشة بي لا تحيد عنّي إفلاتاً. قلت قبل أن تفاجئني بهبة غضب أخرى:

«كم أنا آسفة على ما يجري بيننا. لقد هدّمت بلحظة ما بنيته فيّ على مدار عام. اسمعي رفيقة مارينا، هذا الرجل، إيغور الذي تتهمينه بالمجون لأنه أحبّك ذات زمن بجنون، أتى إلى بلدي لاجئاً، لا متسولاً، حتّى استطاع بحفنة وقت أن يثبت مقدرته في تعليم الموسيقى في معهد كان بحاجة إلى معلّمين قديرين. كان مضى على وجوده في هذا المعهد أكثر من عشرين عاماً عندما دخلته، وسِمْعَتُه تملأ المكان، زاهداً بالحياة، متنسّكاً في بيته الجبليّ للتأليف، وفي المعهد متفانياً لخلق بذور جيدة من شأنها أن تعطي أفضل العازفين. كانت مراعاته لي خاصّة بعد أن علم من خالتي بفراق والديّ عنّي وهجرتهما إلى أوستراليا. صار أكثر من أب، المعلّم والكاهن الذي يحلو الاعتراف في كرسيه. هكذا مع الوقت فتح لي قلبه وأخبرني عنك وعن حبّه لك الذي لا يموت. ويوم شجّعني على السفر أنا الخائفة من الابتعاد عن جدّتي، أكّد لي بأنّي سأكون في حمى الحبيبة مارينا فالرسائل بينكما لا غبش عليها، ولهفتك لاستقبالي تجسدت على أرض المطار.

ما إن ختمت خطابي المتأنّي في كل كلمة علّي أروّض وحش الغيرة الذي أغارته عليّ، حتّى رأيت الطريدة تفلت من يدي صيادها ليغدو في ما بيننا ما يشبه المواجهة. كان لهاثها الكريه ينضح في وجهي وهي تردد:

«كاذبة، أنت كاذبة يا مايا وإلا لما جئت تنقّبين عن إرث ما عاد من زمان يحمل ختم معلّمك الفار. هل تظنيني لم أتحرّ عن الخريطة البائسة التي صوّرها لك في نيّة استفقاد بلدته والبيت ومدفن العائلة؟ وهل يظن معلّمك العبقري أننا هنا بعد كل ما عاناه الشعب الروسيّ لاسترجاع استقلاله، أغبياء، محسنون نمدّ يد

العون إلى كل فار وخائن ولاجىء؟ لقد وقعت في فخ إيغور مانياتوفسكي حبّاً به؟ أما هو الحالم الذي طمح في شبابه أن يزور الشرق ويستوحي من شموسه موسيقاه فقد رأى الشرق كلّه في تكاوينك، في شعرك القاتم، في بشرتك الخمرية، في جسدك الذي ينادي كلّ عطشان... أما هي الحقيقة، قولي؟».

خشيت أن تكون قرأت ما في نفسي من حبّ لمعلّمي. خشيت فيما لو مرّت بأصابعها الشيطانية على مسامي أن تلتقط الذبذبات التي كانت يده تفعلها فيّ وهو منكبّ على معصمي يليّنه في تسيير القوس على الأوتار. كنت أمامها عارية بالجسد والفكر، أطلب الرحمة.

تذكرت أمّي يمنى في ذلك الصباح المشؤوم، تصرخ وجعها في المسامير التي راحت تدقّها على صليبي، وأنا بين الواقع مع مارينا والذكريات أقران بينهما. من يا تراها الأسوأ والأكثر اشتعالاً أمام المصائب. مصيبة أمي كانت فقدانها لميرا أما مصيبة مارينا ففي ذلك الخواء الذي تركه إيغور بعد رحيله. امرأة انتسبت للحزب كي تستقوي على جوع الجسد.

قلت بعدما أدركت أنّ ليس ثمّة من جدوى في محاكاتها بالمنطق الروي:

«رفيقة مارينا، أشكرك على كل ما صنعته من أجلي. أنا مدينة لك مدى الحياة. أما الآن وبعدما تحوّل الجسر الأليف بيننا إلى ظنون واتهامات، أصبح من الواجب العودة إلى بلدي. أرى روسيا بكاملها، تتابع بعيونها كل حركة أقوم بها».

كنت مستلقية على الكنبة أروي مغامرتي الروسيّة لزياد مرجي، يوم آن الأوان لكي أفتح أبواب جحيمي على مصراعيها فإذا به يتوقف عند هذا المفصل من تجربتي وسألني:

«وبقيت بالرغم مما حدث، سجينة مازوشية راقها منذ الصغر أن تكوني ضحية بين الجلادين؟».

جواز سفري كان في عهدتها. وحياتي المصيرية أيضاً. انتقامها من عشيقها حضّرته بتأنٍّ وتمهل. لقد مجّت إقامتي في دارها وفي المعهد كما تمجّ من قدح الفودكا قطراتها الحارقة. لقد كان بوسعها أن تسهّل مجيء إيغور إلى روسيا بعد غياب، وتنتقم منه بما أعطاها إياه الحزب من ثقة وسطوة، بيد أنّها آثرت إيلامه من خلال تعذيبي وزجّي في أبشع الاتهامات ثمّ في السجون. بهذه «العشيقة» الفرضيّة انتقمت منه، تطال عن بعد ضمير فنان عاش مثله الوطنية والإنسانية بموسيقاه. الغيرة التي نهشت قلبها انطفأت مع انتحار إيغور يوم بعثت إليه برسالة النشوة تعلمه فيها عن مآثر الحزب في تعذيب الجواسيس الذين يطأون أرض روسيا.

مثلما يتغير الصوت عند البلوغ... مثلما يستبدل الطير ريشه بآخر... مثلما يسلخ الثعبان عن بدنه جلده، وينتظر كساءه الجديد، هكذا على مسافة ساعة من الوقت كانت مارينا تستبدل الهجوم الذي أغارته عليّ بالخبث المحلّى بما يشبه الغثيان. عادت إليّ بقناع الراعية الرؤوم.

«هذه ليلتك يا مايا. الرفاق والرفيقات متلهّفون للتعرّف على تلميذتي اللبنانيّة المتفوّقة. استعدي لأن تؤنسي هذه السهرة بموسيقاك»

هذا اللطف الزائد لم يطمئن مخاوفي منها. لقد كنت على شعوري بها، فرداً مدرّباً في معسكر الـ«كا.جي.بي» تفرض الطاعة، جلاداً على ضحيته، دون محاسبة للضمير أو ندم. وأراها في تلك اللحظة وقد أعادت وحش الغيرة والثأر إلى قفصه، لتتزيّا بثوب

الحضارة. سكني الطويل في محاذاة حياتها كشف لي عن شخصية معقّدة، تسيّسها غريزة الاستملاك. لقد كنت شاهدة في بدايات دروسي في المعهد، على الهلع الذي تزرعه في الطلاب وحجّتها أنّها بهذا الأسلوب تشدّ من عزمهم على العطاء الأكبر مؤجّجة فيهم روح المنافسة وأكثر منها تشرّبهم الروح الروسية:

«على كل واحد منكم أأصبح غداً مؤلفاً أم عازفاً أن يرفع راية روسيا عالياً، فكلنا مدعوون لمواصلة ما فتحه تشايكوفسكي وريمسكي كورساكوف، وموسورسكي وبروكوفييف من جسر عبور على العالم». وبالفعل كانت النتائج رغم الضغوط القاسية، باهرة، والمنح المعطاة لمستحقيها تفتح أمامهم رؤى جديدة على موسيقى الحداثة في الغرب، فيتزوّدون منها تحت عين النظام الشيوعي الساهرة.

الطلاب بهمّتهم وإيمانهم بالوطن وحضارته، مكّنوا إيماني بالموسيقى. كنت حين يمسك «سيرغي» ابن الثانية عشرة القوس وينطلق مغمض العينين سابحاً في فولكلور بلده، أشعر بأنّ لي روحاً. لم يكن الكمان في تلك اللحظات الأساس بل الوجه المنحني عليه يستقي منه حياة. ذات يوم، خلال الإجازة التي كانت تعطى لنا بين درسين، سألته عن هذا الشعور الذي يسكنه حين يتكلم مع آلته، قال بتلقائية مدهشة عزوتها إلى التعابير المعلّبة التي يحقنها النظام بالأجيال:

«من لا يضحي بكل غال وثمين لأجل الموسيقى، بدءاً من حياته، لا يستحق أن يكون موسيقياً».

هذه العبارة المحفوظة غيباً من منهج الدروس في المعهد العالي،

يردّدها الطالب كببغاء حفظ أمثولته، صارت شعاري في هذا المناخ الضبابي. سيرغي المفتون ببروكوفييف والحامل اسمه تيمّناً بكاتب موسيقى «روميو وجولييت» علّمني أنّ في الصمود فضيلة مهما قست الأيّام هنا عليّ. لقد كنت باستمرار في هذا الصراع الذاتيّ أسدد ديناً كبيراً للوجود.

بالرغم من هول ما حدث في هذه الغرفة التي كانت مارينا تسمّيها بلؤم، غرفتي، وجدت نفسي ألملم أشلائي تلك التي بعثرتها بنظراتها الداعرة، وأحاول قدر المستطاع أن أكون سوية مع وضعي الشاذ حتى لا تتفاقم الأمور أكثر، ما دمت أسيرة حذائها المنكّل. أمّي يمنى لم تكن أفضل حالاً منها. لقد نبذتني وأحالتني إلى لا شيء، فيما مارينا وأنا أصرخ بكائي عالياً وأطلب العودة إلى بلدي، رفضت طلبي ولم تكن حسب ما كرّرته على مسمعي، شفت غليلها بعد، إذ قالت:

«لن تعودي إلا والشهادة العالية تتوّج إقامتك هنا. هذا مبدأ روسي لن نتغاضى عنه مهما حدث. لقد أحببت فيك يا مايا جهودك، وتحدياتك إزاء الموسيقى واللغة. وفي آن كرهت فيك تلميذة إيغور المغامرة بحياتها ومستقبلها لتنقذ مؤلفات معلّمها. يا له من أبله. لقد زجّك في نظام قاسٍ لا تنطلي عليه الحيل والألاعيب. اعلمي بأنّي لن أنجرّ في لعبة إيغور مهما كانت لي في هذه الغرفة من ذكريات.

لقد خرّب بطيشه وزهوه بنفسه، ما كان مشروعنا الروسيّ على صعيد الموسيقى. لقد قتل حبّي بأنانيته، وأشعل فيّ ثورة الحقد على الرجال حتّى تدربت في نظامهم وصرت منهم».

«ها قد عدت يا ميرا من مسافاتك البعيدة...» ما إن رأتني جنان على عتبة غرفتها حتّى هتفت بصوت جرش، أفقدت المسكّنات والعقاقير ليونته، والجسد المثقل بخطواته يحاول ولا يستطيع أكثر من خطوات مرتجفة. غمرتها كمن يلتقط عصفوراً وقع من عشّه وما عاد يقوى على الطيران. وكأنّي أعدها بالفردوس قلت لها:

«سنخرج معاً ونتنزه كما من قبل. الأطباء لم يجدوا مانعاً في ذلك، فأنت على طريق الشفاء».

نظرت إليّ بعينين تريدان إيضاحاً وقالت:

«أنا بصحة جيّدة يا ميرا، أنتظر أن يفك أسري من هذا الجحيم لأنطلق إلى جزر اليونان حيث حبيبي تيبو. كان الشوق دوماً يناديني إليك فيأتيني صوت كمانك، حزيناً، على وتر مكسور، أو

أني أراك مشعة كالنور وسنبلة القمح تكلل جبينك، فأصرخ للجموع الباحثة عنك: انظروا أترونها هناك عند مصبّ النبع؟ أما وأنت هنا الآن، فارفعي القوس وأطلقي على الوتر ما يدل أورفيوس إلى بيتي».

أيّ عالم هو هذا الذي تهدر فيه جنان صباها؟ أهو المنفى الحقيقيّ للإنسان؟ أهو أرض شتات يهيم فيه التائه ولا يجد اتجاهه؟ كم هو على حقّ زياد مرجي حين يقول إن الإنسان خلق ليعيش بين الناس فإن فصلناه عنهم، إن عزلناه، تفككت أفكاره، وتبلبلت سوداء، كأشواك في أرض قاحلة.

كنت أمامها كشخصيتين من مسرح عبثيّ. أتمرّى في حالها لأرى حقيقتي، معاقاً يتطلع في إعاقة الآخر ويرى فيها انعكاساً لمأساته. لكن الفارق بينها وبيني هو أنّي استمعت إليها حين قالت لي: «كوني صامدة مهما جرى»، ولم أتخاذل حتى أمام الحسابات الصعبة حتى لا أخيّب ظنّها فيّ، فيما مضت هي إلى ما وراء هذا الخيط الرفيع، بين أن تكون او لا تكون. ومضت في فكري عبارة كتبتها جنان على ورقة فرديّة تقول فيها: «نظراتك فيّ تعطيني شعوراً بانّي غائبة عنك». هل دوّنتها بهذه الأحرف المنمنمة قبل رحيل تييو أم بعده؟ على أيّ حال، لقد عبّرت في جملة قصيرة عن استحالة التواصل بين اثنين.

في هذا الانتظار الخرافيّ على محطة، لا قطار يعبر على سكّتها ولا صفّارة إنذار تعلن من البعيد عن قدومه سوى صدى الهذيانات، شعرت بجنون جنان ينتقل إليّ كلما جئت لزيارتها. وهل كنت سأتغافل عن مجيئي إليها لو لم أكن جزءاً من مصابها؟

تراءت أمام عينيّ جدتي نسيمة، تهز بذراعيها القويتين أغصان شجرة الخوخ الهرمة، لتسقط الذابل من ثمارها وما أشبع فيها العصفور نقداً. هكذا أمسكتُ بكتفي جنان والحنق يزمجر في داخلي ورحت أهزّها، شجرة عششت في أغصانها طيور خرافيّة سوداء، وأنا أتوسّل إليها لكي تعود جنيّة أحلامي من جديد، والكتف التي امتدت إلى رأسي المتعب فراشاً وثيراً:

«إنسي ميرا فأنا مايا، إنسي سيتارة أورفيوس فكماني عاش جحيم أوريديس وبكى على وتره المكسور. استفيقي يا جنان كي نعوّض ولو ذرة عما ضاع وتاه في غربتنا».

كلمات نابعة من هذا الجرح النازف أبداً، جعلتها تبحر في عالم غامض لا مكان لي فيه وتقول بعدما هدأت عاصفتي:

«يجب أن تقبلي بالمستحيل، لقد تعوّدت منذ زمن على أن أكون ميّتة. جنوني صفح لحبّي الكبير. ومن يُصب بالجنون، فهو ميّت لا محالة».

هذه الفرجة في فكرها المقفل على الدنيا جعلتني، مع الدهشة، آمل خيراً. قلت.

«نحن ندفع ثمن خطايانا غالياً. فلعل الشيء الوحيد الذي باستطاعته أن يغفر أخطاءنا وجنوننا هو الحبّ. باستطاعتنا أنا وأنت، فيما لو نزعنا كمخة اليأس عن نفوسنا أن نعمّم الحبّ على الدنيا. تعالي لقد وعدتك هذا الصباح بنزهة ستروق لك».

كمحارة شعرت بجسم غريب يتسلّل إلى داخلها، أقفلت جنان

صدفتها بسدّ هلوساتها المنيعة، وتركت بحر جنونها يتقاذفها في مدّه اللطيف وجزره الغاضب.

التقرير الشفهي الذي قدمته للطبيب المعالج بعد زيارتي الفاشلة لجنان، اعتبره تدخلاً مضراً في العلاج الذي يتبعونه لتسكين هلوساتها:

«بمجيئك إليها بهذا الأسلوب كنت كمن يوقظ نائماً سليماً حان له الوقت أن يصحو، تبلبلين عالماً مضطرباً من أساسه. أنصحك بأن تواصلي جلساتك مع طبيبك النفسيّ وانسي خالتك الآن. هي مختلفة عنك، هشّة، لم تتحمل انهيار البيت وموت أمّها تحت أنقاضه، فيما كنت أنت كما علمت منك في سجون روسيا تدفعين ثمن ذنوب معلّمك، اضطهاداً وعذاباً، وخلصت قوية، شجاعة، تحرّكين مياه الحرب العكرة بقلمك».

قلت وحسبي أني على صواب في ما أخطّطه لجنان ولي:

«لقد كان ظنّي دوماً أنّ الداء لا يقاوم سوى بالداء. لقد تطوّعت معلّمة موسيقى للمساجين حالما وضع المعهد الموسيقيّ الوطني في سجن الرجال حجر الأساس ويقيني أنّي بملامستي هذا العالم من جديد سأبرأ من الشياطين الساكنة فيّ».

أراد أن يستعلم أكثر، وأنا أفيه بما توصلت إليه الموسيقى من نتائج حسنة على نفسية السجين وتلطيف الثورة المنتفضة فيه في كل مناسبة.

قلت ذلك وفكري يرحل إلى هناك حيث كان لموسيقاي في

السجن مفعول آخر، حرّك الوحش وغرائزه الجنسيّة وترك وشماً محفوراً في نفسي، في جلدي، يمنع النسيان عن الذاكرة.

لا شعورياً رأيت يدي ترتفع وتكشح من أمام عيني منظراً عبر بكل ما للبشاعة من معنى. طفر الدم في وجنتي خجلاً، وتابعت حديثي مع الطبيب للتمويه عن هذا الدبيب الذي سمعته يدوّي في أحشائي:

«في هذا النهار من ذكرى الاستقلال والسجن في عيد مع مساجين صارت لهم أوركستراهم وقائدهم، تمنيت لو قبلت خالتي جنان أن ترافقني وفي بالي أنه قد تأتيها صدمة الشفاء في هذا المكان المتطرّف بنزلائه، بالخطايا الظاهرة والمخفيّة التي تلبسهم، بالصخب الذي تحدثه موسيقاهم..

وقبل أن أكمّل لائحتي رأيته ينهض عن كرسيه وذراعاه مرتفعتان استهوالاً لما سمع ويصرخ:

«بربّك آنستي، كفّي عن هذا التطفل في حياة إنسانة باتت لا تطلب سوى السفر في هلوساتها. فلندعها على مركبها مع بحّارها اليونانيّ تارة وفي جحيم أوريديس تارة أخرى. اسمحي لي أن أكون صريحاً معك: جنونك أخطر شأناً من جنون جنان لأنه حرّ لا يحدّه مسكّن ولا منطق.» ثم بابتسامة أرادها اعتذاراً لما قاله، اقترب منّي وطبع على جبيني قبلة أخوية وكلمة وداع:

«أنت جبّارة تليق بك الحياة».

كان حسن في استقبالي على باب أسوار السجن. بحركة عفوية أخذ الكمان عن كتفي ومضى بجانبي متعب الخطوات، لا ينبس بكلمة، إلى أن وصلنا إلى البهو الكبير حيث كان المساجين يضعون اللمسات الأخيرة للعيد، وهم في غاية الابتهاج. فهذا اليوم المصادف في ذكرى الاستقلال، هو يومهم. والأيادي المكبّلة بالسلاسل ستمسك بالآلات الموسيقيّة وتتحرر. هكذا بدا لي الجو في غاية التفاؤل. فيما حسن المطأطئ الرأس كان بعيداً عمّا يحمله هذا العيد من أضواء تعيد للسجين شيئاً من اعتباره. رفع رأسه حين أتاه سؤالي عمّا يشغل فكره ويكدّر يومه هذا وتطلّع عالياً وقال:

«انظري معلّمتي إلى قمّة شجرة الكينا، هذا الطير يعود دوماً من أسفاره ويحطّ هنا على الأغصان العالية غير آبه للعواصف والأمطار وشموس الصيف، حتى بتّ في انتظاره، لأطمئن. لا أدري كم

من الوقت يدوم سكنه بين أوراق الكينا لكن ما أعرفه هو أنّه يطلق شدواً حزيناً قبل أن يجهّز جناحيه للرحيل».

تأمّلت هنيهة في تكاوين هذا الرجل الذي قفز فوق نهر الشباب ولم يدر أنه في القاطع الآخر منه، وكمن يشجّع طفلاً على إبراز مواهبه قلت:

«في خيالك يا حسن صور جميلة تستحق أن تدوّن في دفتر. فما رأيك لو حوّلت قنوات السجين الموحلة إلى مياه من الشعر والخواطر؟».

ارتسمت ابتسامة ساخرة على وجهه المسنّ قبل أوانه وقال:

«ما رأيك لو أتطهّر أولاً من جريمتي لكي أستحقّ الكتابة».

هذا القاتل الذي فجّ رأس زوج أمّه بفرّاعة، كان أمامي يتكلّم بفصاحة الفلاسفة، وأحاسيس الشعراء:

«بالرغم مما اقترفته، ما زالت الأحاسيس فيك نابضة، وعلاقتك بالطير الساكن قمّة شجرة الكينا طاهرة، تحسده على حريته».

لم تكن كلماتي هذه موضوعة على خط أفكاره الصحيح. رأيته بيده يكشح لاشعورياً ما عنيته من حسده للطير على حريته وأجاب:

«لا! لا! أنا لا أحسد الطير على حريته بل أردتك أن تقارني بين الله الذي أحبّ الطير فخلق له شجرة وبين الإنسان الذي أحبّ الطير فخلق له قفصاً. لقد جئت إليك لأقول لك إنّه في مثل هذا

اليوم ولدت عفاف أختي الكفيفة، التي ظلمتها الحياة منذ ولادتها حتى موتها المفجع. ليتني الآن مثل سائر الرفاق أفرقع طرباً بهذا العيد وكأن القدر عاد فجأة عن قراره ليمنحنا جناح طير نعلو به ونحلّق. العيد هو للأحرار، للطير الذي رزقه الخالق شجرة يأوى فيها ساعة يشاء ويطير عنها لحظة يناديه الكون، لا للبؤساء أمثالنا الحالمين بحرّية لم نعد نعرف فيما لو أعطيت لنا، على أيّ كتف نحملها».

كنت تحت تأثير أقوال هذا الرجل، العفوي في تصوير الكون دون مجهود، المكبّل بالجسد لا بالقول. كأن لقائي به في هذه اللحظة كان له بعد آخر ونوايا استحقاقية أخرى. هو جاء خاصّة ليعتذر عن عزوفه عن المشاركة وليطلب منّي تأكيداً على ثقتي به:

«معلّمتي، لقد كسرت توازن الفرقة في خروجي من الصف وأنت تتكبّدين كل التعب من أجل أن تكوّني خماسياً عازفاً لهذه الأمسية».

أجبته مصممة على أن أريح ضميره المعذب:

«لا تقلق يا حسن. لقد ضبطت هذا الأمر حتى لا يكون ثمة فراغ في المقطوعة التي كتبتها لهذه المناسبة. سوف أقوم أنا بالكمان الضائع وأكون بين رفاق السجن فرداً على مثالهم، تائقاً إلى الحرّية التي يتوقونِ إليها».

أعاد إليّ كماني ونظراته سابحة في شجرة الكينا وقال فيما أهمّ في الانصراف:

«من ظلْم القدر، الموانع الاجتماعية والثقافية والبيئية التي ينصبها في حياة أناس كان ربما كلّ شيء معداً بينهم للانسجام والتفاهم، حتى لا يلتقوا».

امتنعت عن التعليق على هذا البوح المبطّن حتى لا أخمش مشاعره. كنت صرت على بعد أمتار منه حين سمعت خطواته المسرعة تقترب منّي حتّى إذا صار في محاذاتي قال:

«لديّ شيء هام أود قوله في هذه المناسبة. أفيستطيع العازف الفاشل أن يعوّض عن فشله بكلمات أمام الجموع الرسميّة والإعلاميّة التي ستحضر الحفل؟ أتوسّل إليك أن تطلبي من مدير السجن أن يسمح لي بذلك».

لم يبد إيليا الصافي، حين حملت إليه رسالة حسن، تعجباً بل قال:

«ربما يريد أن يلقي قصيدة في هذه المناسبة وما أكثر الشعراء الذين نبتوا فجأة وقدّموا طلباتهم إلى مديرية السجن، ليقولوا بالقافية والزجل والشعر الشعبيّ المغنّى ما يجول في نفوسهم. فليكن حسن من بينهم».

بالرغم من التدابير الأمنية المشدّدة في ذلك اليوم، بدا السجن بحلّة العيد. المساجين اعتبروه يومهم، والشخصيات الديبلوماسية والعسكرية والإعلاميون المدعوون للحفلة الموسيقيّة، ضيوفهم.

المشاهد التي بدأت تمرّ تباعاً أمام الحضور كانت لها معانيها الانسانية. إيليا الصافي الذي نذر علومه الموسيقيّة وأبحاثه في سبيل معالجة أورام المجتمع وعاهاته بالموسيقى، أداء وسمعاً، كان هو من

تولّى إخراج هذه المناسبة، بما يملكه من مؤثرات لافتة. ففيما كان يؤهِّل بالحضور ويشرح أهمية الموسيقى الحرّة من القيود في أن تكون هذه الليلة بين أيدي سجناء مقيّدين بالجنحة التي ارتكبوها، لا لتبرّىء ذنوبهم بقدر ما قد تفعله في نفوسهم العطشى الى الحبّ والحنان والحلم بالحرّية، بدأ الموسيقيون يدخلون في صفّ منتظم حاملين العلم اللبناني. لقد كانوا في تلك اللحظة في تحوّل رهيب من محكومين بالموت أو بالسجن المؤبّد إلى نجوم مضيئة على هذه القاعة. بينهم وبين الفرقة الموسيقية للأمن الداخلي، إشارة أعطاها الصافي لتنطلق أصواتهم الحماسيّة تنافس إيقاع الآلات النحاسية، في هذا النشيد الوطنيّ الذي رحل بهم خارج أسوار السجن، وجعلهم يعيشون الحرّية بخيال لم يمسسه صدأ السجون القارض.

لا بدّ لمن سمعهم في ذلك اليوم وقد أطلقوا العنان لأصواتهم ودفوفهم وناياتهم أن يدرك أنّ الحياة مركّبة من أوهام، من بينها تلك التي تفوز لتغدو حقيقة. بين أيديهم جنّت الآلات أشبه بمراسيل تودّد وغفران. فعلى مدى شهور دأبوا على التفاهم مع الآلة وحفظوا تقنياتها حتّى إذا استوطنوا في عالمها نمت علاقة حبّ واحترام بينهم وبينها.

كنّا من المعهد الموسيقيّ مواظبين على مهمة خارقة سمحت لنا الانخراط في هذا العالم المقفل الذي دخلت إليه الموسيقى شرياناً حيوياً يحرّك السراب الجامد ويعيد إليه بريقه.

وكنت الوحيدة بين زملائي المتطوعين، الحاملة كيّ السجون وشماً لا يزول، والأكثر انصهاراً في وجعهم، في أوبئتهم النفسيّة والجسديّة. لذا كان وقوفي فرداً في هذا الخماسيّ الوتريّ مع

كماني، أمراً وجدته طبيعياً فيما القاعة رأت فيه استهجاناً علا على أثره التصفيق الحاد. فهل ثمّة من قرأ في تلك اللحظات، وأنا اتحدّى ما في نفسي من جرأة بأنّ هذا الكمان أوقع بي ذات زمن في لجج الجحيم وأعاد انبعاثي لأحيا به.

ما أقسى الذاكرة حين تبلبل ثواني الحاضر السعيدة وتزجّ بينها عقارب سوداء من أمس بعيد! بتلك المازوشية التي أصابها زياد مرجي في، ملأت فراغ الكمان الغائب، بي، وكأنّ انفصاماً حدث بين الضوء البارز أمام الحضور والظلال التي كانت تتمطى على أوتاري وتشدّ هذا النغم الحنون في مفترقي طرق: أغنيتنا أنا وميرا وحسبي أنّي في وضعها على قائمة البرنامج أقول لميرا: كفّي بعد اليوم عن تعذيبي، والمفترق الآخر الماثل دوماً في كلّ ذرة من كياني... هناك، حيث للسجن عفنه الخاصّ الممزوج بلهاث الفودكا والقهقهات الثملة.

رياحي الهوجاء كانت لها سدودها تقرض من داخلي نسرات ولا تشي عالياً. كان الهدوء مرتسماً على وجهي وأنا أتلقّى التهاني مع رفاقي، حتّى إذا عدت إلى مقعدي، سنحت لنفسي المضطربة فرصة الجلوس معها وتهدئة خاطرها، فيما الفصل الثاني من الاحتفال كان عن «باقات من الشعر، مقطوفة من حدائق فرسان شجعان، أجّج القيد قريحتهم الشعرية وزادهم خيالاً. في كلّ قصيدة ستستمعون إليها صرخة حنين وشوق إلى الحرّية تجسّد ما قاله الشاعر: قصيدتي عصفور يود التحرر من قفص الكتاب» قال عرّيف الحفلة ولم يبالغ. فمن بين الذين قالوا الشعر ارتجالاً أو مدوّناً على ورقة برزت أبيات جميلة باستعاراتها ومرونة قوافيها دلّت على مواهب شعريّة أولدها هذا المكان المقفل على شروق الشمس ومغيبها.

وكعصفور سقط سهواً من عشّه دخل حسن وانتظر هنيهات كعازف منفرد يترقّب الإشارة الأولى من قائد الأوركسترا ليستهل معزوفته. خلته سيرتجل كلمة فإذا بغناء ملحميّ حزين ينطلق من جوف رجل عتّقه الزمن وجعل من تجاربه المريرة شاعراً متزهداً بالدنيا يطلب الرحمة والغفران.

عمّ سكوت عميق في القاعة، وحسن السجين يلوي في هذه السيرة الملحمية قضبان السجن ويهيم بين دروب الماضي، راوياً حكاية عفاف الكفيفة والنول والكمان، وفي كلّ بيت تطل خيوط من ذلك النسيج الذي وحدها عفاف كانت تلبّق ألوانه من هذه الملوانة الربانيّة العجيبة التي أعطيت للضرير دون سواه. من ليلها الطويل كانت الشمس تشرق في كل قطبة تحوكها، والألحان الرقيقة تذرفها من مأساتها لنحيا...

حتّى إذا وصل إلى الأبيات الأخيرة من هذه الرثائية المشغولة على تقسيم وزني بارع، قال والسيل الدافق الذي كان غائراً في الأرض، يتفجّر في هذا التجويد الرخيم:

«أنا هو القاتل. لقد قضيت على الوحش الكاسر الذي ينهش بأنيابه البراءة ولم أندم. ولم أطلب صفحاً. عفاف وحدها صفحت عن أخيها تاركة من أثرها كماناً مشلّعاً وألواناً منسوجة، ذبلت قبل أن ترى العيد».

ظلّ الصمت مخيّماً فوق رؤوس الناس، والعيون جاحظة في المكان الذي وقف فيه حسن منذ هنيهات تاركاً في هذه الدائرة الفارغة منه، قصّة عتيقة عتق الأزمان، قصّة الضحية والجلاد.

هذه المرافعة المنظومة بالشعر والغناء كان لها الوقع الكبير في النفوس. سجين عاد إلى ذاك الزمن البعيد، يروي من نبع أحزانه ما حدث، وبالتفاصيل المدوزنة على أبيات متوازية، استطاع أن يعظّم وقعها ويقرع بها قلوب الحضور.

ماذا حدث في ذلك اليوم حتّى فجّر حسن ما سكت عنه سنين طويلة؟ هذه الوقفة الشجاعة لم تكن عابرة. على أثرها أعيد بعد أيّام فتح ملف قديم منسيّ في درج القضاء بغباره وأوراقه الشاحبة ودعي حسن ليقف في قفص، اعترف فيه منذ عشرين عاماً بأنّه قاتل.

كلّ من عرف حسن عن بعد أو عن كثب في هذا السجن كان مدعواً للإدلاء بشهادته. تحلّقنا حوله كأهل حملنا راية الحق للدفاع عنه. وعلى بعد منّا كانت عائلته الحقيقيّة: أمّه وأخوته. كانوا فعلاً

كغرباء دعتهم المحكمة إلى قضية منسيّة لا دور لهم فيها. التقت نظراتي بنظرات حسن حين دعاه المباشر للدخول. بان لي كالعصفور الذي طالما انتظر عوداته على شجرة الكينا. تمنيت أن تعدل المحكمة في حقّه وتمنحه حرّية العصفور. لكنّي عدت وحدّقت بأمّه كي أقرأ ما في نواياها. بين أهله الحقيقيين وأهله الفرضيين كان حسن ككرة بين فريقين متنافسين.

قمت من مكاني واقتربت من الست أسمهان المرأة التي أعطت الحياة لحسن وسلبتها منه. عرّفتها عن نفسي وهي تنظر إليّ بحذر. قلت بما لديّ من كلمات تهزّ مشاعر أمّ:

«مجيئك إلى المحاكمة له أهمية كبرى في مصير ابنك حسن. شهادتك هي الأقوى اليوم من شهادات المساجين والساهرين على أمن السجن وشهاداتنا نحن المتطوعين لمرافقتهم في تأملاتهم وأمنياتهم المحصورة بين أسوار الحبس. لقد آن الأوان لكي تعيدي إليه حقّه في الحياة..».

بنبرة عصبية أجابتني:

«وما قولك لو جاءت جميع أمّهات المساجين وطلبن البراءة لمقترفي جرائم القتل. هكذا نكون أفرغنا السجون من القتلة ووزعناهم أحراراً في كلّ مكان. ما قلته بالأمس لن أتراجع عنه. وحسن كان راضياً عن شهادتي. العدول عنها الآن، قد يوقعني بتهمة شهادة زور أخطر مفعولاً من القتل. لقد وجد حسن مكانه في هذا السجن الذي قبل به، فليبق فيه. أمّا أنا وبعد فقداني لزوجي ببربرية يد حسن، فلم يعد لي ما أطلبه من هذه الحياة سوى السلام».

عجيبة هذه المرأة، تتحسّر على زوج، تعرف ضمناً ما افتعله بابنتها ولا تأتي على ذكر الفاجعة التي بليت بها ابنتها المسكينة. عشرون سنة مضت على هذه الحادثة وما زالت تعيش في كذبتها، نابذة الابن، وتدينه اليوم أكثر من الأمس لأنّه أعاد للحكاية حقيقتها.

مرّة أخرى عاد فكري إلى أمّي التي نبذتني وتخلّت عني بدون شفقة. وعبرت مارينا نتاييف القاسية على خط ذكرياتي، امرأة غريزية، أودت بي إلى الهلاك انتقاماً من عشيقها.

بعد أن أدلى كلّ منا بشهادته، نادى القاضي حسن وأمّه لمواجهة تحاكى فيها الاثنان بعد هذا الانفصام الطويل.

أسمهان التي دلّلت هندامها لهذه المناسبة، بتسريحة شعرها وسماكة المراهم لإخفاء تجاعيد وجهها، وحمرة الشفاه الفاقعة، والكحل الفاحم، كانت جاهزة لحرب عشوائية ضد هذا العدو الواقف قبالتها، فيما حسن يتأنّى بذاكرته ويروي ما حدث واصفاً أمّه على حياد. كان إنساناً حرّاً في شهادته وكانت سجينة أنانيتها وشهواتها.

مرّة ثانية أُقفل ملف حسن لغياب الشاهدة الأساسية عفاف. من سجن مؤبد خفّضت عقوبته إلى خمسين سنة، سدّد منها عشرين. أمّا ما تبقى له من هذا الدين المستحيل إيفاؤه فتناوله كولادة ثالثة من هذه الرحم التي ما ملّت إيلاده: السجن.

ومضت الأيام وأنا مواظبة على موعدي مع فرقة العازفين على الكمان، سعيدة بإسعاد قلوبهم، أليفة مشاعرهم وانتظاراتهم التي تغدو تهريجاً صاخباً حين أطل عليهم. كانت يد الله تضفر بيننا

جدائل محبة وأخوّة، فأعتبر صباح الأحد هذا قدّاساً بطقوسه الأخوية، أروي خلاله عطشهم بألحان تولّد فيهم حنيناً واشتياقاً هم بأمسّ الحاجة إليها.

وكنت أعلم وأنا في طريقي إلى السجن بأنّ حسن سيكون في انتظاري في المكان الذي أرسى بيننا بوحاً حميماً، وبناء لطلبه كنت أحمل إليه كتباً للمطالعة ودفاتر ليدوّن عليها قصائده وكلّه أمل بأن ترى ذات يوم النور في ديوان.

في ذلك الصباح لم يكن حسن في انتظاري. لم أجده محدّقاً بشجرة الكينا، يترقّب منها خبراً عن عصفوره. سألت عنه الرفاق. قالوا إنّه لم يخرج من زنزانته منذ أيام. بإلحاح منّي سمح لي آمر السجن أن أزوره في خلوته. انفرجت أساريره حين رآني. بدا لي هزيلاً، في شحوبه ما ينذر بالموت. أسرع في الكلام حين شعر بأنّي على وشك البكاء:

«الوقت يطاردني. لقد شعرت بوجوده مذ شجّعتني على الكتابة. أودّ أن تكتمل هذه المجموعة من القصائد قبل أن أرحل من دنياي المختصرة بزنزانة وملعب. أتمنّى لو تقدمين لهذه القصائد إهداء بقلمك، يعطي معنى لوجودي العبثي».

ضبطت مشاعري حتّى لا أبدي ضعفاً أمامه وقلت:

«سوف أتولّى نشر أشعارك مهما كلّفني ذلك. وإذا قبلت مديرية السجن فسنجعل من هذا السجن ملتقى نموذجياً للموسيقى والأدب والشعر، تكون فيه أوّل من سيوقع على نتاجه».

تأملني بنظراته الغائرة في جوف وجهه الغامر، كأن ما أقوله وهم وسراب. لكنّ ومضة من أمل عادت وارتسمت على أساريره وقال:

«يأتي زمن يغدو فيه المكان الوحيد الذي يشعر فيه المرء بالحرية، سجنه».

كان حسن يتكلّم عن المكان الوحيد الذي يشعر فيه المرء بالحرية، السجن، وأنا على متن كلماته أرحل إلى زمن سجن آخر، بدأ في بيت مارينا نتاييف.

في بالي تكوّمت أصوات أشباح لرجال ونساء، محت السنون ملامحهم، كانوا في تلك الليلة التي وصفتها بليلتي، يتبارون على إيقاع قرع كؤوس الفودكا في العبارات الأقسى مفعولاً في تدمير ذكرى رفيق لهم: أيغور مانياتوفسكي.

هذه الليلة، ليلتي، كانت مدوزنة بيد معلّمة لأسدّد عن معلّمي ديوناً باهظة من الماضي.

أوبريت «قمر تشرين» تلك التي موّه عن مضمونها بتحويل عنوانها إلى «رقصات على ضفاف الدانوب» كانت حديثهم، يريدونني بها

بديلاً عمّا اقترفه إيغور الدجّال من سخرية وتهريج في موسيقى ساقطة نالت من مبادىء الحزب وآباء الاستقلال.

كلّ بدوره تناوب على رمي أفظع الاتهامات بحقه لا سيما فراره الجبان من الغولاغ بدل أن يقضي العقوبة اللازمة لجنايته ويتطهّر منها بالأشغال الشاقة.

الألسن المثقلة بالسكر كانت ترجمني بالأسئلة ولم يكن في وسعي سوى تجنب هذه الكدمات الموجعة بأجوبة صادقة لا غبش عليها ولا إبهام. قلت:

«معرفتي بالمعلّم إيغور حديثة. دخلت المعهد الموسيقيّ الوطنيّ لأتزوّد من معرفته في إتقان العزف على الكمان. وعندما شعر بولعي بهذه الآلة والحدود التي وقف عندها برنامج المعهد، ارتأى أن آتي إلى روسيا لأكون برعاية رفيقته مارينا، وأسعى معها ليس فقط في التحصيل التقنيّ العالي بل أيضاً أن أعود إلى بلدي مزوّدة بمؤلفاته التي كانت محتجزة إلى ذلك الوقت.

«لعلكم على صواب في كلّ ما تقولونه عنه. إيغور مانياتوفسكي فرّ من الأشغال الشاقة ولم يطهّر ذنوبه فيها. لكنّه بمجيئه إلى لبنان وتفانيه لطلابه في هذا المعهد الذي كان منذ عشرين عاماً في إطلالته الأولى على الموسيقى، فكأنّه أرسى مطهره فيه. رجل متزهد من شهوات الدنيا، يصرف وقته في التعليم والتأليف».

سمعتهم يتهامسون في ما بينهم قبل أن تطلق مارينا ضحكة فاجرة انتقلت عدواها إلى الآخرين. ما عدا «نينا» زوجة يوري مرافنسكي التي تدخلت في هذا الجو الصاخب لتقول:

«دعونا يا رفاق نستمع إلى ما ستعزفه تلميذة مارينا لنا. فلهذه الليلة كأسها وموسيقاها. خذي كمانك أيتها العصفورة العالقة في جمّ أشواك هؤلاء الساخرين ورطّبي الأجواء بالنغم».

تلقيت دعوة «نينا» لي، دعماً لمعنوياتي. أخرجت الكمان من علبته وبدون تمهل كانت القوس تجنّ على الأوتار محدثةً أزيزاً جارحاً في هذه السوناتا التي كتبها بيلا بارتوك المجري، لكمان منفرد واشياً بالقوس، على الغزو النازي لوطنه، راثياً قدر شعب تقهقر مرّات وكان في كلّ مرّة يناضل للحفاظ على ثقافته المجرية.

كنت وأنا منطلقة على خط هذه المقطوعة الرهيبة بإيقاعاتها، المدهشة بتناقضاتها الفجائية، أشعر بحمّى صداقتي لشاعر الروح هذا. لقد أخذت القوس عنه لأسكّن أحزانه وأعيده من غربته الموجعة إلى جذوره الفولكلورية التي كانت تمجّها الأوتار بين الفينة والأخرى كماء شافية.

حين نزلت القوس بعد أن أعيت الأوتار وصبت فيها جراحها، ارتفع التصفيق مصحوباً بكلمة «برافو! برافو!» وأنا في غُربة بارتوك مستوطنة في كلّ حزة قوس، سائرة في موكب شعب بريباته وبؤسه وأوجاعه دون أن أتيه عن النار المشتعلة في هذه اللغة الموسيقية الكونية وأتكوّى بها.

اللهفة الصادقة جاءت من نينا التي لم تتحيّز طوال السهرة لجانب مارينا وكأن بينهما عداء ما، أو كما لاحظت دون أن أتأكد من شكوكي، علاقة خفية بين مارينا ويوري. رأيتها تقترب منّي وتهنئني بعناق مؤثر وفي آن مدروس جيداً للتعبير عمّا يخالجها. ثم توجهت بالكلام إلى زوجها:

«أود منك يا يوري أن تكون متنزهاً عن اعتبارات مارينا، في ما تراه سلوكاً إيجابياً لمايا. هذه العازفة جوهرة ثمينة في المعهد الموسيقي بغض النظر عن هويتها. لقد بيّنت عن كفاءاتها. والمعهد الموسيقي بحاجة إلى أشخاص مميزين على أمثالها بعدما شاهدنا نزوح خيرة شبابنا إلى أميركا».

كأن مارينا كانت بانتظار ثناء كهذا لتصحح الصورة المجحفة في حقّها:

«أنت على حق يا نينا. مايا عازفة مميّزة فلو ظلّت تتعلّم الموسيقى في بلدها لما كانت توصّلت إلى ما أصبحت اليوم بإمكانها تحقيقه. لقد تمكّنتُ من سبر شخصيتها المغلقة واستخراج مواهب جمّة كانت مدفونة لديها. ولكن هل تبقى مراهنتنا على الغريب فنلهو عن طلابنا ونفتح لهم الدرب إلى الاغتراب؟ في وقت قريب سوف تعود مايا إلى بلدها بعد أن تكون روسيا أتحفتها بأثمن شهادة تخوّلها الاحتراف في أيّ بلد من بلدان العالم. لقد بيّنت هذه الصبية عن شغفها بالأدب الروسي كما الموسيقى الروسية وتعلّمت ونجحت، ومما لا شك فيه هي ليست بحاجة للاستيطان هنا».

كنت متعاطفة مع أقوالها، فهي لم تُبدِ أمام ضيوفها سوى اعتدال ينمّ عن مواطنة غيورة على الأرث وأبنائه، ما دفع بي إلى التأكيد عن ذلك:

«مارينا نتاييف زرعت فعلاً بذوري الخام في تربتها الطيبة فأثمرت غلّات طيبة سأعود بها إلى وطني بكل اعتزاز. جذور الإنسان تناديه أينما وجد ففي الغربة لا أجد نفسي أبني هوية».

ارتفع صوت مارينا حاداً كشفرة:

«إيغور مانياتوفسكي الذي تعرفونه كلّكم والذي لم تمح السنون ما اقترفه من آثام في حقّ النظام، وجد هويته بعد شتات في بلد تبيّن أنّه يستقبل الفارّين من السجون، المتهمين بالجنايات العظمى في أوطانهم، ويتوّج جنحهم بمنصب يعفو عمّا تركوه من عارٍ على أرضهم».

سمعت قلبي يرفس بهمجيته على قضبان صدري، يريد الفرار من أشراك أجادت مارينا مرات في نصبها بغية إيقاع طريدتها فيها. سددت نباحه بكف يدي لأهدئ من روعه، لأثنيه خاصّة عن الفرار بمفرده وأنا عالقة في أشواكها أتوسّل دعماً من ركبتيّ المتخاذلتين تحت ثقلي.

كانت الأنظار متجهة إليّ تنتظر ردة فعل منّي، كأن المباراة بين هذا الفريق وذاك، على أشدها. شعرت بالكرة في ملعبي تطلب منّي مرجلة لأشوطها وأحسن إيصالها إلى مرماها. بهدوء مفتعل قلت:

«الروس المقيمون في لبنان منذ الثورة البولشيفية إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية يشكلون طائفة لها كلّ تقدير واحترام في كلّ المجالات، الفنية والهندسية والأدبية. منذ عشرين عاماً وإيغور مانياتوفسكي يتفانى في تربية أجيال من اللبنانيين على رهافة الموسيقى وعراقتها، ولم يشكّ لبنان الذي يستقبل الفارّين والعابثين بالأمن والأخلاق كما قالت مارينا نتاييف، بأخلاقية هذا الرجل الذي ما وجدتُ فيه مذ دخلت المعهد الموسيقي الوطني سوى المتزهد بالحياة الاجتماعية. حياته طلابه، ما إن ينتهي من ساعات

العمل حتّى يلجأ إلى البيت الذي يأويه في برمانا البلدة الجبلية حيث يعيش ويؤلف مقطوعاته وحيداً عن العالم».

قبل أن يتسنى لي إنهاء ما كان في بالي قوله، قاطعتني مارينا بنبرتها القاسية:

«اسألوها بربّكم، أنت يا يوري اسألها عن السبب الذي جاء بها إلى روسيا صبية تبنّتها خالتها بعد أن نبذتها أمّها وتخلّت عنها».

قبل أن أتلقى الأسئلة من يوري ورفاقه أجبت:

«خالتي جنان ضحّت بحياتها لأجلي بعدما تخلّت أختها عنّي. لقد أرادت أن تملأ حياتي من فراغ الأب والأم بما أهواه وأتمناه. فكانت الموسيقى. بعد سنتين على مداومتي في المعهد الموسيقي وملاحظة جنان ما كنت جنيته من تقدم على آلة الكمان، جاءت إلى المعهد لتستعلم من أستاذي إيغور مانياتوفسكي الذي يشغل منذ قدومه إلى وطني منصب مسؤول عن الآلات الوترية، عمّا بوسعه أن يفعل لكي أترقى أعلى من الدروس الأسبوعية وأصبح عازفة مرموقة. جواب أستاذي كان تلقائياً إذ أجاب خالتي:

«روسيا هذ الوطن الذي تنبت من أرضه الموسيقى. فبالرغم مما أصاب هذه القارة من حروب وقهر وتهجير، بقيت الموسيقى تعطي غلات من موسيقيين كبار».

بدت خالتي متحمسة لما يرويه إيغور مانياتوفسكي وفي آن قلقة من فكرة ابتعادي عنها وعن جدتي إلى بلد غريب. سألته:

«وهل بالإمكان لأيّ كان الدخول إلى روسيا وتحصيل العلم فيها؟».

لم يعط شرحاً مسهباً يطمئن جنان، بل اختصر ما لديه من إثباتات مقنعة بقوله:

«روسيا منفتحة اليوم على العالم بعد أن سقط الستار الحديدي بين الدول الاشتراكية وأوروبا الغربية. والرسائل التي تصلني من رفيقتي مارينا نتاييف مشجعة وستكون مايا في رعايتها حتماً إذا ما أوصيتها بها».

بلهفة حالم على وشك تحقيق حلمه، قالت خالتي:

«أنا جاهزة لأسدّد حاجات مايا، وما يترتب عليها في إقامتها في روسيا مهما طال الوقت. أودّها أن تعود إلى الوطن مكلّلة بالنجاح».

بهدوء، ربت على يدها وقال:

«تمهلي يا آنسة جنان في حماستك حتّى يأتيني الجواب من روسيا».

كان بوريس غودونوف صامتاً يتلقى من حكايتي ما يثير حميّته. ألقى بكأس الفودكا التي ما فارقت يده طوال السهرة، على المنضدة وقال، كأنّ حدساً عبر في خاطره توخّى منه أمراً قد يسيء إلى سلوك مارينا في اعترافاتي، قال متجهاً إليها:

«وما كان ردّك يا عزيزتي مارينا؟».

أجابت فوراً:

«لقد كنت جاهزة لكي أستقبلها في بيتي وأعاملها كابنتي. في الوقت نفسه، شجعت إيغور مانياتوفسكي على العودة بعد أن

شمل العفو المنفيين من الموسيقيين والأدباء وكان يطلب منّي دوماً أن أفعل المستحيل لاستعادة مؤلفاته المحتجزة. وهذا ما أفصحت عنه مايا إثر وصولها إلى لننغراد. بدت لي ساذجة لا تدري من نظامنا شيئاً، تتكلّم عن أستاذها وكأنّه إنسان بريء جاء إلى لبنان نتيجة الظلم في بلده. ولا أعتقد أنّي أسأت الظنّ حين اتهمتها بأنّها عشيقة هذا العجوز المهووس جنسياً وإلاّ لما غامرت وأتت بناء على طلبه إلى لننغراد، كطالبة موسيقى وككريستوف كولومبس لتكتشف كنز هذا الخائن المحتجز، وتعيده إليه».

أمام ابتسامة بوريس الساخرة وصمت يوري المثقل بالاتهامات وقفت نينا بالقرب منّي أتشرّب من محاذاتها لي دفاعاً وحماية وسألتني:

«أنت صادقة في عزفك يا مايا، أريدك أمام ضيوف مارينا أن تكوني صادقة في دفاعك عن نفسك».

بصوت عكّره البكاء الجوّاني أجبت:

«إيغور مانياتوفسكي ليس بعجوز مهووس بالجنس. هو لم يعاشر امرأة مذ جاء إلى وطننا. ناسك ومؤمن، شغله الوحيد الموسيقى. لقد أخذت كلامه على محمل الجدّ حين قال لي إنّ حبيبته مارينا، المرأة الوحيدة التي أحبّها وستظل حبّه حتى الموت، قادرة أن تنقذ ما تركه من مؤلفات في بلده، لا سيما الأوبريت «قمر تشرين» التي كانت السبب في اعتقاله. أذكر جيداً ما قاله لي، وكنت أعتبره «أباً» غيوراً على مصلحة طلابه:

«مارينا ستكون معك عطوفة وساهرة على رسالتك فبالرغم من

المسافات التي أبعدت بيننا، ما زالت وفيّة لحبّي لها..».

لم تدعني أواصل كلامي، العاصفة التي كنت مراراً شاهدة على هبوبها نفخت سمومها فيّ. الصفعة التي تلقيتها على وجهي تساوت مع صراخها:

«منافقة، كذّابة، ورثت النفاق عن هذا العجوز الذي غدر بها. لم أكن يوماً على علاقة به، فأنا رغم تقديري لموسيقاه كنت أرى فيه ذلك النفعي الوصولي والعاشق المزيّف. لقد آن الأوان لأن نكشف سرّ هذه الخارطة التي جاءت بها في حقيبتها. دعوا القضاء يحقق مع هذه العميلة لمصلحة من خان القضية وفرّ من وجه العدالة».

«أذكر جيداً ما قلته لي في جلسة من جلساتي الأولى معك، أنّ الأحداث تصوغ الأقدار. فبعد أن دار بي القدر في غير اتجاه، أستطيع اليوم أن أعكس آيتك بقول آخر: القدر هو الذي يصوغ الحدث».

في هذا الوضع الأفقي كتبت مذكّراتي شفهياً. فالجلسات كانت تمنحني ملء الحرية لألقي بهلوساتي، بأتعابي، بحميمياتي الظاهرة والمستترة على الكنبة المنخسفة. وبتشجيع من هذا المحلل الذي كان بصوته المهموس همساً، يتحرّى عن أدق التفاصيل، ويرغمني على نبش ما أردت دفنه عمداً حتى لا يستفيق الذنب الذي، في عجزي عن إتلافه، حوّلته إلى الجهة القاتمة من الذاكرة، النسيان، كتبت مما كان يحوكه القدر من أحداث تتلاقى فيها المخيّلة الممعنة في هذا السرد القصصي بما هو أكثر سواداً من الحدث وأشد مفعولاً في النفس.

في ذلك اليوم وكان مضى على غيابي عن عيادته ثلاثة أسابيع بادرني بملاحظة لم تكن من الملاحظات المدرجة في مفردات التحليل النفسيّ.

«أراك على غير عادة، في غاية الإشراق، كأنّ حدثاً سعيداً طرأ على حياتك. هاتي ما عندك فأنا في غاية الشوق للاستماع إليك».

قلت: «كالولادة القيصرية أتت قصّتي السادسة إلى الوجود بعدما ترددت كثيراً في نشرها. لقد انتظرت أن ترحل جنان عن مآسي دنياها لأتصرّف بأوراقها وأبني حولنا سوراً آمنة من مئتين وخمسين صفحة يتيه فيها الواقع في سراديب الخيال، فجنان عاشت في الأسطورة وجعلت منها حقيقتها ولمّا استفاقت على الواقع والراجمات تقصف أحلامها اليونانيّة، أُصيبت بالجنون. كانت حتّى وفاتها «أوريديس» تنتظر أورفيوس لتنطلق إلى النور. الأوراق التي تركتها في علبتها السرّية، كانت دربي إلى هذا الكتاب».

شعرت بسؤاله محاكمة تشعل مازوشيتي من جديد:

«هل كنت تشعرين بتبكيت الضمير وأنت تنقّبين في أسرارها؟»

أجبت وإصبعه محكمة على الجرح:

«لقد كنت كسارقة استغلّت غياب صاحبة البيت، لتنهب محتواه. واستمررت ولم أتراجع. لعل خطيئة الذنب التي ما زالت تساورني أصبحت مع الأيام سلاحاً أقاتل به خوفي وخجلي. صفحات كتبي وتلك التي أهديها لك اليوم هي هبة من الذاكرة التي تأبى أن تنسى بالرغم من محاولاتي لكي أُدفن جزءاً كبيراً من الماضي في مدافن الأموات».

ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتيه شعرت منها انتقاداً لأقوالي:

«ما تتفوهين به يستحق جلسة جديّة من التحليل. فما أكثرها التناقضات في كلامك. ذاكرتك هي الحبر الذي تغمسين فيه قلمك لتكتبي. فبقدر ما تلقمك الذاكرة من بئرها العميقة أشياء جرت في هذا الماضي البعيد والقريب، ترشفها ورقتك بسعادة لا سيما الأمور السوداء، الموجعة. علينا أن نشغل الذاكرة، أن نحاكيها باستمرار، ونزورها في نصبها العالي وخرابها، في الأفراح والأشجان حتّى لا تخوننا وتلتف من جرّاء تخلّينا عنها، بما تنسجه العنكبوتة من خيوط للنسيان».

كان الجدل بيننا مثيراً، نتبادل الأفكار فيخال لي لمرّة بأنّ المحلل متساوٍ مع الكاتبة. من كتاب إلى آخر، ومن اهتمام الصحافة برواياتي، صار لدخولي إلى عيادة زياد مرجي معنى آخر. لم أعد تلك المريضة المسكونة بالهواجس، أستلقي على الكنبة في استرخاء وكلّي طلبٌ للسكينة والتوازن لدماغي المضطرب، بل تلك الواقفة في عكس الشمس لكي ترى الأمور أكثر وضوحاً، وتعاسة الدنيا مجلوة من غزارة أشعتها الكاذبة.

سألني وفي نظراته انتظار لما سيبدر منّي:

«التحليل لك الآن. هل وجدت تحسّناً ما، مما كنت تعانينه، أم أنّك نادمة على وقت أضعته في هذه الجلسات؟».

كان يطلب ثناء. فلطالما في عملي الصحافي، أضأت على ندواته وبحوثه:

«لو لم تحفّز فيّ قناعات من عملك الجديّ في مجال التحليل النفسيّ وذلك الشغف الذي أسست به فكرة التحليل، لما كنت قرعت باب عيادتك. كلمة لك كانت وما زالت تومض في خاطري: الأدب في مقاومته للتحليل النفسيّ قد يحظى بتدريسه».

هل أجبت بما كان ينتظره منّي؟ سمعته يضيف إلى كلماتي ما يختصر معنى التحليل النفسيّ بكلمات:

«التحليل النفسيّ ليس لغة مرموزة أو بدعة للمطّلعين، إنّه طريق أخرى لوجودنا في هذا العالم. اسمعي ما أود قوله لك بعدما قرأت بشغف مقالاتك وكتبك:

«إذا كان ثمّة من محلل نفسيّ على هذه الأرض بإمكانه أن يرى بعين الروح أي بذلك «النوس» القادر أن يثقب كمخة الوجود ويلمس أسراره فهو أنت. بوحك كان في كلّ جلسة درساً استمديت منه ما هو أهمّ من النظريات، الاختبار. بدخولك في عمق الوجع، في اختبارك أنواع العذابات، كنت أستمع إلى كلماتك التي ظلّت متعالية فوق بشاعة السجن وامتحاناته، تروين ولا تتّسخين بل يبدو لي البوح مغسولاً في مياه الينابيع البكر».

الجمرة التي اشتعلت في أسفل أحشائي لم تبارح مكانها. فتحت كتاب «جنان» على الصفحة البيضاء المرصودة للإهداء وكتبت له من وحي هذا الارتقاء الذي وصف به كلماتي:

«بكلمة واحدة، أراك في الفكرة التي هي على كماني نوطة تتوسع لتغدو وجوداً».

كما لمحت في نظراته انتظاراً منذ هنيهات، رمقت تعابيره الصامتة في قراءته الإهداء. رفع رأسه ونظر إليّ ملياً كمن يتذكّر إنساناً مرّ على غيابه قرن. أدركت ما أريده منه قبل أن أعرف ما في سرّه. اقتربت منه لأشعر بذراعيه تلتفّان حولي وكأنّني في هذا العناق الحار، أتطهّر من دنسي.

في إحدى أوراقها وصفت جنان الوحدة القاتلة التي كانت تعيش فيها، بكلمات نقلاً عن رسالة للكاتب الفرنسيّ غوستاف فلوبير إلى جورج صاند:

«لم أعد أنتظر شيئاً من الحياة سوى كدسة أوراق أخرطش عليها بالحبر الحالك، إذ يخال لي أنّي أعبر وحدة لا نهاية لها، ولا أدري إلى أين وكأنّي المسافر والصحراء معاً».

اقتحمت هذه العبارة فكري وأنا ماضية تحت ستر الظلمة بخطوات تسابق سرعة الريح قبل أن تدهمني الشمس هذا الموعد مع المجهول، وتربكني بظلّي.

في هذا القرار المفاجىء لإطلاق سراحي، وجدت نفسي في عبوري الجسر إلى الضفّة الأخرى من المدينة التي أحببتها، أختبر تلك

الوحدة الموحشة التي لا نهاية لها والليل يمشي فوق رأسي لحمايتي من فجر لا بدّ آت، يدلّ بإصبعه على الفارّين، يعتقل آثار خطاهم مهما ابتعدت بهم المسافات.

لم أكن عابرة طريق عادية. كنت عابرة قدر ساخر ما ملّ من التلاعب بحياتي بأصابعه المخشّبة. تشابكت أصوات من ماضٍ بعيد تصبّ في مياه هذا القدر العكرة. سمعت ميرا تذكّرني بما افتعلته حكايات جنان بنا. سمعت جنان بدورها تروي لنا حكايات حبّ وانتقام وموت بين الآلهة وناس الأرض. سمعت البومة على سطح بيت جدّتي تنعى موتاً وفراقاً ومآسي.

كلمة حرّية بانت لي فجأة قناعاً كاذباً يخبىء الإنسان الروسيّ وجهه وراءه حتّى لا يرى الطوق الساجن فكره وحقيقته. أجل! أنا في هذا الصباح إنسانة حرّة إنّما بمخطط تعجز الأفلام الهوليودية عن إخراجه، حين يكون الموضوع إطلاق سجين من بلاد الـ«كا. جي.بي» بطرق خيالية.

في تلك الآونة الخارجة عن تقويمة الزمن، كنت كمن فقد ذاكرته. الوقت تقوقع في زنزانة وغرفة استجوابات، علمت في ما بعد أنّها أقيمت في طبقة سفلى من المعهد الموسيقيّ، كمعتقل، لكلّ موسيقيّ يخلّ بعقيدة الحزب.

هنا يقف الفكر تلقائياً، مبتوراً عن وعائه، رافضاً مرافقته إلى أقصى الجحيم حيث الإنسان يتحوّل إلى جلاّد مفترس يتلذذ بضحيته وينهشها رويداً رويداً. كنّا اثنين متّهمين بالعمالة لصالح خائن فارّ. الكمان وأنا. فبهذا الإصرار الوحشيّ كان علينا أن نرفّه عن سجّانين ثملين باستمرار، متخصصين بفنّ التعذيب، علمت في ما

بعد أنّهما يطبّقان ما قاسياه من فظاعات في الغولاغ، في جسدهما وعقلهما، حالت بعد تسريحهما دون استرداد ذرة من الإنسان الذي كانا.

كانت مارينا في بادىء الأمر شاهدة على إنجازات هذين المكلّفين بنيل رضاها، تراقب سبل التعذيب بالحديد الحامي بعد أن أكون ردّدت حكايتي بتفاصيلها عشرات المرّات. ثمّ تأتي الأوامر لأعبّر عن أوجاعي على أوتار كماني، فيما القهقهات تحجب الأوتار المبتورة من أحاسيسها.

هذا السفر إلى أقصى الجحيم جعل جسدي كتلة حروق ينز منها سائل أصفر، هيّج رغبات الوحش القابع فيهما. صارا يتناوبان عليّ وكماني يخبىء وجهه خجلاً، وأنا ككتلة جليد لا أعي ما يجول في أحشائي، لا أصرخ من أظافرهما الفالحة جلدي، لا أتقيأ من عوائهما وهما يفرغان قيحهما فيّ. لم أعد أنا. صرت لا شيء في زريبة من الحيوانات، أدفع ثمن جنون امرأة وحقدها الأعمى، وكلّ من وافق معها على استجوابي، إلى أن امتدت يد ذات يوم تعالج بالعقاقير المبلسمة قروحي، وتحاول بكلمات لطيفة أن تعيد الحياة إلى ميت.

كنت أستمع إلى فاليريا تروي الخلاف الناشب بين مارينا وأخصام إيغور وبين نينا بيكالاريف المحامية القانونية المدعومة من زوجها يوري مرافنسكي لإنقاذي من جحيمي. وأستمع ولا أطمئن فكلّ ما فيّ أوجاع مبرحة لا تلتئم. صارت هي حارسة هذا القبو، تطبّق الفصل الثاني من اعتقالي بسلوك إنسانيّ يعوّض عمّا جرى، عساه يروّض تصلّبي ويستميل ضعفي عاطفياً فينتهي بي الأمر إلى الاعتراف.

لم يكن لديّ أكثر مما قلته تحت التعذيب والتهويل والإذلال. الصمت كان شهادتي الأخيرة للبقاء، حين الحياة بمعانيها الكبرى تغدو عدماً. تذكّرت الصلاة التي علّمني إياها إيغور حين كان يفتح خندقه كما روى لي ليدفن ذاته فيه. صرت أرددها:

«يا رب، افتح نافذتك كي أرى وجهك المحجوب عنّي».

قال وهو يسلّمني حقيبة صغيرة سوداء:

«كوني حذرة ولا تهدري الفرصة المعطاة لك بالتردد والخوف. سيارة جيب تكون في انتظارك على الضفة الأخرى من النهر. أنطون شقيقي مكلّف سرّاً بإيصالك إلى محطة القطار ولن يتركك إلا بعد أن تكوني اجتزت شرطة الحدود».

بين ظلٍ وضوء تراءت لي ملامح رجل في الستين. قال إنّه انتُدب ليكون حارساً على هذا السجن مكان سلفيه. فتحت الحقيبة والشكوك تساور فكري فإذا بي أجد جواز سفري وشهادة تحصيل عال من المعهد العالي للموسيقى ورسالة موقعة من يوري مرافنسكي الرئيس الأعلى لأكاديمية تشايكوفسكي، قرأت فيها على عجلة شهادة تقدير وإعجاب بما حققته من مهارات في العزف على الكمان. هذه الرسالة كانت وحدها تأشيرة دخول إلى عالم

الموسيقي والعمل فيه. أما في ما يخصّ جواز سفري الذي كان محتجزاً لدى مارينا، وأمام السؤال الواقف على جبيني، أجابني:

«كحارس بديل للحارسين اللذين توليا أمرك قبلي، كان لي الحق في أن أطّلع على ملفك. جواز سفرك كان فيه، الشيء الذي سهّل مهمة نينا بيكالاريف السرّية في إنقاذك.

كان فكري يدور في فلك هذه التركيبة الروسيّة العبثية ولا أفهم أن يكون نفوذ مارينا نتانييف أعلى شأناً في الحزب من سلطة يوري مرافنسكي المسؤول عن أمبراطورية الموسيقى في لننغراد، وأكثر سطوة من نينا بيكالاريف محامية الدفاع في المحكمة. أدرك ما يجول في رأسي، فجاءني الجواب بما يشبه الاستسلام للقدر الظالم. بصوت مهموس همساً حتى لا تشي الجدران عنه قال:

«رحل ستالين وظلّت عقائده الصارمة سارية المفعول، ينفّذها أصحاب الضغائن والمآرب. مارينا نتانييف باعت روحها للحزب بعدما تخلّى عنها إيغور مانياتوفسكي بفراره. صارت خادمة مصالحه بدءاً من ذلك اليوم الذي غدرت بإيغور المعتقل في سيبيريا وسلّمت أجمل المؤلفات التي كان يكتبها بوحي عشقه لها ـ هذا ما كان يرويه لي ونحن نحفر أرض سيبيريا وثلوجها بمعاولنا لنندفن فيها أحياء ـ إلى محكمة موسيقى الشعب تحسباً لأي عقاب، قد ينال منها بوصفها رفيقة إيغور الحميمة. هكذا أصبحت مارينا عنصراً ثميناً في الحزب، يهابها كلّ من يعمل معها في المعهد، وفي آن عالية الاحتراف، يتخرّج أفضل العازفين من مدرستها، واعية على رسالتها وعلى الدور الذي تلعبه الموسيقى الروسيّة في العالم. مارينا هي التي طلبت اعتقالك من السلطة التشريعية لموسيقى الشعب وشددت على استجوابك بأي «ثمن» لكي تبوحي تحت

التعذيب بالمكان الذي أخفى فيه إيغور أوبريت «قمر تشرين».

قلت والخوف صقيع في قلبي:

«أرى في فراري هذا مغامرة غير مضمونة. أتراني في هذه القارة الهائلة، هائمة أتوسّل إلى الله أن يمدّ لي يده لأعبر قدري الملغوم كجواز سفري؟ لماذا، ما دمت على أيّ حال مضطرة للمثول بأوراقي أمام رجال الأمن، وقد يكون اسمي سبقني إلى كلّ مكان، لا أرحل عن طريق المطار؟».

فاجأني بما لم أكن على بيّنة منه:

«الحرب مشتعلة في لبنان والمواصلات الجويّة مقطوعة حالياً بين بودابست وبيروت».

من عمق اليأس انفجرت بالبكاء وكأنّي في هذا السجن أمثّل دور شخصية خرافية يتنازع بسببها الخير والشر:

«أفهم أنّ هذه الحرية المفبركة بطرق غير قانونية، ومن أشخاص محبّين، قد تكون مطبّاً لهلاكي. أخرج من سجن صغير لأجد نفسي مطاردة في سجن أكبر. فما هي هذه الفرصة المعطاة لي المنسوجة بخيوط وهمية وكم مغرية؟».

كان عليّ أن أختار... البقاء تحت رحمة الظلم وتكبّد نوع آخر من التعذيب، الحقن في شرايين يدي الكفيلة بالاعتراف، والكيّ والعزف على وتر مكسور و... أو الانطلاق في رحاب المغامرة مهما كانت تكاليفها. تمسكت بنصيحة حارسي:

«إنطلقي في الليل الدامس قبل أن يطلّ الفجر. هو حاميك إلى أن

تعبري الجسر. أنطون سيضمن لك حريتك».

أخفيت عظامي البارزة بمعطفي الروسيّ وأنا متمهلة في الرحيل، كأنّي بهذه العجلة أقترف كفراناً بحق نينا ويوري. كيف عليّ الرحيل من غير أن أشكر ما بذلاه من أجلي؟

سمعته يضحك من سذاجتي هذه والوقت على حد شفرة يتطلب عجلة وسباقاً مع ضوء النهار.

كنت أصبحت على بعد خطوات منه حين تذكّرت أنّه هو مخلّصي وعليّ أن أبدي له امتناني. قلت:

«وأنت أفلا تخشى عقاباً عندما ستكتشف مارينا أنّ حارس الزنزانة هو من سهّل فرار السجين المقيم فيها؟».

أجابني: «وهل يخشى عقاباً مَن ذاق طعم الظلم واختبر جحيم الغولاغ الذي هو أكثر قبحاً من زنزانتك وأكثر إذلالاً من العذابات التي مورست عليك؟».

تسمّرت في مكاني وعيناي تتفرسان في وجه هذا الرجل الذي كان حارسي لأيام، يدوّن بسريّة كلية ما تعرّضنا إليه أنا وكماني من تعذيب، وها هو الآن في لحظة الوداع هذه يطلعني على أمر مثير:

«كنت عضواً بارزاً في أوركسترا إيغور مانياتوفسكي السمفونية. يوم قدّم على مسارح روسيا تحفته «قمر تشرين» والتي عمّ عنوانها آنذاك «رقصات على ضفاف الدانوب» تحسّباً لسوء فهم ما، كان في غاية الزهو، إذ كان على يقين أنّ هذا العمل سيرفع اسمه إلى

مستوى تشايكوفسكي وريمسكي كورساكوف ويخلّده. والعجيب في الأمر أنّه كان شديد الثقة بما كان ينتظره من نجاح. وبالفعل صرنا نتنقّل من مدينة إلى أخرى نقدّم «قمر تشرين» أمام جمهور كث تفاعل مع هذه الأوبريت وساعدها في انطلاقتها الواسعة. نشوة الانتصار أنست إيغور مسؤوليته تجاه حبيبته مارينا وخوفها عليه. فرجال المباحث كانوا حاضرين في كُلّ مكان يسنّون السمع والنظر ليتحققوا من خلفية هذا العمل الفنيّ الرائع. ما كنا في انتظاره، لم يطل أن حدث إذ تم اعتقالنا إثر عودتنا إلى لننغراد وجررنا إلى سيبيريا كقطعان من النعاج إلى المذبح. قضيت ست سنوات مع رفاقي نحفر خنادق في ثلوج هذه القارة وندفن فيها رفاقاً لنا. تعاملي الحسن مع العقاب وتكبّدي بصبر وجلد ما لا يحتمل، كانا شهادة شملتني بعفوها، مجرّداً من هويتي الموسيقية. عدت إلى المعهد بعد غياب ظنّ خلاله حاملو أزرار الحزب على ياقاتهم، عندما رأوني، أنّي آتٍ من الموت. عدت لا ككمان أول، لا كقائد أوركسترا، بل حارساً لهذا السجن ـ المختبر، شاهداً على تقنيات التعذيب المفرطة بالدقّة، بيد متخصصين يقومون بتنفيذها بلذّة عارمة على كلّ ضحية رميت في هذا المكان لمخالفتها أوامر الحزب أو تحررت بموسيقاها فوق إرادته...».

قال كلّ ذلك بسرعة كأنّ قوة خفيّة ستدهم اعترافاته. سكت لحظات ثمّ أكمل ما في نفسه:

«ليتني استطعت الفرار مع إيغور. أذكر أنّه ترك معوله في ذلك اليوم فوق كومة من الثلوج الموحلة وسأل:

«من يمشي معي؟»». خلته جنّ. لم أتجرأ. ومضى برفقة «يان» و«فلاديمير» يعبران السهب كطيور أرضية تحاول الطيران، فيما

الرصاص يطاردهم في كلّ اتجاه. خلص هو وسقط الرفيقان بين أجمام الأعشاب السيبيرية، ضحيتي جنون إيغور.

ضوء القنديل الخافت رسم ظلّ إيفان على الجدار فبان لي عملاقاً من عمالقة الأساطير. كان الليل يناديني إلى المجهول».

كان أنطون في انتظاري وضوء النهار الروسيّ المتخاوي بعتمة الليل، لم يكشف عن وجهه بعد. بزّته العسكرية الرمادية هي أول ما لفتني وأنا أهمّ في ركوب السيارة. شيء ما شدّني إلى الوراء. شعرت بالهلع يستولي عليّ والغثيان يقبض على صدري. لعلّه أدرك ما في نفسي إذ أسرع إلى طمأنتي مازحاً:

«طاقيتي البيضاء تركتها في مطبخ الثكنة. أنا مساعد طبّاخ وهذه البزّة التي أرتديتها لمرافقتك هي درع آمن لك».

حين ارتاحت مفاصلي من تشنجاتها وسكن جنون قلبي، رأيت شمس روسيا في عينيه. كان من هؤلاء الذين صبّ عليهم ستالين ديكتاتوريته فأحاله من طبيب تخصّص في جراحة شرايين القلب في ألمانيا إلى عامل تنظيفات في مستشفى عسكريّ عقاباً له لكونه طلب العلم والاختصاص في بلد أصبح بعد زمن ألدّ عدو لروسيا

وأكثر طمعاً في خيراتها.

السرعة الجنونية التي كان يقود بها السيارة ويتعرج بها في الدروب الغير الآهلة، لم تخفف من سيل حكايته. كنت في عالم آخر، أعود منه بين الفينة والأخرى لألتقط فقرة من مصيره الجائر.

«تنقّلت من مهنة حقيرة إلى أخرى حتى استحققت الترقية إلى مساعد طبّاخ فكانت مكافأتي على حسن سلوكي قصعة وحساءً يومياً».

كنا على وشك الوصول إلى محطة لينين حين قال:

«إياك أن تدعي رجال الأمن والجمارك يلمسون ارتباكاً ما على أساريرك. ثقي بأنّ يداً كريمة امتدت لمساعدتك وعملت المستحيل لكي توصلك إلى مرفأ الأمان».

أنطون... إيفان... شقيقان أذلّهما العهد، ووضعهما في قالب الطغيان وها هما يجازفان بحياتهما من أجلي، من أجل الحقّ كما قال لي إيفان وأنا أودّعه شاكرة.

أوقف سيارة الجيب ومشى معي «سأظلّ برفقتك إلى أن ينطلق القطار على سكة الحرّية». بدلته العسكرية كانت تأشيرتي وجواز سفري وأكثر ثبوتية من أوراقي. رأيت الختم ينتقل من المحبرة إلى صفحة بيضاء من جوازي ويثبّت عليها خروجي القانونيّ من روسيا. في تلك اللحظة شعرت بجليد روسيا يذوب حناناً. ارتميت على صدر هذا الرجل الذي طوى العلم والاختصاص ودفنهما في مقبرة النسيان، ورحت أجهش ببكاء حارق. لم يكن الكلام

ضرورياً لنتفاهم. غمرني بذراعيه النحيلتين وبكلمات وداع مؤثرة ظنّها رجل الأمن فراقاً بين حبيبين من عمرين مختلفين، طلب منّي الصعود إلى القاطرة. كان ما زال على رصيف المحطة حين انطلق بي السفر. في ذاكرتي انطبعت صورة إيفان وأنطون ملاكين لم تلوّثهما روسيا ستالين بشحتارها ولم تسلب منهما تحت آلات التعذيب إنسانيتهما.

الوقت كان شبه واقف في رأسي، كما في السجون. وحدها الأشجار الكثّة كانت تبدو لي والقطار مسرع على سكته كخيول أطلقت عرفها للريح.

عادت نينا إلى فكري. انكشحت غمامة عن ذاكرتي المضطربة وعدت إلى ذلك البيت، بيت مارينا الذي منه بدأت رحلتي إلى الطرف الأقصى من الجحيم:

«الليلة ليلتك يا مايا. عليك أن تظهري لضيوفي ما جدت به عليك من إمكانات أوصلتك إلى مستوى عالٍ من الأداء..

كانت الفودكا تملأ الكؤوس وأنا أحزّ وجعي وحنيني إلى بلدي في سوناتا بيلا بارتوك لكمان منفرد وأسأل نفسي عن السبب الذي أوجدني هنا في هذا البلد العجيب بتناقضاته، فتح لي ذراعيه لأتعلّم وأتفوّق وفي آن ما انكفأ يزرع الرعب في مسامي. سحرني بجماله، بمتاحفه، بمكتباته، بحدائقه، بموسيقييه وأدبائه ولم يبعد عنّي القلوب المتحجّرة، القاسية.

الكلمة الروسيّة الأولى التي تعلّمتها وما زالت تراود فكري: «تاسكا» أي الحنين الحزين وأدركت معناها وأنا في هذا النفق الذي

من الصعب الخروج منه. ففي تلك الليلة والكؤوس الفارغة تلتطم ثملى بالجدران وتتوزع كسرات على الأرض، لتحلّ محلّها أخرى ملئى بإكسير النسيان، أقبل يوري مرافنسكي إليّ مهنئاً:

«أجدت، أجدت، يا لك من ساحرة حوّلت الآلة التي بين يديك إلى إنسان من لحم ودم. سمعت الوتر يبكي ويثور ويعشق والقوس مستنفرة تنتشي وتسكر من أحاسيسك. اسكبي من ولعك هذا في كأسي ولا تتوقفي. هات الآن ما لباغانيني من نفوذ عليك..».

كلماته كان لها مفعول الفودكا، استأثرت في وسكرت. وما إن رفعت القوس متأهّبة ونزوات باغانيني تطلب تسريحاً على أوتاري حتّى رأيت يد مارينا ترتفع عالياً وصوتها الآمر يحضّني على التوقف:

«كفانا موسيقى لهذه الليلة. فلنشرب ونسكر ونأكل ونتخم. الطعام ساخن لا تدعوه يبرد».

أدركت أنّ مارينا استاءت من ثناء رئيسها عليّ. لعلّها انتظرت منه تقريظاً على الجهود الإيجابية التي تبذلها بإخلاص في رفع مستوى الطلاب محليين وأجانب.

المشهد كان مسرعاً ينافس الدقائق الواقفة على باب زنزانتي لإطلاق أسري، وأنا هناك أعيد عقارب الوقت إلى تلك الليلة التي تحوّلت إلى مسرحية عبثية حطّت فيها مارينا من كرامتها، لتكشف أمام ضيوفها عن طبيعة دنيئة مكسوة بسكّر الضيافة. لقد ساءها أن تسمع ثناء يوري الصادق عليّ، وكرهت نينا حين أطلقت صرختها العفوية: «لقد بلغت ذروة العزف يا مايا».

المديح والثناء لم يثنّا فيّ الفرح المرجو. كان قلق كسيف داموكليس ساطياً فوق رأسي. فمارينا كانت تجترّ ثأراً مذ وطأت قدماي الأرض الروسية. فاستضافتها الماكرة لي خططت لها بفن بدا لجنان خالتي نقياً، صادقاً من أي ريب.

فهذه الليلة العامرة بالسكر والموسيقى والكافيار كانت مؤاتية لها كي تخلط الماضي البعيد في مقادير وليمتها. كجنيات الأساطير كانت تعدّ العدّة بإكسير السحر السام لبلوغ مآربها.

بعد أن ودّعت ضيوفها والليل تجاوز نصفه، دخلت إلى غرفتي واللؤم ينطلق رشاشاً من لعابها:

«لقد حان الوقت لكي ندرس معاً هذه الخارطة. في الأيام القريبة أعدك بسياحة إلى بلدة إيغور على ضفاف الفولغا، وستتعرّفين إلى البيت الذي ولد فيه وتصلّين كما أوصاك على قبر أمّه وستكونين الدليلة إلى قبر «قمر تشرين» حسب توجيهاته لك. اعلمي! هذه الأوبريت وثيقة تاريخية ينبغي لنا العثور عليها حتّى لا تبقى حلقة ناقصة في تطوير الموسيقى الروسية وإيغور مانياتوفكسي هو أحد أربابها بعد بروكوفييف وسترافسكي».

ومضت في فكري وصية إيغور لي: «عودي ومعك الشهادة العليا ومؤلفاتي. فمارينا قادرة أن تؤدي لي هذه الخدمة باسم حبّنا الذي لم يشحّ زيته بل ظلّ الوحي الرئيسي للعطاء».

ناولتها الخارطة وقراري النهائي مهما كلّفني ذلك ألّا أبوح بمقر تحفة موسيقية أصبح مؤلّفها بسببها عدو الشعب، سجيناً ثم فاراً فمنفياً. كم كان غبياً بظنّه أنّ مارينا ما زالت مؤمنة بهذا الحبّ

الذي غدر بها. كم كنتُ غبية في ارتمائي في هذه المغامرة.

مرّات مسحت نظارتيها المستديرتين بكم قميصها لترى العلامات أوضح وبين الفينة والفينة تحدّق فيّ عساها تقرأ ما في سرّي:

«لعلّ هذا الجبان اعتبر الزمان واقفاً في روسيا مذ رحل عنها. ربع قرن مضى ومعه الذكريات والأمكنة. ثمّة معلومات ما زالت في دماغه، شرحها لك وتحجّج بك طالبة موسيقى للإيقاع بك، بعد أن تكوني اعترفت تحت التعذيب بالمكان الذي دفن فيه «قمر تشرين» يوم أحسّ بالخطر يدهمه.

كلمة تعذيب دخلت في عظامي قشعريرات من الجليد. لقد كانت من تلك التحديات التي ينبغي مواجهتها بالجرأة والثقة. صوت من داخلي قوّى عزيمتي حتّى لا أتخاذل أمام سطوة هذه المرأة ذات القلب المنكّل. قلت:

«تاريخ الموسيقى كما درسته في معهدكم لم يخل عبر لأزمنة من مآسٍ أصابت الموسيقيين في أعمالهم وعقولهم. سمفونيات برمّتها فقدت أثناء الثورات والحروب وأعمال أوبرالية ضاعت، وموسيقيون بارعون أنهوا حياتهم في المصحّات العقلية، فلمَ كلّ هذا الاهتمام بإيغور مانياتوفسكي؟».

كنت أتكلّم بهدوء مصطنع لألجم انفعالاتي. وأنا أرى عضلات وجهها تتشنّج كأنّها على وشك أن تسدّد لي صفعة أخرى تشفي بها غليلها.

أتاني جوابها من جرح بليغ مضى عليه زمن وإذا به عاد ينزف مذ

أتيت إلى لننغراد، أحقاداً وضغائن.

«لماذا زجّك أنت في هذا المطهر؟ كان عليه أن يأتي هو بشخصه ويتعهّد للحزب بإيفاء دينه لها... ولي أنا. ولم يأت رغم العفو الذي شمل جميع المنفيين من روسيا. أفيعقل أن يرسل لي عشيقته الصبية، لكي أهتم بتربيتها الموسيقية والأدبية وأعيدها إليه مزوّدة بمؤلفاته وهو مرتاح في جزيرته؟».

بنبرة عصبية قلت: «للمرة الألف أكرر لك أنّي لست عشيقة رجل دخل المعهد الموسيقيّ في بلدنا كمن يدخل صومعته. إنّه أب حنون للجميع، وضع المعهد ثقته الكاملة فيه لتفانيه من أجل الموسيقى وطلابها. إنّه صاحب رسالة حقيقية..

كأنّي لم أقل شيئاً، بل تابعت نواحها على حالها:

«كنت دوماً بجانبه، أنسخ نصوصه الموسيقية بإتقان، طيّعة حين يطلبني لكي أعزف على البيانو كلّما ألّف مقطعاً من عمل، طيّعة حين يطلب جسدي، ينهل منه ناراً يكوي بها رغباته. فما هو دوري الآن؟ أن أنكش تربة بلده بحثاً عن وهم، عن عمر ضاع وأنا أنتظر أن يدعوني إليه ولم يفعل؟

«هذه أنت الآن قبالتي بمواهبك، بعذوبتك التي استأثرت بأساتذة المعهد، بنضارتك التي تفوح بهذا البيت النتن، عطراً وبدلاً من أن أحبّك، وأحميك، كرهتك. وجدت فيك إيغور. غداً ستكونين في محكمة موسيقى الشعب، خاضعة للاستجوابات»...

لا شعورياً ومشاهد من تلك الليلة تتسارع في رأسي رفعت يدي

إلى وجهي أتحسّس آثار صفعتها. كان تعب الأيام الماضية يستولي على مقوماتي الفكرية والجسدية ويطبق على جفنيّ. دخلت في نوم عميق تشابكت فيه الأحلام المزعجة، الساجنة رقادي في كلابتها. استيقظت لوهلة وصوت أجشّ يعلن عن وصول القطار إلى غرودفو. عملت بوصية أنطون، وأجهزة الأمن تتمعن بأوراقي، بألا أبدي قلقاً. هي الرسالة الموقّعة من يوري مرافنسكي التي فتحت أمامي الطريق إلى حرّيتي.

بدا ضوء المغيب الشاحب، مبلولاً بمطر حزيران، حزيناً يرثي هذه القادمة إلى بولونيا بكساء السجون العفنة وقروح النفس الأبدية. شيئاً فشيئاً بطؤت سرعة القطار في دخوله أرض العاصمة حتّى استقرّت عجلاته في محطة «سنترال» وبدأ الركاب يجمعون حاجاتهم وهم يتفقّدون من النوافذ وجوهاً أليفة جاءت لاستقبالهم.

المجهول وحده كان في استقبالي ولم أجزع. فالنقود التي وضعتها يد الخير في الحقيبة، كما العنوان المدوّن على قفا الرسالة كانت خطوتي الأولى حتّى لا أتعثّر في سبيلي. تأبطت حقيبتي ومشيت حتّى أصبحت خارج المحطة. كان صفٌّ من سيارات الأجرة في انتظار القادمين من السفر. أسرعت في اتجاه واحدة منها وأعطيت العنوان إلى السائق. هزّ رأسه إيجاباً. وما كدت أستلقي في المقعد حتّى انطلق في شوارع العاصمة ووجهي ملتصق بزجاج النافذة

أحاول قدر المستطاع التآلف مع غربتي الجديدة والدغوش كسا معالم الجادات والحدائق بغشاء شفاف.

لم أكن وحيدة في سعيي لاكتشاف مدينة جاهزة لاستقبالي بل كان السائق دليلي إليها:

«لبولونيا تاريخ عريق، وقدر عنيد، لا تكاد الحروب والفتن تسقط تراثها وأمجادها رماداً حتّى تعود لتنبعث من جديد وترتفع على جذورها المتينة. فما تراه عيناك والمغيب يحجب التفاصيل كما هطول المطر، هو ترميم دقيق لمدينة دمّرها الغزو الألماني إبّان الحرب العالمية الثانية ولم يشفع بحجر من حجارتها. بعد التحرير قامت ورشة بناء على سواعد شعب مؤمن بحضارته، بتاريخه القديم العائد إلى القرن الحادي عشر بولادة أول مسكن في أرض باتت معروفة بفارصوفيا».

سألته: «هل أنت دليل سياحي؟».

أجاب: «هنا كلّ مواطن هو دليل على معالم بلده. يعتزّ في إرشاد السائح إلى هذا الكتاب الكبير الذي اسمه بولونيا والذي لم تقوَ على تمزيق صفحاتها قوة لتبقى كما أرادها الملوك والشرفاء مركزاً بارزاً للعلوم والفنون والثقافة...

كنت أستمع إليه بشغف وفكري في بلدي الغارق في حربه، إلى حين سألني:

«من أيّ جنسية أنت؟ من لكنتك أدركت أنك لست من روسيا».

قلت: «أنا من لبنان أمضيت سنوات في روسيا أتعلّم الموسيقى واللغة والآن أود العودة إلى الوطن ولا أعلم كم سيكون انتظاري

هنا إلى أن تعود المواصلات الجوّية إلى طبيعتها بين بيروت وبودابست».

قال: «ما عليك إذاً سوى الاستفادة من عائق العودة لتتعرّفي ملياً إلى العاصمة، كما كراكوفيا المدينة الرائعة. فما من شبر في هذا الوطن إلا وقام على أيدي معماريين بارعين جعلوا من الكنائس والقصور آيات فنية رائعة».

شكرته على المعلومات القيّمة الداخلة في التعرفة، حين توقفت السيارة على باب دير الراهبات الفرنسيسكنيات مأوي المؤقت في فارصوفيا.

كان السكون التقيّ في استقبالي، نابعاً من مسام الحجر. شددت مرساة الجرس فتعالى نغم نحاسيّ اشتقته، ذكّرني بجرس كنيستنا وبفتيان الضيعة الذين كانوا يتناوبون على قرعه أيام الآحاد. أسكتّ حنيني بإعادة الكرة على مرساة الجرس، فإذا براهبة تطلّ من الباب وتتأملني ملياً إلى أن تذكّرت من أنا. بلهفة دعتني للدخول:

«رئيسة الدير الأم أورسولا هي خالة يوري مرافنسكي. معها نسّق إقامتك في هذا الدير وشدّد على أن تكوني في حمايتنا إلى أن تسمح لك أوضاع بلدك العودة. أين حقيبتك؟ أين حاجاتك؟». قرأت استغراباً واقفاً على جبينها، أحرجني.

لم أجب. كانت حكايتي مدفونة في أعماقي وكم كنت أتمنّى ألا أبوح بها. لكنّ الدموع التي انسابت من نبع عينيّ وشت على ما اقترفه غبائي في لننغراد. شعرت بذراعها تلف خصري وتقرّبني منها برفق. قالت:

«فلتطمئن نفسك. أنت هنا في أمان. تعالي معي، سأدلّك على غرفتك ثم ستتولى الراهبة المبتدئة هالينا الاهتمام بك. بعد ذلك نكون في انتظارك في الكنيسة لرتبة القدّاس المسائية».

ما أعطي لي أن أعيشه في هذه اللحظات بإيمان صادق لم يكن الخاتمة السعيدة لتجاربي. كانت بولونيا، لاسيما هذا الدير محطة ضرورية يستعيد فيها المسافر أنفاسه لمغامرة أخرى. ففيما كنت أحفّ جسمي الوسخ بالليفة الخشنة والصابون المعطّر بالغار، وأنا أشكر الله لكونه تذكّرني بعدما فقد آثاري في روسيا الملحدة، تعالى من أعماق نفسي ذلك النشيد الذي كنت ألجأ إلى ترداده للشاعر الهندي ربندرانات طاغور، صلاة أعزّم بها غياب ميرا، كقطعة مسلوخة من قلبي:

«على المسافر أن يقرع جميع الأبواب قبل أن يبلغ بابه، فبعد التيه خارج نفسه، شارداً، ضالاً، يعود ليبلغ في النهاية بيت جسده».

لا أدري كيف نكش هذا النشيد طبقات ذاكرتي، وكرج مع رغوة الصابون يبلسم أماكن الكيّ من جلدي. كنت آنذاك في عمر السنابل الخضراء أبحث عن ذاتي الشاردة في كتب جبران وطاغور.

كنت مدعوة في هذا الدير لأن أعيش حياة الراهبات فأقاسمهن الخبز والماء والقربان، ما دمت مقيمة في ضيافتهن.

أصوات الراهبات سمعتها ترانيم رقيقة متصاعدة كالبخّور من الكنيسة. كانت كلّ راهبة في هذا القدّاس المسائي، تقدم أمام المذبح أتعاب النهار ونواياها. ركعت ونفسي تطلب الرحمة

وجسدي يطلب من أمّ يسوع أن تمحو عنه آثامه.

كان مضى زمن لم تطأ قدماي كنيسة ولم أستمع إلى كاهن يقرأ من الإنجيل فصلاً. كانت رتبة القدّاس بالفرنسيّة ما ساعدني في دخول صميم الكلمات والكاهن يقرأ من إنجيل لوقا وصايا يسوع للإثني عشر، كأنّه بهذا الفصل، يتوجّه إليّ.

«لا تحملوا للطريق شيئاً، لا مزوداً، لا خبزاً وفي أيّ بيت دخلتم، أقيموا فيه ثم ارحلوا، وأمّا الذين لا يقبلونكم فاخرجوا من مدينتهم وانفضوا الغبار عن أقدامكم شهادة عليهم...».

في الصّباح دخلت الأخت هالينا إليّ حاملة ملابس متواضعة قالت إنّها كانت لها قبل أن تكرّس حياتها لله «سأكون سعيدة في ما لو رأيتها عليك». ثمّ قالت: الرئيسة العامّة الأمّ أورسولا في انتظارك في مكتبها بعد أن تكوني تناولت فطور الصّباح مع أخواتنا».

برفقة الأخت كاترينا التي استقبلتني البارحة، دخلت إلى مكتب رئيسة الدير. من نظراتها المحدّقة فيّ علمت أنّ الإنسان الآتي إلى هذا المكان المغسول من خطايا العالم، عليه أن ينطق بما في نفسه ليستحقّ إقامته برفقة راهبات متعبّدات لله دون سواه.

كان ظنّي في مكانه. طلبت منّي أن نتحاكى بقلب نقيّ يحطّ الثقة بيننا. باقترابي منها وجدتها جالسة على كرسي جرّار، أسرعت في إعلامي بأنّها أصيبت منذ فترة بشللٍ نصفيّ أقعدها عن المشي.

دخلت فوراً في صلب الموضوع:

«مجيئي إلى ديركم كان مفاجأة كبرى بالنسبة لي. إذ لم أكن

أعلم بأنّ يوري مرافنسكي رئيس أكاديمية تشايكوفسكي اهتم بقضيتي وفعل مع زوجته نينا المستحيل لتحريري من السجن».

كانت تعابيرها مجمّدة فيّ تنتظر شرحاً أطول.

قلت: «قصّتي كتاب لا تعدّ صفحاته ولا تحصى. فمن أين يا أمّي تريدينني أن أبدأ؟».

من ذلك اليوم الذي ولدنا فيه أنا وميرا بدأت حكايتي والأم أورسولا كتمثالٍ من الشمع لا تأتي حراكاً، إلى أن قرعت باب الدير أطلب مأوى لي ولكماني.

سألتني: «هل علم ابن أختي يوري مرافنسكي بما حدث لك في السجن من سوء معاملة وإجرام؟».

قلت: «أعتقد ذلك. وإلا لما أخذ الإجراءات السرّية مع زوجته لإخراجي من هذا القبو المشبوه، المسكون بالغرائز الوحشيّة».

كأنّها اتخذت قراراً هاماً، إذ قالت:

«أنت بحاجة إلى زمنٍ من النقاهة الجسدية والنفسية. وستتولى كلّ راهبة هنا في هذا الدير السهر على عافيتك، إلى أن تصبحي في وضعٍ يمكّنك العودة إلى بلدك».

شكرتها على عاطفتها وكرمها وفي بالي طلب. لاحظت ما يدور في فكري إذ قالت:

«قولي ماذا تودّين فعله؟».

أجبتها فوراً: «أودّ أن أجد عملاً في مجال الموسيقى فشهاداتي جديرة بأن تفتح أمامي سبلاً للعيش. ثمّ وبعد أن انقطع خيط المراسلة بيني وبين الصحيفة التي كنت أكتب فيها بعض التحقيقات، سأحاول مجدّداً بواسطة التكنولوجيا الحديثة أن أرسل مقالات أجد فيها روابط ثقافية وفنّية بين بلدينا، حتّى إذا جمعت المبلغ الكافي من عملي، صار بوسعي العودة حين تهدأ المعارك في بلدي».

لم أقرأ في نظراتها موافقة. كنت تلك المجرّبة في آثام السجون المحتاجة إلى مطهر من الصّلوات والتأمّل، والصمت لأبرأ. أتى الشرح واضحاً لا لبس فيه:

«اسمعي يا عزيزتي. هذا الدير ليس فندقاً ولا نزلاً، يسمح فيه بالخروج والدخول حسب الحاجة. هنا وبإصرار من يوري قبلناك ضيفة خاضعة لقوانين الدير».

تراءت لي جدران هذا المكان تطبق على صدري كالسجن. خشيت أن يعاودني رهاب الاحتجاز هذا الخوف المرضيّ الذي فتك فيّ في القبو. تعمدت التهذيب واللياقة في حواري معها:

«لعلّ الأوضاع في بلدي طويلة الأمد، والمطار مقفل يمنع عودتي إلى وطني في الوقت القريب. لا أريد أن أستغلّ ضيافتكم دون أن يكون بإمكاني أن أردّ للدير شيئاً من مكافآته لي. الموسيقى والكتابة عالمان اختارهما الله لي لأسير بهما على طريق العمل والعطاء»...

لم تدعني أكمّل ما في فكري إذ كان عليها ما تقوله لي:

«أفهم الآن أنّ الدير لا يمكنه أن يكون مسكنك فأنت علمانية، متحررة، نبذتك الحياة من جهة، فتلقتك من جهة أخرى في صراعك الجريء للتفوّق والنجاح. اذهبي بسلام وابحثي لك عن عمل. نحن هنا في انتظارك كلما شعرت بالحنين إلى قدّاسنا المسائي».

العبارة الموضوعة فوق المدخل إلى صمت الدير وسكونه كانت تختصر قوانينه ونظامه. من ميثاق السلام للقدّيس أغوسطينوس كانت الكلمات تستوقفني، فأرفع رأسي عالياً لأغدو في محاذاتها وأقرأ:

«سلام البيت هو التآلف المنسجم بين أفراده في الأمر والطاعة».

الأيام التي أمضيتها في الدير أشارك الراهبات صلواتهن وطعامهن المتواضع علّمتني أنّ راحة الجسد والنفس تكمن في هذا السكون الذي شيّدت عليه دعوة هذه الرهبنة. فحتّى الخفّ الذي ينتعلنه مصنوع من مادة تلمس الأرض ولا تحدث فيها صوتاً. فهل كنت من المدعوّات إلى هذه الحياة ونفسي توّاقة إلى السفر، إلى الأرجاء الواسعة، إلى الموسيقى والكتابة؟

إقامتي بين نساء أقفلن على ذواتهن لا مرغمات، بل بفرح الاغتسال من خطايا الدنيا والارتقاء بأرواح نقيّة إلى الله، كانت تجربة صعبة إنّما مختلفة عن التجارب التي عشتها حتّى اليوم.

بعد قدّاس المساء جئت إلى الأمّ أورسولا مودّعة، وفي يدي رسالة عرفان لمنقذيّ يوري ونينا، أتمنّى إرسالها لهما بواسطتها:

«عبارات الشكر ليست كافية لأصف ما في نفسي من سلام وسكينة ضمّدا جراحي والكدمات السوداء المستبدّة في ذاكرتي. وإذا اخترت الذهاب الآن فلكوني حَطَتُّ هنا بثقلي وأوراقي ولا شيء لديّ أعطيه للدير مقابل العافية التي قدمها لي».

كم كنت أودّ أن أكون من طينة تلك المدعوّات إلى راحة النفس العاقلة، المنسجمات بين الفكرة والعمل. قالت:

«في أقصى الحديقة، غرفة ومنتفعاتها، هي مقفلة الآن مذ تركنا توماس البستانيّ. بإمكانك الإقامة فيها قدر ما تريدين، وأن تعتني بالحديقة بعدما غمرها اليباس. ولا تنسي القدّاس المسائي. هنا في تأمّلاتنا نبحث بنيّة العثور، وبقدر ما نعثر نواصل جهودنا في البحث».

شعرت بروحها الواسعة، تحتضنني ولا تريدني شاردة في هذه الجغرافيا الشاسعة ولا أدري من أيّ جانب أسير فيها للبحث عن عمل يعيلني في حياتي الزهيدة ويؤمّن لي من تقتيري على نفسي نفقات العودة إلى الوطن.

هكذا أشرقت شمسي على الحرّية تحت سماء فارصوفيا الملبّدة

بالغيوم الحاجبة عنها شمس الكون. كانت لديّ غرفة، جهّزتها هالينا الراهبة المبتدئة بما يلزمني من فراش وغطاء صوفٍ وطاولة للكتابة ولوازمها، وحديقة صرت أغمر أجمامها بحناني وحبّي للورد والزنبق، كما كانت جدّتي نسيمة تتصرف مع أحواض الحبق والمنتور والفلّ.

بغضون أيّام من الريّ والتشذيب وإيقاف التيجان الملتوية وربطها بعيدان صلبة، عادت الابتسامة إلى حديقة الدير، وبرزت من بين ما كان يابساً براعم واعدة بالحياة. من نافذة غرفتي أحاكي أجمام الورد فأشعر وكأنّها تتجاوب معي مدينة لي بالحياة كما كنت مدينة لهذا الدير الذي لم يطلب مقايضة على عطاءاته سوى أن أعيد إلى الدير عطر وروده.

في هذا المكان المنفرد عن حياة الراهبات بدأت حياتي الجديدة، أهيم في النهارات أبحث في المراكز التي تتكوّن فيها الفرق الموسيقية عن مكان لكماني، وفي كلّ مرّة أخرج آلتي من قميصها وأقدّم من قدراتي نماذج كانت تلاقي فوراً استحساناً ووعوداً، إلى أن حدث ما لم أكن في انتظاره. هكذا انتميت إلى فرقة من الغجر، كانت لها شعبيتها في عوداتها إلى فرصوفيا السنوية، تعيش حياة الغجر الرحّل، محمّلة بألوان من الموسيقى الفولكلورية والكلاسيكية.

في ذلك الصباح وأنا في طريقي إلى جمعية المؤلفين البولونيين القائمة في الجهة الشمالية للساحة التجارية، رأيت جماعة من النساء بتنانيرهن المبرقشة والرجال ببزاتهم المطرّزة، يحتلّون الساحة. بلحظات كانت موسيقاهم في كلّ مكان، والناس يتحلّقون حولهم، لهذا العيد الغجريّ الموسميّ. هذا الاستعراض لم يكن

مفاجأة لأهل فارصوفيا بل تقليداً منتظراً في شهر تموز، حين تصل فرقة الغجر بنسائها ورجالها، بعازفيها ومغنّيها وراقصيها إلى العاصمة البولونية، تحطّ فيها أياماً وليالي ثم تكمّل تطوافها في المدن والقرى إلى أن تناديها بلدان أخرى من أوروبا الشرقية، وفي كلّ لحظة يعود إرث الأجداد يتفجّر من ينبوع هؤلاء المستسلمين لأهواء الموسيقى، على هامش الأنظمة سائرين، يكسبون رزقهم من النقود التي يرميها المتحلّقون في قبّعاتهم، ينامون تحت سماء الليل، يقرأون في النجوم خبر ولادة ورحيل، يرون في النيازك الشاردة طالعهم.

من الموسيقى المتصاعدة من أعضاء الفرقة بديناميتها، بفقشها الإيقاع المحموم بالدفوف والسنبالوم والكمانات والنايات، عمّ طرب مثير بين المتحلّقين، وراحت النساء يتهادين كلّما قويت وتيرة النغم وانسابت شراراتها في أجسادهن.

أحاول وأنا أعيد هذا المشهد على ورقتي، بحذافيره، ألا تفوتني ذرة من حبّات هذه المسبحة التي أتى بها القدر إلى هذه الساحة العامة، لتغيّر مجرى حياتي.

ففيما كنت أحاول شقّ دربي بين الجموع لأرى عن كثب ما يجري، لمحت جنّية من جنّيات الأساطير تغزو الحلبة فيتراجع الموسيقيون في حلقة حولها، وترتفع وتيرة النغم وتغمرها بهالة سحرية استثارت جسدها فراح يتلوى كثعبان، ويترنّح سكراً كلما هيّجت الموسيقى كلّ مفصل من مفاصلها. على مدى دقائق كانت هي نجمة الفرقة، فتاة لا تتعدى سنّها الخامسة عشرة، سمراء ملوّحة بشموس الصيف والتيه في رحاب المواسم، جريئة في اقتحام الحلبة تمدّها ضفيرتها السوداء المشكوكة بالأزهار والشرائط الملوّنه ثقة ونفوذاً. مولودة للإغواء، واستثارة حمية الجموع حولها. بلحظة

رأيت ضارب الدف يركع على ركبة واحدة عند قدميها، ليستفز عصبها المستنفر، فيما صدح صوت نسائي ينشد بلغة إسبانية نغماً أندلسياً قديماً. تباطأ إيقاع الراقصة، متوازناً مع النواح الفلامنكي وإذ بي أسمع الرجال يهتفون للفتاة حماسة بصوت واحد: «هاتي رقصة الغفران يا ميرا».

لا أدري عند سماعي اسم ميرا، كيف حدث ما حدث. كأن قوة خرجت منها وخرقت فيّ. قوّة جهنمية فاقت أسرار الغياب والموت، دفعت بي إلى الحلبة وكماني بين العنق والكتف يصالحني في باحة الحرّية هذه مع ذاتي. كنت مع ميرا الغائبة، الحاضرة، أنهل من جنون باغانيني، أسيرة تلك المقطوعة الشيطانية التي كانت على وشك الولادة فأجهضتها مارينا بيدها، في تلك الليلة التي قرّرت فيها موتي.

توقف العازفون وتسمّرت ميرا الغجرية في مكانها، كأنّ طيراً سحرياً وقف على قمّة رأسها وحوّلها جماداً.

اللحظات التي عبرت أرست في هذا العيد الغجريّ لوناً تراجيدياً آسراً، نقيض الابتهاج الشعبيّ الذي أشعله العازفون بنيران آلاتهم.

كنت في هذا الانخطاف السحريّ أعيش الموسيقى، أحقنها دماً جديداً في دمي وحولي سكون لا يوصف، تحوّل فيه المهرجان الغجريّ إلى قدّاس أسود، وميرا الغائبة، الحاضرة، تسكب فيّ دفقاً خرافياً وصوت معلّمي يحاكيني كما بالأمس «لا تنسي أنّ ما يجعل العبارات على الكمان تعشق بعضها، هو النبض الذي يرافق القوس منذ النوطة الأولى ويبقى مستنفراً حتى آخرها». كان يصرخ حين أتلو الدرس كما علّمني إيّاه:

«الحرّية، الحرّية، إنّما بنظام ومعرفة».

حين توقّف شيطان باغانيني عن وسوساته لي، وعدت من أرض بعيدة إلى تلك الحلبة، كان فصل جديد من كتاب حياتي ينفتح على مصراعيه. ارتفع التصفيق حاداً، حارّاً يطلب مزيداً، وأنا أستفيق من سطوة باغانيني لأعيد الحلبة إلى ناسها. لمحته يفترق عن رفاقه ويأتي إليّ. مديد القامة كان،كرمح لم تلوه مآس والبريق المشعّ من عينيه الخضراوين حارق، يستولي على محدّثه فيذيبه. لم أفهم ما قاله. قاومت السحر الواقف بيننا وقلت:

«اللغة الفرنسية أو الروسية» وقلبي يرفس قضبان صدري ولعاً.

بلغة فرنسية مثقلة بلكنة أهل الدانوب قال:

«كيف باستطاعة امرأة أن تعزف بروح باغانيني إن لم تكن مسكونة بشيطانه؟».

أجبته ونظراتي في الأرض احتراساً من وهج عينيه:

«الكمان هو حقل اختبار لي وحواري مع ذاتي. إنّه حقيقتي ومرآتي السحريّة».

الكلمة الأخيرة التي قالها كانت مفتاح ترحال لي:

«اتبعينا. الموسيقى هويتنا ولغتنا. والقانون العارم هو الحرّية. غداً سنكون في كراكوفيا. عنواننا الساحات، وسقوف بيتنا نجوم السماء».

كنّا أنا وميرا في عمر السنابل الخضراء نحتفل بشروق المشس ومغيبها في ثوب فتيات الحكايات وجنّياتها. وحين تبخّرت ميرا في الكون الفسيح، جعلت غيابها حاضراً فيّ حتّى غدونا اثنتين في واحدة. وها هي تعبر دربي وتأخذني بشحتاري الأسود إلى امتحان آخر من الوجود لا أعرف إذا كان نفقاً طويلاً أم ضوءاً.

في تلك الليلة التي ودّعت فيها الراهبات وورود حديقتي للّحاق بفرقة الغجر عادت قصّة الغراب الأسود إلى ذاكرتي، في هذا الكتاب القاتم بسواده، وصوت أمّي يروي ما تقوله كلّ صفحة وإصبعها واقف على الأماكن الحالكة من الكتاب. تحرّك العمر القديم فيما كنت أجمع حاجاتي الزهيدة تأهّبا للرحيل:

«هي قصّة غراب أسود، حمل مزماره تحت جناحيه، وراح يعبر الأثلام المفلوحة في الحقول بنفس حزينة.

قال في سرّه: «كم كنت أودّ أن أكون عصفور الجزر، عصفور الفردوس بألوان بهيّة، تتوّج رأسي قنزعة ويتهادى ورائي ذيل وإذا صدح صوتي، ملأ الدنيا تغريداً لا نعيقاً. لكنّي لست شيئاً من كل ذلك. أنا أسود، أسود كالبيلسان الناضج، أحلم باللون الأحمر، بالأصفر، بالأخضر والفضي، تتماوج على ريشي الفاحم. ريشي يرتعش مع الهواء».

كان يمشي في الحقول وعيناه في السّماء تلاحقان الطيور الملوّنة، تناديها: «انظري إليّ أنا أسود كالشحتار، كلّي سواد. ليت ريشة بيضاء وجدت لها مكاناً لديّ لكنت شبيهاً بالقندس أتختّل مثله ببدلة السهرات».

وفيما هو يحلم عالياً بالأدغال الاستوائية والطيور الملوّنة، بدأ الثلج ينهمر، ناعماً، هادئاً، على الحقول. تنهّد الغراب وقال: «ها هو البرد آت.» وعلى منعطف درب التقى بشاعر عجوز يتنزّه، لاحظ قنوطه فسأله:

«ما بك أيّها الغراب؟» أجابه: «ليس لديّ أمل. سأبقى أسود، هذا مصيري، إلا إذا كنت من الجان قادراً على أن تغّير ما منيت به من لعنة هذا اللون».

«جنّ؟ ساحر؟ كلا. فأنا لست سوى شاعر. لكن أودّ أن أعرف السبب الذي يجعل لونك مصدر بؤس وخيبة. اللون الأسود يذكّرني بالحبر البرّاق الذي أكتب به، يذكّرني بالليل حين تفرش الأحلام بحيراتها، بالظلّ الدافيء. وأكثر من ذلك فاللون الأسود يجعل سائر الألوان تغنّي.

اسمع، إذا مررت بحقل من الشقائق، تبدو لك حمراء قانية/ وتحت جناحيك القاتمتين/ تبدو السنابل كالذهب في موسم الحصاد/. والآن انظر من حولك».

تقدّم الغراب خطوة، وهو يتطلّع إلى قائمته ترسم على الثلج الأبيض أثره. انتفض ريشه فرحاً وهو يصرخ بصوته الأجش:

«ليس هنا على هذه المساحات البيضاء سواي.» وقام يحلّق تاركاً على هذا البياض أثراً مكتوباً بحبره الأسود.

كنت أنا ذلك الغراب حتّى سمعت الغجريّ يقول لي: «اتبعينا».

«اتبعينا». كلمة كانت كالرقية سربلت تفكيري من وطأة السحر التي نزلت عليّ، ولم أحسب للطريق الصّحيح حساباً. وعن أيّ طريق، والغربة وطني؟

لم أكن من أتباع لاوتسو الفيلسوف الصينيّ الذي لجأ إلى الألغاز والأمثال في سعيه لاكتشاف الطريق، لكن في أخذي قراراً مبهماً كهذا صرت أستعيد طريقة لاوتسو التي لا تؤدي إلى مكان. هي سلسلة تساؤلات، تثير الأجوبة على كلّ منها سؤال آخر، الشيء الذي يجعل الأمر غامضاً والسبيل إلى الانفراج عاجز عن إضاءة قنديل المصير.

حملت كماني ومضيت إلى كراكوفيا تاركة لهذا القدر الذي ما ملّ من تخريب وبناء كلّ نفدة من حياتي أن يتولّى هذا الفصل الموسوم تحت إشارة الصدفة. كنت في غاية السعادة لهذا

الاستسلام الغبي للقدر وكأنّي عثرت على ميرا والضفيرة المتدلية على ظهر الراقصة الصغيرة ضفيرتها والبريق الثاقب المشع من الغجرية، بريق عينيها.

نزلت مع عشرات السياح من الحافلة في ساحة «ماريا كي»، ونظراتي المشتتة تبحث عن ميرا، وأذناي مسنونتان لالتقاط صدى إيقاع الدفوف ورهجة الكمانات والنايات، لكنّ المشهد من حولي كان من المعجزات المعمارية التي تلهي السائر عن مواعيده.

لقد كانت هذه الروائع من أنصاب وكنائس وتحف فنية هائلة، حيّة أمامي، تروي تاريخ كراكوفيا كمن يرصّع حجارة كريمة في الذهب. شعرت بالمكان يمتلكني، يتنفس شعراً وموسيقى حميمة، نقيض حيوية ساحة السوق التي استوت فيها خطواتي.

تمهلت. كنت كإسفنجة عطشى إلى الجمال. شعرت بالكرة الأرضية تتوقف هنا هنيهات، تنهل من محترف صائغ كراكوفيا أفكاراً، قبل أن تعود إلى دورانها. وكنت كالأرض نهمة إلى لمس الحجارة، التخاريم، التماثيل، أدوّن ما أرى في دفتري فتتسع الصفحات لخيالي. هذه الأشغال المصنوعة بأنامل حرفيين من العصور الماضية كانت وأنا أكتب، تروي لي تاريخاً مزدهراً بالفنون. اقتربت من الكوات المنقوشة في جسم حجر الكنائس، أقرأ ولا أفهم عبارات باللغتين اللاتينية والبولونية. لم أتردد. دخلت وباب الكنيسة مشقوق يدعو إلى الصلاة. كان كاهن عجوز ينزل بقايا الشموع الذائبة عن الشمعدانات. تمنيت لو يمدّني ببعض المعلومات عن هذه الساحة. قبل فوراً وخرج معي شارحاً لي بلغة فرنسية مطعّمة باللكنة البولونية ما كنت أودّ أن أعرفه:

«أنت هنا في ساحة مارياكي أي القديسة ماريا. جمال هذا المكان أوحى إلى المخرج السينمائي ماريوس أندرس مشاهد لفلمه «محترف الصاغة» المقتبس من كتاب «كارول وجتيلا» الذي هو الآن البابا يوحنا بولس الثاني. أمّا هذه الشواهد المنقوشة في كوات الكنيستين فهي تعود إلى القرن السادس عشر». ثم استدار نحو واجهة منزل وقال: «انظري إلى هذه اللوحة التذكارية إنّها تخليد للكاتب المسرحيّ ستانيسلاف فيسبيانسكي الذي ألّف في هذا البيت مسرحيته الشهيرة «العرس».

لكنّ أهمّ ما في هذه الساحة هو اللامرئي منها. ارتفاع المباني ضمن لها هندسة صوتية فريدة شبيهة ببئر عميقة، بحيث نسمع الهمسات الأدق أو الأنغام الآتية من الجنوب فيلتقطها الجو هنا بحذافيرها.

لقد كان على حق. ففيما كان هذا الكاهن اليسوعيّ يشرح لي كيف ولدت تلك الآيات الفنّية على جرفيين كراكوفيين بدت لي موسيقى غجرية تتقدم من سمعي. ويعلو صوت الناي منفرداً يوزّع في أجواء كراكوفيا ألحاناً فرحة، طريفة من أعراس أهل الغجر وتقاليدهم الشعبية. شكرت الكاهن على الإيضاحات التي أعطاني إيّاها، ورحت أركض مع الهواء في اتجاه الصوت. كانوا بألوان الحياة الفاقعة في هذه الساحة الكبيرة المشرّعة على الضوء، الفاتحة مظلاتها الملوّنة لاستقبال السياح الصيفيين في المقاهي المترامية بطاولاتها وكراسيها البيضاء على الأرصفة الواسعة.

هل كان فرانز في انتظاري حقاً؟ كلمة واحدة قالها لا غير، حوّلتني إلى غجريّة من ذلك الدمّ الحار الذي يحرّك عصب الموسيقى ويقترف جنونها. كنت مندفعة إلى هذه النوبة من

الخارجين عن حدود الهوية، بحثاً عن هوية موسيقية تحررني من انتماءاتي الأصلية.

ميرا هي التي رأتني واقفة، أنتظر إشارة لأخرج كماني من علبته. ركضت إليّ وغمرتني بذراعيها النحيلتين. لم أذكر أنّنا أنا وميرا كنّا نتعانق. لقد كنّا شبه ملتصقتين ببعضنا. نغني معاً، نعزف على البيانو معاً، ونركض مع جنان في البرّية بحثاً عن الإله بان ومزماره، نحتفل بطقوس الزرع مع الإلهة ديميتير.

أخذت رأسها بين يديّ ورحت أقبّل جبينها وعينيها وهي مستسلمة لهذا العناق. ثمّ أخذتني من يدي ومعاً التحقنا بالموسيقيين، والنّاس حولنا يتكاثرون.

في هذه القبيلة الملتصقون أفرادها ببعضهم كالنحل على قرص العسل، أدركت أنّ فرانز قائدها، آسراً بحضوره، جذاباً. يعرف كيف يستولي على كافة الجماهير المتحلّقة، من ساحة إلى أخرى ومن مدينة إلى مدينة بسحر مزماره، يوقظ به الحنين إلى التراث، ورائحة الأرض. كان شريداً بجسده، ملتحماً بهويته المجرية.

أعطى الإشارة فانطلق العازفون يزفون عرس الرقص الشعبيّ من براهمز إلى دفورجاك بموسيقى إيقاعية، مكهربة. كانوا من جبلة طبيعة بلادهم، يأخذهم نهر الدانوب في مجراه، وعلى ضفافه يعبرون ترحالهم. انتقلت عدواهم إليّ، وفي نفسي المضطرمة المشتاقة للإفلات من سنوات عمري البائسة، إلى ولادات جديدة، صرت أشعر بشبابي يتفجّر فيّ. كانت ميرا بجديلتها السوداء الفاحمة، تمدّني بهذا الشيء الناقص من حياتي. وكنت وقلبي يرقص فرحاً، تحت تأثير جاذبية فرانز، عاشقة، وحدها القوس في

يدي قادرة أن ينقل إليه ما في نفسي من حبّ غجريّ.

بإيماءة منه كنت في وسط الحلبة، وبين القوس والأوتار لحن اتفقنا عليه منذ البارحة، أعبّر به عن حبّي لهذا الرجل الذي جعل من الطبيعة مأواه. «جنيّة الهاجرة» هذه القصيدة السمفونية لدفورجاك كانت رسالتي إليه، أتبعتها بفقرة من أوبرا «روسالكا»، قبل أن تتكوّم الفرقة حولي ومعاً نعزف نشيد الفلاحين.

منذ ذلك اليوم صارت موسيقاي تدرّ عليّ نقوداً، يوزّعها فرانز باعتدال بيننا، وأنا أدّخر ما أتلقّاه في حقيبتي الصغيرة وفي نيّتي العودة ذات يوم إلى وطني.

أحببت فرانز بهذا الشعور الجديد فيّ. الموسيقى المنطلقة في أجواء من الصداقة والألفة غسّلت كماني من آفات السجن، وأعادت إليه اعتباره. لم أكن في هذه الأجواء المؤاتية لشفائي مما مررت به، أحسب لطبيعة الغجر الملتهبة دوماً أكان الأمر عرساً أم رثاء، حساباً. كنت بكلّ ما لديّ من طاقة إلى العطاء على يقين بأنّي هنا بين أهلي، في عشيرتي. كم ساذجة العاطفة تلوّن الدنيا بألوان الفرح حتّى تبعد عنها الوجع. كأنّ مآسي الحياة لم تلقّني دروسها.

انتظرت وقلبي يخفق شغفاً أن يأتي فرانز إليّ فكلمة «اتبعينا» قرأت فيها رسالة حبّ منه إليّ. وبقدر ما يطول الانتظار، كانت معزوفاتي في الأماكن العامة تتسوّل حبّاً، تزغرد فرحاً حين يرافقني على الناي وفي آن أشعر أنّ هذا الساحر في مناداة طيور الجنائن إلى موسيقاه لم يكن شهوانياً، أو كان في صراع ليسكت رغباته، حتّى يظلّ المثال في قبيلته. كان فعلاً متعففاً في مقطوعاته.

من كراكوفيا نقلنا القطار إلى براغ وبجانبي ميرا تحاكيني بلغتها فلا أفهم سوى الطفيف الطفيف مما تريد قوله. كانت يتيمة الأمّ، وضعها والدها في ميتم في صربيا حين رفضتها زوجته الثانية. هربت ذات يوم والتحقت بالغجر، ترقص معهم لتعتاش. كان فرانز يعاملها معاملة الأب لابنته فأشعر بالغيرة تأكل نسرات من قلب ماغدالينا المغنّية الوحيدة في الفرقة. مع الوقت صرت ألمس ما في نفوس أفرادها من ضغائن. ماغدالينا كرهت ميرا ثم نقلت كراهيتها إليّ. خشيت منها شرّاً فابتعدت قدر المستطاع أخفي حبّي حتّى لا أقع في مطب آخر من تلك المطبات التي جعلت حياتي في روسيا ظلمة.

الفندق الذي نزلنا فيه كان من الفنادق المتواضعة التي بقيت على حالها بعد تحرير براغ من الغزو النازي وإقامة النظام الشيوعيّ فيها.

إطلالته على نهر فلتافا لم تكن لتحسّن شيئاً من مستواه الوضيع بل أغدقت عليه جواً من تلك الشاعرية التي أوحت إلى الشعراء والموسيقيين أجمل مؤلفاتهم.

براغ وطن «راينر ماريا ريلكه» الشاعر الذي فتنني بقصائده وأنا في جامعة الآداب، أبحث في قراءاتي له عن هذا العاشق للجمال، الباحث عن الرّوح والحقيقة، عطشى إلى إيقاع قصائده، للخلق والحبّ، في توافق وانسجام مع القلق والكآبة.

وبراغ وطن كافكا وكم من المرّات أعدت قراءة «التحوّل» وأستجدي من هذه اللغة الدقيقة ضوءاً أدخل منه إلى عالمه الخيالي الفائق بالانطباعات الواقعية. لقد كنت هنا على أرضها ومتاعي كمان ودفتر يمتليء بسيل اكتشافاتي ومعاناتي. وأكثر من ذلك كنت من طينة ريلكه، عابرة، لا مأوى، لا ثبات. والتيه أعطاني

نعمة أن أنسى وألّا أتذكّر، حتّى أراهن على كلّ يوم بيومه، مبتورة من أمس ميت ومن الآتي لا شكل له ولا ملمس.

مع فرقة الغجر، وعشقي الخفيّ لفارنز، صرت أشعر بدمي يبثني حياة وشهية لالتهام الدنيا.

أجل! لم أخجل من حبّي لهذا الرجل المنساب على دروب الوجود كمياه نهر فلتافا. كنّا نعود ليلاً إلى الفندق بعد أن نكون قدّمنا عروضنا وكلّي أمل أن ينضم إليّ فأحيا معه ما كلّمته به عبر كماني.

كان كلّ واحد في الفرقة يعمل على كسب عاطفة فرانز، من «آنا» التي كان الإيقاع لها بالصنّاجات في أصابعها والدف، إلى «ماغدالينا» ذات الصوت الرثائي الآتي من عمق الأندلس، إلى «نيكولاوس» الطبّال و«بيدريش» و«فريتز» على الكمان. فرانز كان وحده يتعامل مع عدّة آلات هوائية، يوزّع منها رقيات سحر.

الآن وأنا أجمع ذكرياتي على هذا الدفتر، أعود بفكري إلى ذلك المساء والشمس في وداعها وراء الشجر. شعرت وميرا منخطفة في سحر المزمار، تدع جسدها الرخص يروي مأساة حياتها تحت نظرات ماغدالينا العابسة وآنا المتفرّسة بهذه الطفلة بقساوة حاقدة. ارتجفت مفاصلي خشية عليها. ففي تقاليد الغجر أعراس دم وثأر وتصفيات. بإيماءة من فرانز دخلت الحلبة وصرت بالكمان أحاور الناي، وقحة باستفزاز أنفاس فرانز، جريئة في هذا القران العصبيّ بين الهواء والوتر. اشتعلت هتافات المتحلّقين يطلبون أكثر وأنا ألبّي النداء كفعل حبّ مع هذا الفارس، عارية من خفري، عارية في خيالي بين ذراعيه.

كان الليل ليلاً دامساً حين شعرت بجسد فرانز في فراشي. كنت في انتظار هذه اللحظة لأعيش الحبّ بروحي وغريزتي، ونذري أن أنسى ما حدث في السجون كي أهب فرانز جسداً ناصعاً مغسولاً بتأثير الموسيقى، لم يطأه أحد من قبل.

سمعت الناي يهمس أنفاسه في عنقي: «كوني لي» فيجيبه الوتر «أنا لك» ونحن في هذا العناق الكلّي نسبّح الموسيقى ونعلّق على حبالها آمالاً، لما وهبتنا إيّاه من نعم الحبّ وفي آن من مآس كانت تطبخ على نار غجريّة، فصلاً من فصول حياتي وحدثاً من أحداث جاءت في كتاب مصيري عند ولادتي ولم أحسن قراءتها. بل هبطتُ هنا تلقائياً؟ لا أدري. أعيش الموسيقى بشغف والحبّ يغدو قصّة ظننت كتابتها بروحي وجسدي في معناها المقدّس.

أقفلت على عالمي الصغير وأنا أقدّس الغرام بين ذراعي هذا الساحر الذي بقدر ما قدّس موسيقاي، أتلفني بحبّه. كنت تحت سيطرة نيرانه الحارقة، ما إن يمدّ لي يده حتّى أتعرّى من قشرة الخفر، جسداً شفّافاً، فيدرك ما تحت هذا الغشاء الرقيق من ارتعاشات تشعل رجولته، تفجّر عطشه الدائم إلى الأنثى، فيهيم فيّ قبلاً في أنحاء استسلامي، كسرب نحل يمتص من أزهاري رحيقها.

هذا الحبّ العاصف الذي كان يستوحي من صمت الليل جنونه لم يثبّت كياني بين قوم من الشتات، أيبست شموس الصيف قلبه، وقشّبت ثلوج الشتاء مشاعره. وحدها ميرا كانت ترقص وجعها، وتغلّ فيّ متعبة، بائسة، تبحث في حضني عن أخت أو عن أمّ، وكنت أغمرها اشتياقاً لأختي ميرا، كأنّي في هذه الصدفة التي التقيتها بها، أكتب دهشة لقاء خرافيّ في كتاب حياتي.

في ذلك الزمان كنّا أنا وميرا وشلّة من رفاق الحيّ نترقّب وصولهم حين تتعرى الشمس من كسائها وتتفشّى بأصابعها الحارقة على أماكن البؤس، على بيوت الفقراء، تشي على ما كان مستتراً أيّام البرد، وتخرجه نتناً، يفوح بالجراثيم والروائح الكريهة. كان ذلك واقع هذا الحيّ الشعبيّ الذي كنّا نعيش فيه، ونختبر فيه قدراتنا على تحمّل سيل تموز قبل أن تنادينا شمس جدّتي في قريتها الجبلية، العالية في برجها السماوي، لا تتحشّر في حياة النّاس ولا تذلّهم في فقرهم.

هذه الفقرة الأولى من الصيف ما زالت في ذاكرتي تنبعث منها ما كان أقوى من روائح البؤس، التعايش التلقائي بين أولاد الحيّ. فلا نكاد نخرج من سلطة الأهل وقوانين المنزل حتّى يتمّ الاختلاط والشمس واعية على محو الحدود بين ولد وآخر وإزالة الفوارق

المذهبيّة والاجتماعيّة. سيل تموز كان يجمعنا في عرقه، وروائح أجسادنا النامية.

كانوا يحطّون رحالهم في هذه البؤرة البعيدة عن البيوت. نقف على مشارفهم نتفرّج عليهم يثبّتون مضاربهم في الرمل لإقامة قد تطول أسابيع. كان اسمهم «النور» يأتون من الصحاري البعيدة بمواشيهم ودواجنهم، وغبارهم ودفوفهم. وبقدر ما يترسّخ مكوثهم في أرضنا، نتسلّح بالجرأة للاقتراب كلّ يوم أكثر من عالمهم، رغم تحذير الأهل لنا بأنّهم يخطفون الأولاد ويبيعونهم في بلدان أخرى.

لقد كنّا أنا وميرا مفتونتين بفساتين النساء المبرقشة، بالوشم المدقوق على وجوههن، بأيديهن المحنّاة بلون الأرض، بالغسيل المنشور على حبال يمدّونها بين شجرتي زنزلخت.

اليوم وأنا أقارن بين بدو شرقنا وغجر شرق أوروبا أجد كم الفوارق شاسعة. من البعيد أسمع إيقاع الدفوف والدربكات وغناء رثائياً من حناجر النسوة، تسطع حين يمتلىء القمر، ويوشّح الوجوه بلعبة غزل تلقائية، تدفع بالمرأة المختارة إلى الحلبة، ترقص بجسدها المثقل بالثياب والولادات وتترنّح، فالليلة ليلتها، تعطي ولا تنال من هذه اللذة المرصودة للرجال دون سواهم. أمّا هنا وأنا بين ذراعي فرانز أدركت كم العناق قائماً على معادلات تختلط فيها الغريزة الوحشيّة بروحية الإنسان المسكون بموسيقى الأرض. لكن بين البدو الرحّل والغجر كنت، وميرا من الهناك تشهد على ذلك، إنسانة من رمال الصحراء، متمرّدة على الأعراف، متأهّبة للرحيل دوماً. التجارب التي رافقتني على سكة حياتي علّمتني أن أكون تلك الفارّة التي يصعب اللحاق بها والقبض عليها. هذا ما تعلّمته من معلّمي إيغور مانياتوفسكي. لم أنس يوم قال لي:

«بتّ على يقين أنّ جذوري راسخة في خيالي، في موسيقاي، في تلك الصحراء التي لن أنتهي من عبورها».

هل تردد فرانز هو الغجريّ المقتحم الحياة بفروسية، قبل أن يسألني ذلك السؤال الذي لا يشبه في مضمونه سوى المتمسّكين بالقيم الاجتماعية التقليدية:

«أشعر بالغيرة تلتهمني وأنا في أحشائك أمتصّ عصارة أنوثتك، إذ أدرك أنّ عشّاقاً قبلي سبقوني إليك. قولي ولا تراوغي، كم رجلاً عشقت قبلي؟».

أسرع المشهد بفجوره وعويله، يكوّن ذاته في ذاكرتي المحطّمة يحظّرني من الجواب. بقيت صامتة، والصمت أقوى من الاعتراف، وأكثر تأكيداً على شكوكه.

هل قرأ في خاطري هرباً فيما لو أجبرت على الكلام؟ سمعت كلماته تخرق مسامي:

«لن أشبع من عناقك. فمن أنت يا امرأة؟ أرى فيك الأنثى الغامضة، الملئى بالأسرار، ولا مرّة في وجه الشمس ودوماً في عكسها».

وضعت أصابعي على شفتيه أطلب منه أن يغدق عليّ حبّه:

«لم أحبّ يوماً سواك. لم أتعرّ من خفر الأنثى التي تسكن فيّ سوى لك. خوفي الوحيد هو اليوم الذي ستسلخك ماغدالينا عنّي إذ تكون الإجازة التي أعطتك إيّاها على مضض لحبّ هذه الغريبة، قد انتهت».

تأمّل في ما أقوله وفي نظراته ذهول. لم يطلب شرحاً. الكلمات التي قالها كانت كافية لإضاءة لغز بدأت إشاراته تتوضّح مع الأيام:

«يا لك من ساحرة رهيبة. يوم سمعتك تعزفين «باغانيني» أدركت أنّك من نسيج شيطانه. تذكّري يا مايا أنّي زرعت فيك نواتي، إذا أثمرت يغدو وطنك دربنا، وتيهنا».

قال «وطن» فسمعت صوت جدّتي يناديني:

«عودي متوّجة بالنجاح. ولا تتأخّري فأنا بانتظارك.» وامتثلت أمامي صورة جنان تسأل عنّي روسيا وما من أحد يجيب. ففي الضفّة الأخرى من البحر، حكاية ليست ككل الحكايات.

مضت أيام وأنا أتنقّل مع الغجر من حديقة إلى بلدة، ومن مدينة إلى مدينة أخرى، عازفة كمان في النهار وحبيبة فرانز ليلاً نحيي طقوس الحبّ، ولدى كلّ منّا ذلك الشكّ بأنّ جزءاً من جسدنا لسوانا. كنت أشعر في عناقه العاصف لي تنقيباً في أعماقي، كأنّه يفتّش عن آثار، كأنّه يفكك هذه الساعة التي بين يديه علّه يلتقط زمناً مضى عالقاً في عقاربها.

كنت واعية لما يجري في فكره، واعية على كلّ ذرة من هذا الجسد المسكوب بيد الله للحبّ، مفتونة بأصابعه إن مرّت على بشرتي، مستسلمة لكتفيه حين تتقوسان وتنغلقان عليّ كصدفة محارة، هائمة في أخضر عينيه، كأنّي في بريقهما عثرت على مسكني. وكنت دوماً خائفة فللغة الجسد نهاية. نتكلم بلغتينا، نحكّهما كحجرين نارين، فنسمع شرارات تنبعث منهما. لغتي

ارتعاشات حبّ ودموع، لغته امتلاك ورغبة جنونية. بكلماتي أعانقه، أداعبه، بكلماته إطالة لفعل الحبّ، حتّى الرعشة التي بعدها صمت.

الموسيقى المنسوجة منها خلايانا نشعر بها حارسة حبّنا من الزمن، من الممنوع، من العيون الحاسدة، الرقيبة.

أكثر من الموت في السجون الروسيّة، كان خوفي من أن أموت حبّاً بفرانز. أين هي طفولتي؟ أمّي، أبي؟ ميرا وسهول القمح؟ أين جنان الجنّية التي أثرت فيّ حبّ المغامرة؟

يوم قصدت عيادة زياد مرجي، كان قلبي حداداً على حبّ ما استطعت الاحتفاظ به. قال لي وأنا مستلقية على الكنبة:

«في الحداد الحقيقيّ، الواقع يثبّت لك أنّ ما فقده القلب، مات فعلاً. أمّا في حداد الحبّ، فالحبيب لم يمت. أنت قررت إماتة صورته».

ما افتقدته مذ عدت إلى الوطن هو لغة العشق. الوطن الذي عدت إليه بمآسيه، بجنون جنان وموت جدّتي، كان منفاي. هذا ما قلته له وهو مستمر في القول:

«اكتبي. الكلمات التي يخطّها قلمك خير علاج لأزمتك النفسيّة. وظّفي ما جنيته من مآس في روسيا وما ادخرته من تيه وحبّ في بلدان أوروبا الشرقية في أوراقك. أسلوبك زاخر بالخيال، غنّي بالألوان القاتمة والمزهرة. أنا أتابع ما تكتبين في صحيفتك بلذّة حقيقية».

في تلك الليلة وطيف ماغدالينا عائق بيننا يحول دون احتكاك جسدينا الواحد بالآخر روى لي فرانز قصّة من تلك القصص التي تحفر قنوات في النفس ولا تلتئم.

«أذكر وكنت فتياً، أمّي «روزاريو» الفاتنة، الآتية من أرض الأندلس ترقص على الطاولة الوسطية في خمّارة يديرها والدي في ضواحي بلغراد. لم تكن معشوقة زوجها وحسب بل كانت لها المكانة الكبرى في قلوب الذين كانوا يؤمّون هذا المكان من شعراء وموسيقيين حتّى إذا تعتع السكر بعضهم، تحوّل رقص أمّي إلى غزل وشعرها الأسود الحالك إلى غنج ودلال.

المدمنون على خمرة هذا المكان، أصبحوا مع الوقت مدمنين على روزاريو وأنوثتها الطاغية، يحومون حولها بالكلام البذيء الذي كان يجعل الجسد الراقص يستنفر إغواء، ويرشّون تحت أقدامها المال.

كنت أجلس على كرسيّ صغير في محاذاة والدي شاهداً على ازدهار الحانة واعتزاز والدي بزوجته وقدراتها على جلب الزبائن. حبّه لها أعمى بصيرته. ما لاحظته أنا آنذاك رغم فتوّة عمري لم يلاحظه هو. كانت روزاريو تدرّ أرباحاً من فنّها وكان الأكثر سخاء في العطاء، شاعر صربيّ، وقع في غرام والدتي فبادلته لهب هذا الحبّ. وظلّت عينا والدي مغمضتين عما يجري من غزل إباحي بين أمّي والشاعر، حتّى إذا فتحهما ذات يوم فلكي يجد الطاولة الوسطية في الحانة فارغة من أمّي، والخزائن فارغة من ثيابها ومجوهراتها. الشاعر الصربيّ حمل أمّي على قوافيه وهرب بها إلى الضفاف الأخرى من الأنهار.

كانت المرّة الأولى أرى فيها والدي يبكي. برفقة شقيقيه مضى ينكش الأرض للعثور عليها. كنت أبكي لبكائه، لكنّني لم أكن أفهم كيف بوسعه البحث عن المرأة التي غدرت به ويفعل المستحيل لاستعادتها إلى بيتها: كان يردد كمعتوه فقد عقله: سأجدها وسأغفر لها ما فعلته بنا».

بعد سنوات على غياب أمّي، عاد ذات يوم من سفر طويل وبين متاعه امرأة بدينة، سمراء، ملوّحة بشموس البدو الرحّل. قال:

«إنّها ماغدالينا امرأتي الجديدة، مغنية فلامنكو هي، في ذاكرتها الغناء الشعبيّ الأندلسيّ».

رحّبت بها بخجل المراهق المكوّى من تخلي أمّه عنه، وقلت:

«أرجو أن تكون وجدت المرأة التي ستلملم دموعك وتنسيك روزاريو التي فتنت القلوب بجمالها».

الصفعة التي تلقيتها كانت البداية لعلاقة باردة مع هذا العاشق الذي استعاض عن الرقص بالغناء دواء للنسيان.

«لم أحاول المقارنة بين الحبيبتين. روزاريو أمّي كانت من جنس الفراشات، رقيقة، غاوية، في أخضر عينيها قنّاص يوقع العشّاق في تجاربهما. أمّا ماغدالينا فكانت نقيضها. صاخبة إن حكت، مستبدّة، جعلتنا أنا وأبي تحت إمرتها. خضع والدي لسيطرتها لما أوحته له من نزاهة واستقرار. كانت الحانة تمتلىء في نهايات الأسبوع للاستماع إلى صوتها الرثائي، المديد، الآتي من عمق التراث الأندلسيّ الأصيل.

«كانت ماغدالينا في الثلاثينيات من العمر وأنا في السابعة عشرة حين بدأت أشعر بنظراتها السوداء تحوم حولي، وتلقي بيدها على فخذي فأنتفض واقفاً ولا أفهم. دخلت ذات يوم إلى الحمام ووقفت تتأمّلني بشهوة أفقدتني رشدي. طلبت منها أن تخرج قبل أن أشكو أمري لوالدي. قالت:

«ستتعلّم لذّة الجسد بين يديّ. دعني أفعل، ولن تندم».

استسلمت ليديها وهي ترغي الصابون على يدها وتداعب به أنحاء جسمي، وأنا أشعر بوجع لذيذ يسري في ضلوعي. كانت هذه التجربة الأولى في حياتي، تخطفني من مراهقتي وتفعل بي ما تشاء.

«في تلك الأثناء صار أبي يشتبه بها أوّلاً ثم بنا. صار يراقب الصندوق ويتّهمها بالسرقة. بدا الهزال عليه والشحوب على وجهه وأنا تحت سطوة ماغدالينا، أعجز من أن أقاوم الشرّ المستفحل في بيتنا. الكلمة الأخيرة التي قالها لي والدي وهو على فراش الموت:

«اسمع يا فرانز! والدك لم ينجح مع النساء. الأولى أمّك هربت مع عشيقها والثانية استولت على الحانة وعلى جسدك الطريّ وتخلّصت مني بدسّها السمّ في طعامي. لا تكن ضحية رقياتها الضّارة. حاول التخلّص من سطوتها الشيطانيّة. إنّها الشرّ بعينه».

مات والدي بعد أن عجز العلاج عن إنقاذه.

لم أشِ بماغدالينا، رغم التقرير الطبّي الذي ذكر مادة سامة في طعام المريض. لم أبلّغ عنها. كنت أسير رائحتها وملك شهواتها.

كنت عن غير قصد متواطئاً في جريمتها.

انقلبت حياتنا إلى تيه في الدروب. وكبرت الفرقة وازداد عدد الموسيقيين وماغدالينا الآمرة لا يتجرأ أحد على مشاكستها. وحدها ميرا كانت تقف في وجهها، مطمئنة في حمايتي لها.

إلى أن وصلتِ هدية من يد القدر. القوس في يدك، تحزّ على الأوتار تحرّرني من طغيان ماغدالينا فأرتشف لذّة الحياة منك. قرأت حزناً صامتاً في عينيك أعاد إليّ إيماني بالمرأة. صرت أكنّ الكراهية والاشمئزاز لماغدالينا ولا أقدم على مجازفة قد أندم عليها».

كان فرانز يروي وأنا في فكري أتهيّأ للرحيل. هذا الجحيم يلاحقني. فرانز لم يستطع الإفلات من ماغدالينا وأنا من طينته أسيرة جنون الحبّ والشهوات المتحرّرة بلا قيد ولا شرط.

في تلك الليلة، بعد نهار ومساء من العزف في حدائق براغ كنّا حول مائدة الطّعام، أحاول أن أبتلع ذلك الحساء المالح، الحار، المرّ، ولا يجد قبولاً في معدتي. أبعدت الصحن كتعبير رفضي لهذا الطّعام فإذا بعيني ماغدالينا تتسمّران فيّ. وبحنق تتوجه إلى فرانز بنبرة عالية تحاكيه ولا أفهم، سوى أنّي محور نقاشهما الحاد لاسيما الحساء المالح، المشبوه.

وقفت عن كرسيي وأسرعت في الذهاب قبل أن أتقيأ ما في معدتي. ما إن وصلت إلى الغرفة حتّى رأيت ميرا وقد أصبحت بجانبي. أمسكت بيدي ودعتني إلى الجلوس بقربها على حافة السرير. ما قالته لي لم أكن واثقة من استيعابه. حركات يديها جعلت اللغة تنساب في إدراكي:

«أنت في خطر. رأيتها تدسّ قطرات من قارورة صغيرة في صحن

حسائك.» لم تكد تبوح بما رأت حتّى بدأت أحشائي تلفظ مشروع القتل والفراق هذا.

صممت الرحيل. وأكثر من الرحيل، الانسلاخ عن حبّي المجونيّ لفرانز، كما الافتراق عن ميرا التي أضاءت طفولتي بوجودها.

كلمات قليلة، سريعة، كانت رسالتي له قبل أن يلفّني الفجر ودوماً الفجر، بوشاحه الرماديّ، ويأخذني إلى فصل آخر من مصيري.

عزيزي فرانز

أنت مَن مسح عن جسدي خطيئة الفحش والفجور وأعدت إليه دهشة الاكتشاف بين ذراعيك، كيف لي أن أهنأ بحبّنا بعد اليوم والشرّ جاثم فوق رأسينا، يجعل علاقتنا جحيماً. أنت تعرف ذلك. لكنّك كما قلت لي البارحة أسير ساحرة شيطانية قتلت والدك بالسمّ ولم تدافع عنه وأظنّك ما زلت أسير سحرها، ولن تقبل أن أقاسمها إيّاك، ولن أقبل أن أكون شريكة أيّ كان في هذه الوليمة الإلهية التي اسمها الحبّ. عليّ أن أبتعد وأتعذب بعيداً عن هذا الجو كي تبقى أسطورة حبّنا نقية، فريدة، أستعيد قراءتها على أوتار كماني كلّما اشتعل الحنين إليك في أحشائي.

حبيبتك مايا.

لعجلات القطار صوت سيظلّ يقتحم مناماتي ويعيدني، وأزيز الوصول إلى كلّ محطة راسخ في دماغي، إلى تلك الفصول السوداء من حياتي.

المجهول ودوماً المجهول، كيف باستطاعتي أن أركّب جملة مفيدة حول هذه الكلمة، فأراه في خيالي قبل أن يغدو واقعاً. كان للمجهول طعم الخوف في حلقي منذ اليوم الذي سمعت فيه أمّي تصرخ: «أو أنتما الاثنتين أو لا أحد». ودارت السنون بعجلاتها الصارّة على سكة حياتي، تشاكسني، تمتحن قدراتي الفتية على الاحتمال وأنا على قدر التجارب، أقوم برضوضي، بكسوري وأملأ أوراقي بكتاباتي، وأوتار كماني بالنار قبل أن تأكلني.

بودابست المدينة المجرية التي كانت لي في المرّة الأولى منذ سنوات محطّة في مطار بانتظار الإقلاع إلى لننغراد وما يخبئه المجهول فيها،

مشيت فيها هذه المرّة، أستدّل على الأمكنة التي يتسوّل فيها الموسيقيّ سمعاً من العابرين، ونقوداً ثمن أتعابه، مكسوّة بوقاحة الغجر تلك التي علّمتني الجرأة وعدم التردد. غجريّة أصبحت، أعزف وسط النّاس بجنون، ولهب الحبّ المنطفىء في رسالة، يعود يشتعل كلّما ارتفعت هتافات المحلّقين حولي يطلبون المزيد.

وجودي المؤقت في هذه المدينة بانتظار العودة إلى جدّتي وجنان، كان له طعم التحدي. تأمّلت وأنا جالسة على جذع شجرة الكستناء الوارفة في مساري. هجرتان بل ثلاث هجرات إذا ضممت إلى هجرة أمّي منّي وهجرتي الى روسيا، الحبّ الذي مزّق قلبي ودفع بي إلى غربة أخرى.

تذكّرت والصفحات تمتلىء بحكاية المرأة، ذلك المساء من شهر أيلول والغياب بين أرجوان الوداع وإطلالة الليل في ألوانه المغبشة. كان النّاس يتنزّهون مع كلابهم، يمجّون تلك السكينة التي يمنحها حفيف الأوراق وتساقط البعض منها، المتروّية في احتكاكها بالتربة.

الكمان ألقيته في استراحة على ركبتي من الخدوش التي أمعنت بها على أوتاره. المتحلّقون حولي منذ هنيهات، رأيتهم يبتعدون خارج الحديقة مع آخر نغم من موسيقى «وطني» لسميتانا ويدندنونه في خيالهم. ألقيت بجسدي المتعب على الأرض وأسندت رأسي إلى جذع شجرة، شعرت بأغصانها الوارفة سقفاً واقياً. هذه الهنيهات مع وشوشات الهواء بين الأغصان كانت لي فرصة أتصوّر فيها حياتي المقبلة. امرأة، تجارب الدنيا في دفاترها، طيّعة في يد القدر حيناً، مسيطرة عليه حيناً آخر، دونكيشوتية تحارب المصاعب بقلمها وقوسها.

رفعت تلقائياً الكمان إلى عنقي أحتفل بالحياة بصيغتها المفردة، أناجي نفسي الحزينة، كتلك الأغنية التي كانت أمّي بصوتها الجميل، تلوّنها بحنجرتها المرنة... وتكمّل الأغنية «وأسمع نشيد الطيور»...، صوتها البعيد في كماني، كان حنيناً إليه لا بالشوق إليها. حين فتحت عينيّ، كان واقفاً على بعد أمتار منّي يستمع إلى هذه الأنغام المسائية الآتية إلى أوتار كماني لا شعورياً من زمن بعيد.

سألني عن البلد الذي أنا منه. قلت: لبنان الحرب. ابتسم بحزن وتضامن، فالحروب ملاحم متعاقبة تدور في أفلاك بلدان العالم كتنين خرافيّ له في كلّ جغرافيا شهوة وغاية.

قبلت دعوته إلى فنجان قهوة في الحانة المقابلة للحديقة. فلهذه الصدفة حسناتها. كنت متشوّقة للقهوة، لرائحتها، للذكريات التي تعلو من لهبها، مرّة، كما كانت جدّتي نسيمة تحبّها، كدواء ناجع ضد آلام الصرع ثم تلوّح بالتفل الباقي في قعر الفنجان، مرّتين أو ثلاث مرّات وهي تتمتم نواياها ثم بحركة رشيقة تطبّ الفنجان على صحنه تاركة للتفل مهمة كتابة إشاراته، حتّى إذا صار التفل رسالة، قرأتها جنان الملمّة بالأساطير وإكسير الرموز.

أدرك أنّ هذه العازفة ليست متسوّلة دروب ولا عابرة حدائق ففي عزفها مستوى عالٍ من الإتقان الأكاديمي. ارتحت لهذا اللقاء الذي أصبح موعداً يومياً في المقهى المقابل للحديقة.

في موعدنا الثالث وقدح الكونياك يليه آخر، روى لي قصّته، فيما بقيت حياتي مستترة لم أكشف منها سوى جواز سفري. فقال: «اسمك مايا وأحبّ أن أناديك مايا... كوفسكي باسم شاعري المفضّل».

أراه آتياً في اتجاهي من مدخل الحديقة الغربي فتنكشح عن نفسي غمامة لم تستطع الموسيقى التي كنت أعزفها للمارة، مداواتها، حتّى بتّ أنتظره على جذع شجرة الكستناء والكمان ملقى بجانبي يتوسّل استراحة. أعطيه يدي فينهض بي عن الأوراق المتساقطة أرضاً، ثم وبهذا الفعل الأخوي النادر حدوثه بين غريبين يبدأ ينفض القشّ والغبار العالقين على معطفي.

كان المغيب موعدنا، نمضي إلى المقهى المقابل للحديقة ونتسامر أنا مع فنجان القهوة وهو مع قدح الكونياك الذي كان يمجّه كطفل يمتصّ حبّة سكر.

هذه السكينة كانت مفتاحاً للبوح وإفشاء ما في القلب. صرت منه أستمع إلى قصّة من تلك القصص التي قضى فيها الآلاف في أوروبا الشرقية موتاً وتشتتاً وشحناً إلى المحارق. كان شاعراً يحكي

بأسلوب الشعر، فتخال لي القصة الآتية من صميم الوجع قصيدة من قصائده.

ليون الشاعر المجريّ الذي أعطته أمّه هذا الاسم تيمّناً بشفيعها ليون تولستوي، كان يتوقف عند أحداث دمّرت الجوهر في قلوب الشعب الروسيّ ووجهه، فتلمع في ذاكرتي ملامح مارينا الفظّة وعيناها الزرقاوان المقزّزتان كثلوج سيبيريا، ثم تنتقل إلى الجلادين اللذين بطلب منها كانا يتلذذان في إيلامي وتعذيبي ويقتحمان أحشائي وأصواتهما راسخة في جمجمتي كعواء الذئاب الجائعة.

عدت من سفري الموجع إلى الراوي أستمع إلى قصته:

«بعد أن تعمدت بماء الشيوعية ظانّاً أن الخلاص للشعب المجريّ آت من ستالين لا محالة صرت مطارداً من هنا وهناك في الصحيفة التي أكتب فيها، في كتبي، في مكتبتي والرقابة تزداد يوماً بعد يوم على الكلمة، على الجملة الموسيقية، على الرأي. لم يعد للمثقف والفنان رأي. تمرّدنا، لكنّ هواءنا كان أصبح موبوءاً فأُبعدت مع رفاقي من اتحاد الكتّاب. صرت غجرياً بالفكر أكتب بأسماء مستعارة لأنجو من العوز. في نفسي المضطربة أرى الجحيم في كلّ مكان، في عيون النّاس كما في عيني زوجتي. صرنا أنا وإنغريد الألمانية عدوّين تحت سقف واحد، كأننا نؤدي بشخصيتينا دور الجلاد والضحية، دور ألمانيا والمجر. إنغريد الماهرة في عزفها بيتهوفن على البيانو، الرقيقة في تصوير الانفعالات الحسويّة بأناملها، تبدّلت بدخول هتلر إلى أوروبا واجتياحه تاريخها وتراثها وذاكرتها. صارت مشروعاً هتلرياً في البيت. صدّقيني، لا شيء أقسى وأعنف من أصابع امرأة مسكونة بالكراهية. هذه الأصابع التي تحنّ ملامس البيانو وتطوّعها تولّت حرق قصائدي في الموقد وهي تقهقه بفجور

المنتصر: «أترى ما وفرت على الجنود الألمان من عناء في ما لو فتّشوا البيت؟».

«اليوم وبعد مضي ثلاثين عاماً على كابوس هتلر وستالين، أشعر بالإنسان الحرّ يتنفّس من رئتي. رميت زرّ الشيوعية في الدانوب كي يتعرّى من ذنوب اقترفها، وعدت إلى الشعر الذي وجدت فيه خلاصي، والضوء الذي ينير حياتي، غير أنّي حين أكتب يخال لي أنّي في اتصال مع الموت، فالحرب تركت من أثرها فوق رؤوس الشعراء طيراً أسود اسمه غراب».

تنبّه لوجودي حين سمع صوتي يسأله:

«ألم يعد لديك أحلام تعيد عليها تشييد حياتك؟».

كان الجواب سريعاً، منتظَراً:

«بل من ضروريات الحياة أن نحلم. في الكتب، في الشعر، في الذكريات، في التّاريخ، في الحياة. بعد الامتحان يدرك المرء أنّ أفضل له بكثير أن يحلم حياته بدل أن يعيشها. لم أعد شاعر البحيرات والحبّ والنهر المسافر إلى المجهول ولا ما قاله الشاعر الفرنسيّ بول إيلويار أنّ حلماً بلا نجوم، هو حلم منسيّ. أحلامي كطائرات الورق المحلّقة في الجو تسيّر خيطها قنبلة مؤقتة تنفجر في عين الشمس وتبلبل نورها. نحن أهل المجر مفتونون بالرحيل. رحيلي أنا في رأسي غجريّ أنا في دروب ذاتي».

غجريّ... قال. هام فكري إلى الجوار، يبحث عن غجريّ نحت اسمه في لحمي. شعرت بدوار يعصف في رأسي، وحاجة ماسة إلى البوح، إلى التعبير أمام هذا الشاعر المجروح، عن جراحي العتيقة

والجديدة فلا أدع قبل رحيلي إلى الوطن، قصّة حياتي مطمورة في أعماقي.

مددت يدي وأدخلتها في كف يده كي أستجلب انتباهه إلى فصول أمست في دفتري جاهزة لتحمل العنوان الكبير الجامع في بضع كلمات فصول كتاب خطّته يد القدر بالحبر الأسود. بدأت من سنابل القمح والضفيرة التي كانت مدخلاً إلى حكايات الخالة جنان، إلى عالمها الأسطوريّ، فنغدو أنا وميرا الساحرة، من شخصيات الميتولوجيا. من هنا انطلقت والفصول تحاك بسرعة فالقدر لا يحب التردّد والانتظار. القرية، العاصمة بيروت، معهد الموسيقى، جامعة الآداب، السفر إلى روسيا وفي رأسي مهمة عليّ تنفيذها. التعذيب في السجن، الهرب منه فالتيه ومحطات القطارات تلك النقطة المرصودة للسفر إلى المجهول، تعيدني في كلّ مرّة إلى نقطة السفر، إلى عالم غريب عن لغتي، عن عاداتي حتّى أصبح معطفي الصوفيّ الغربة التي تقوقعت داخلها. وتغتصبني الغربة حين تجتاحني فكرة العودة إلى وطن تتآكله الحرب كما فعلت بكم الحروب هنا وجرّدتكم من ذاكرتكم. ماذا سأجد هناك بعد اختفاء ميرا وتخلّي أمّي عني؟ هل جدّتي في انتظاري كما وعدتني؟ وجنان العاشقة، التي استعاضت عن غياب الحبيب برسائل وهمية له، كيف ستكون؟...

كان يصغي، والعينان مبحرتان في دموع عينيّ. توقف ملياً عند الفقرة الأخيرة من «الكتاب» كأنه ينقّب في غرابة هذه الأنثى التي أوشكت أن تستبدل الوطن بغجريّ منفي عن جذوره، منتعل غبار الدروب مسكناً، أسير سحر امرأة، كساحرات الميتولوجيا الهوميرية هي...

قاطعته وفي نيّتي أن أبرّر أخطاء اقترفتها:

«في التحامي بفرانز اكتشفت أناي الآخر القادر على الحبّ بعد التجارب القاسية التي مرّ بها. ما قام بيننا كان أكثر من شهوة جسدية، كان انبهاراً يشتعل مع كلّ لقاء. نفاجأ بتلك النار المتفجّرة حمماً منا. معه اكتشفت العشق كما في الشعر، طقوسياً كان، أنقّب بنشوة في كلّ هذا الجمال الذي حطّه الخالق فيه، وأنتشي في ذوباني الكلّي به، وأرتقي حين أسمعه يهمس في أذني:

«من أنت يا امرأة؟» حتّى أصبحت لعلاقتنا هوية وذاكرة والدروب التي نعبرها أوطاناً. كان عليّ ذات يوم أن أفترق عن فرانز وميرا أو قبول السمّ الذي قطرته ماغدالينا في حسائي شفاء لروحها المعذّبة. اخترت الرحيل. صار الوطن يناديني بعدما غدرته وأغفلت عنه.

في اليوم الأخير من إقامتي في بودابست، رحت أتجوّل في الطرقات الواسعة والضيّقة، في الحدائق وبين الأنصاب، علّي أسمع صوت ناي من البعيد يبحث عنّي ليعيدني إليه وفاء للعهد الذي كنا قطعناه: «أنت لي».

لم يأت. جلست في الحديقة المقابلة للمقهى أنتظر ليون لأودّعه. كان على الموعد، متلهّفاً لرؤيتي، حزيناً لفراقي. مدّ لي الورقة التي في يده وقال:

«هذه القصيدة كتبتها ليلاً من وحي ملحمة حياتك، تتوّج في أبياتها الأخيرة لقائي بك».

في تلك الساعة التي يتأرجح فيها الوقت بين حضور وغياب، لم

يكن لدينا ما نقوله سوى الصمت وعنوانين قد يكوّنان ذات يوم لقاء بيننا. قال:

«اتصلي بي. اكتبي لي. سأوافيك حيث أنت علّي أنسيك حبّاً كاد السمّ يميته، إلى حبّ شاعر يحلم بالسلام».

أمسك بيدي وفتحها كمن يفلش ورقة مدعوكة، قرّبها من شفتيه، ثم كتب في قعرها حيث ملتقى الخطوط: «لن أنساك».

القرية كما أوتها ذاكرتي طوال سنوات الغربة وكم كنت بحاجة إليها لأتقوّى، استقبلتني بجسدها الفاحم وأشجارها المشلّعة وبيوتها التي وجدت مع سكانها، مدافنها في الفجوات التي أحدثها طيش الراجمات وغباء المقاتلين.

لم تعد قرية جدّتي المكان الذي تشرق منه الشمس ولا تغيب. فالحرب نزعت عن جبينها معالم البراءة والجوار. سكنني الخوف لدى وصولي إلى مدينة الأشباح وزاد خوفي حين وقفت على أطلال البيت أعاين أضراره. صرت أسمع أصواتاً تحاكيني، تسأل عن غيابي. تجوّلت بين ما كان بيتاً وقناطر مثلّثة والأصوات تزداد في خيالي، أسمعها نداءات، أنيناً، وميرا برفقتي تدلّني على ما كان في ذلك البحث المضني عن الذاكرة وكنت طوال زمن أسعى من الهناك إلى النسيان.

كيف عساي أتآلف مع هذا المكان ولا أجد سوى سراب على خطّ تلاق بين الأموات والقلّة من الأحياء الصامدين في شبه منازل، في خراب تساوى بالنفوس الكئيبة، بفساتين الحداد على من سبقهم إلى الموت، حتّى صرت في تجوالي بين هذه المدافن المشيّدة على حين غرّة، أعزّم الشعور المريع بأنّي ربما ميتة، أحلم كما يحلم الأموات بأنهم أحياء.

الغرفة الوحيدة التي استطاعت مقاومة القنابل، كانت غرفة جنان. كنت البديلة عنها مذ آثرت الجنون على البقاء في جنون الوطن. مسلّحة بالعزيمة التي نلتها مكافأة على فوزي في امتحانات الحياة، بدأت في ترميم المنزل وإعادة كيانه له، من عملي في الصحيفة أوّلاً ثم بدخولي إلى المعهد الموسيقيّ أملأ الفراغ الذي تركه إيغور مانياتوفسكي بوفاته.

قالوا، مات انتحاراً في محبسته في برمانا. قالوا، كان يعاني منذ فترة من انهيار بجهازه العصبيّ وما عاد يطلب طعاماً حتّى خسر عافيته وأصبح هزيلاً. قالوا، كان يستلم بين الفينة والأخرى رسائل ظننّاها منك، حتّى تبينّ لنا بعد وفاته أنّها من مارينا صديقته القديمة تردد له فيها: «وصيتك قيد التنفيذ» وعبارة غامضة أخرى قد تكون هي التي دفعت به إلى الانتحار، كنا نراه يرددها كإنسان في حال من الهذيان:

«تلميذتك الرائعة، هي في صدد التكفير عن فرارك، وتقضي عقوبة جنايتك».

في هذه الخلية التي عدت إليها مدرّسة، كان ما ظننته فقرة من حياتي، مطمورة في أعماقي، مستترة، مشاعاً بين المدرّسين. كنت

أشعر أمام أسئلتهم المحرجة بأنّي مغتالة في صميم أسراري، مكشوفة للعيان، لأطماع المنقّبين في خفايا النّاس. الأسئلة المحرجة كنت أجيب عنها بأجوبة مموّهة، مسطّحة، لا تشبع الفضول وفي آن لا تقطع خيط الزمالة في هذا المعهد.

تخاويت بسرعة بقدر المواطن، أكيّل مسافاتي، أختار الدروب البعيدة عن مصيدة القنّاصين، سعيدة، وللسعادة معنى جديد في أحاسيسي، لأنّي أشغل الوقت ويشغلني. أكتب، أدرّس، أشرف على ورشة بيتي، أزور جنان في المصح، أعطي دروساً في الموسيقى للمساجين، ولا أستطيع أن أسكت شوقي إلى فرانز، هذا الحبّ الذي ارتفع بلهبه، هذا الحلم لم يكن حلماً بل حقيقة. الله صنع عالماً من الحبّ وأعطانا مهمة العثور عليه لكن هي يد الشرّ والغيرة التي جعلت منه سراباً وكذبة، أعميا بصيرتي بضوئهما الساطع.

شعرت والكتاب بين يدي، بعنوانه، بغلافه الترابيّ، وكأنّني أتناول شيئاً مقدّساً. هذه النسخة الأولى التي سلّمني إياها النّاشر تراءت لي كرغيف ساخن، خارج لتوّه من الفرن. كان عجيناً، كان حبراً نازفاً من جراح ثخينة، كان خجلاً من الحياة مدفوناً في طيّات ذاكرتي، وإذا به في تلك اللحظة فعل جريء بين دفتي غلاف يعلّم المجرّبين أمثالي كيف لا يموتون.

مضى فكري إلى جنان. ستكون هي الأولى في لمسه، في تصفحه حتّى ولو لم يعن لها شيئاً. جنان المصابة في فكرها وذاكرتها المسلوبة من متعة القراءة، من لذّة الألم، قد يكون العنوان كالصدمة الكهربائية التي تجعل ارتجاجاً في الخلايا الميتة وتوقظها.

«التوأمان» وهل عرفت سواهما؟ أما بحثت في أرجاء القرية وحولها علّها تعيد العضو المبتور إلى أخيه؟

كانت ممددة في سريرها كجثة وحقنة المصل في شريان يدها المخشّبة. قبّلتها في جبينها كمن يودع ميتاً قبل نقله إلى مثواه الأخير. حاكيتها ولم تجب. كنت أسمع أنيناً من مكان ما في جسدها ما زال يطالب بالحياة. كيف عساي اختراق أسراره المعتمة والطبّ عجز عن شفائها؟

دخلت الممرضة تعاين سير المصل وتتفقّد القروح في أنحاء جسم جنان. قالت دون أن تنظر إليّ وفي صوتها عتاب:

«لقد أطلت الغياب عنها. مرّات وقفت أمام النافذة تناديك كأنّها تريد وداعك».

سألتها: «الوداع؟ وهل هي على وشك الموت؟».

قالت: «إنّها في غيبوبة عميقة. الزفرات التي تخرج من فمها، زفرات نزاع. كانت بالنسبة لي طوال هذا الوقت بمثابة صديقة إنّما من عالم آخر. الجلوس بقربها كان متعة للسمع حتّى بدأت صحتها الجسدية تنهار، وامتناعها عن الطعام كان مؤشراً لرفضها الحياة. وحده القلب بنبضاته البطيئة، ما زال يحكي قصّة هذه العاشقة».

كنت في تلك الثواني على خطّ رفيع بين الحياة المهزومة والموت الواقف كبومة ذلك الزمان، ينعى رحيل امرأة ولدت للحبّ، للحياة، للفرح فارتدّت الحياة عليها تقهر أحلامها. بقيت في ذلك اليوم على حافة سريرها، ملتصقة بها علّي أنضح من عافيتي في شرايينها. صرت أحاكيها بما من كلام في صفحات الكتاب، وبي رجاء. أغلقت الكتاب ونمت على خدّها، تأخذني أحلام صيفية

إلى سهول القمح وجنان المشرقة في فستانها المعرّق، تضحك مع الهواء، فترتفع تنورتها، وتغدو كمظلة فوق الأرض، وأنا وميرا نناديها لكي تعود إلينا.

استفقت من منامي، وعلامات الموت البارد على خدّي.

جنان الغائبة عن ذاتها وعنّي منذ سنوات، مضت هذه المرّة في موكب الذين سبقوها إلى الضفّة الأخرى. الباقية أنا «وحدي»... كررت الكلمة مرات أغرزها في صحرائي لأمتحن مردودها عليّ فيما لو أضفت إليها حرفاً أجره وراءها فأغدو مع وحدي، اثنين، أنا وظلّي، أنا وكماني، وأوراقي. لفحت ذاكرتي عبارة طريفة قالها أحد الطرفاء عن الوحدة: «وأخيراً سأغدو لوحدي، ولكن أسأل نفسي مع من؟».

بفستان جنان المعرّق بأزهار طفولتنا لبست الحداد. هذا الذي نجا من غضب الراجمات كان معطّراً بأعشابها. كانت تسمّيه آنذاك فستان الحبّ ولا نفهم ما تعنيه. لم يفارق جسدها أيّام الصيف تغسله فتعود ألوان الأزهار الذابلة تزهو بالذكريات. أحببته أكثر وأنا أقرأ رسائلها إلى تيبو تذكّره في إحداها أنّ الفستان الذي أحبّه ما زالت قبلاته مطبوعة على ياقته. فأتصوّر ما كان بين الكتف والعنق من استسلام للحبّ.

بفستان الراحلة، قصدت عيادة زياد مرجي لأهديه «التوأمان». كان منكبّاً على قراءته، ناسياً ربما موعدي معه. وقف فجأة حين رآني وصافحني بشيء من التحفظ كبلاغ تسلّمته بألّا أستفزّه مرّة أخرى. فقد يكون أخطأ حين فتح لي صدره ذلك اليوم ودعاني لأغلّ فيه. أو أكون أنا من فرض نفسه على هذا الوحدانيّ الذي

يعيش بين دراساته وأبحاثه الطبّية. أذكر أنّي كنت بحاجة ماسّة إلى حنان أب أكثر منه إلى طبيب نفسانيّ.

«من أنت يا امرأة؟» هذه الصرخة المهموسة في عنقي كما قبلات تيبو على ياقة جنان، كانت معموديتي إلى الأبد. «أنا لك» قلت وسأظل. ومهما ابتعدتُ سيظل فرانز مقيماً فيّ. فهل يقتنع سائر الرّجال الذين ألتقيهم على دروب حياتي بأنّي كثعلب الأمير الصغير أبحث عن صديق لتغدو ساعات الانتظار سعادة؟

بهذا الفرح كنت أجلس مع ليون في المقهى المقابل للحديقة ونتسامر ويلقي كلّ واحد بأتعاب الحياة على الآخر، وما قلناه ساعة الوداع لن يخطو خارج حدود الصداقة.

وضعت كتاب «التوأمان» على مكتبه وشرحت له أنّها قصة ثانية من غلات الحياة وقصدت إصدارها الآن قبل رحيل جنان لكنّ القدر أراد أن تكون في النزاع الأخير فهل استلم لاوعيها بعضاً مما قرأته لها؟

سألني: «هل هو الموضوع ذاته تعيدين تكراره لمداواة دائك به؟».

كان صدامياً، مشاغباً، يريد الخروج مغسولاً من مأزق زججته فيه بلحظة طيش منّي. قلت ورجائي أن تعود المياه إلى مجاريها بين الطبيب والعليل:

«أنسيت ما قلته لي في بداية جلساتي معك؟ اكتبي، الكتابة دواؤك الوحيد. وهذا ما فعلت. لقد استمعت إليّ ووجّهت أسئلتك إلى حيث الأماكن الساخنة. الآن وقد تفوّقت على غدرات الزمان

أصبح بإمكاني أن أنطلق بنفسي. هذان الكتابان هما بمثابة عرفان لكلّ ما بذلته لأجلي من بال وتحليل للأشراك التي سقطت فيها».

لم يجب. كانت نظراته ساهمة في صورة فرويد المعلّقة فوق مكتبه. أدركت أنّه لا يريد أن تطول زيارتي. أقفلت الباب ورائي ومشيت بين صخب الزمامير وعرقلة السير وأنا تائهة في أفكاري:

«هذا الفستان ساواني بجنان. صرت وريثتها عن حقّ. لقد أحبّت حتّى الهلاك وأنا أيضاً. كتبت رسائل حبّ وقهر وانتظار وأنا سلبت رسائلها وأنجبت منها كتباً. فتّش أطباء النفس في حنايا عقلها وأنا قصدت المحلل النفسيّ أبحث عن ذاتي في كومات نفايات حياتي. هي رفضت الحياة بعد أمّها نسيمة وافترقت دروبنا عن بعضها في صراعي العنيد للبقاء».

أين هي تلك النجمة التي دلّت ماجوس الشرق إلى مغارة بيت لحم؟ السماء ملبّدة بالغيوم الجافة، لا تنذر بالمطر. وقفت أمام واجهات المحلات أتفرّج على زينة الميلاد الوافدة إلينا من الصين بكُراتها الحمراء ولفائف الإضاءة الملوّنة، كأنّها تتحدى القلوب الحزينة المجلّلة بالحداد، وتحثّها على تخطي سواد الحرب حتّى لا ينطفىء معنى العيد. شعرت بأنّي ما زلت قادرة على الدهشة. دخلت وبدأت أجمع ما يعيد إلى ذاكرتي أعوامنا السعيدة أنا وميرا. الميلاد كان مقياساً للفرح، للفردوس على الأرض، للطفولة التي تأبى بديلاً لها. كان مقيماً في بالنا أبداً نحضّر له في خيالنا قبل أشهر من حلوله.

من السِلال المصطفة على الأرض كوّنت عائلة المغارة وكلّي شعور بأنّني أُفرح الطفلة القابعة فيّ. حملت الكيس ومضيت إلى الجريدة

أفكّر بزمن مضى سمعته من هذا الكيس يسترجع عمراً، كان كلّ ما فيه مرصوداً للضحك، للحبّ، للسعادة. قلت في نفسي، ما ينقصني الآن وقد صرت جاهزة لأستقبل الميلاد في بيت ألغت فيه البومة منذ زمان حكاية موت وفراق، أن يأتي البابا نويل في نومي ويتذكّرني بهدية بعدما حاد عن درب بيتنا، بعد أن ضلّ عن عنوان وطننا.

كان ساعي البريد في انتظاري، ليسلّمني باليد رزمة عرفت فوراً من طوابعها أنّها من بودابست، ومن سوى الشاعر ليون وحدائق بودابست على علم بي؟

استعجلت الوصول إلى مكتبي وقلبي يقفز طرباً. لفحني حنين وأنا أفضّ الغلاف، إلى المواعيد الحميمة معه، إلى ذلك الحزن المستتر بين تجاعيد وجهه. ليون لم ينسني في هذا العيد. طلبت فنجاناً من القهوة أستعيد به مواعيدنا وأغلقت باب مكتبي لكي أنفرد بما أرسله إليّ. أوّل ما سحبته يدي من الظرف، بطاقة معايدة توقفت هنيهات أمام الصّورة المطبوعة عليها وكأنّنا كنّا في تخاطر. امرأة في عكس الضوء تتطلّع إلى نجمة في الأفق. فتحت البطاقة وقرأت ما كتبه بخط يده، «النجمة الباردة، ساطعة/ استفق أيّها الشارد».

قلت بصوت عال وكأنّي أكلّمه:

«إذا الموسيقى كما قلت لي يوماً هي صرخة حبّ فمن هنا أقول لك إنّها من الشعر ولدت».

كنت في تلك اللحظات وهو يدفق عليّ هداياه، في أمسّ الحاجة إلى رفيق كهذا، رهيف وعميق. أجل! رفيق وكم تخسر هذه

الكلمة من معناها حين توضع في صيغة الجمع.

أخذت الكتاب كخطوة ثانية إلى المتعة. «ذكريات من المجر» للكاتب المجريّ ساندور ماراي. وفي كلمة الإهداء يطلب منّي قراءة قصيدة للكاتب على الصفحة المطوي طرفها. كانت أمامي تقول:

«توقّف! اجلس على قارعة الرصيف/ هنا أمام النافذة في صباحات الصيف/

تغتسل أوراق الكستناء/ وتتطاير في أضواء بهيّة/

وراء النافذة كنتَ تكتب رواية/ في لحظات النشوة/

هنا كنت شاعراً/ تبكي راكعاً/

عدت إلى بداية الكتاب. الريشة ذاته مغموسة في مآسي الحرب. أمجّ تفل القهوة لأتساوى بالقصيدة الحاملة في أسفلها تأريخاً مأساوياً: ميلاد ١٩٤٤ كم من ميلادات مغمّسة بالدم، تسلب كلّ سعي للانتصار على الموت. لكن والقصيدة ترفعني بجبينها المغضّن، رحت أقرأها متمهّلة في كلماتها:

«بعيداً، بعيداً هو العالم حين الحرب تعوي/ بصوتها الرصاصيّ.

نيران الجريمة رقّدت كلّ شيء/ أبواب البيوت منقوشة بالدم/

نهاية العالم شرّعت أبوابها الكبرى/ طقوس القتلى تهيمن في كلّ مكان/

تلك التي تقبّلك اليوم/ تطمرك في التراب غداً/

شعرت بغمامة سوداء تقبض على أنفاسي، خرجت من مكتبي

وأطلقت الصوت بين الزملاء: «بربّكم هل بينكم من لديه عنوان إلى ميلاد سعيد؟» وقبل أن أُتّهم بالجنون، قلت اسمعوا. ورحت أقرأ قصيدة ساندور ماراي، كتبها ليلة الميلاد ١٩٤٤

كانت لسعة الحرب في كلّ منهم ما جعلهم ينصتون إلى كامل القصيدة إلى حيث يقول:

«تلك التي أعانقها اليوم/ تموت غداً/

تلك التي تؤرجحك صباحاً/ تنبذك عند المساء/

أتاني الجواب من أمين، الاختصاصيّ في التّحاليل السياسيّة والملمّ بشؤون الشرق الأوسط:

«الميلاد السعيد، عنوانه في منزلك. أشعلي حطباً في موقدك واشوي بضع حبّات كستناء وبطاطا، واحلمي. وإذا مللت من دفء اللهب احملي كمانك وغنّي معه «يا بابا نويل الصغير/ حين تنزل من السّماء.../ صدّقيني ستعودين تلك الطفلة المرصودة للفرح».

أما الرسالة فكانت أكثر سواداً في بدايتها من ميلادنا الحزين. من بطاقة المعايدة إلى مستهل الرسالة، كأنّ بيننا لقاءً في بحثنا المضني عن تلك النجمة. ليته يعلم كم تطلعت إلى السّماء أتفقدها ولا أرى شيئاً.

العزيزة البعيدة مايا... كوفسكي.

لا شيء في السّماء ولا على الأرض يدّلني على الدرب التي عليّ السير فيها. أين هي النجمة رفيقة المسافر والشعراء؟ الأيّام تتمطى فأشعر بالملل هذا الداء الخطير،

نقيض الحياة. حتّى الآن لم أكن لأعيره انتباهاً وأنا أواصل حياتي في الصّحافة والشعر. فجأة تراءى لي سؤال كبير، مخيف: كيف يقضي الإنسان على حياته؟ فما معنى أن يدور الإنسان في فلك ذاته بلا هدف، بلا رؤية مستقبلية؟ كنت في هذا الوضع المرير، إلى حين حصلت معجزة أنقذتني من شياطيني. لقد عيّنت ملحقاً ثقافياً في السفارة المجريّة في واشنطن، ولا أزال وأنا أخطّ لك هذه الكلمات أتساءل إذا كان ما أعيشه حلماً. إذ كيف السبيل للخروج من مياهي المستنقعة إلى الضوء؟...

بقدر ما كنت أتوغّل في الكتابة المرصوصة كانت تتوضّح لي شخصية رجل تشاؤميّ، حفرت فيه مآسي الحرب والثورة أثلاماً لا شفاء لها مهما ضحكت له الدنيا وحاولت إخراجه من مستنقعه.

طويت الرسالة وأدخلتها بين صفحات الكتاب، فهي من لحمه وأوجاعه. رأيت كيس زينة الميلاد في زاوية الغرفة يرمقني. طمأنته. سنصنع الميلاد معاً وسنشوي الكستناء، وسأعزف لميرا أغنيتها المفضّلة وستغنّيها بصوتها. أجل سأسمع صوتها يأتيني من الهناك صافياً كمياه الينابيع، يرافقني على كماني.

نفضت عنّي هذا الرصد الممعن في تعذيبي. لن أكون بعد اليوم مكبّاً للدموع، ومآسي الآخرين. شجرة الحقيقة أورفت بعد تجارب مأساوية أغصاناً ندّية من الخشب الذي صلبت عليه مرّات.

بكرة العمر في ليلة الميلاد هذه، كانت لا زالت تكرّ خيوطها الخياليّة وتعود تلفّها من آخرها إلى أوّلها، لتتكرر معها الحكاية.

العاصفة التي بلّغت عنها نشرة الأحوال الجوّية على التلفزيون، بدأت قبيلة منتصف الليل. فالأمطار التي انتظرناها منذ أسابيع، اختلطت بقوّة الرياح، هوجاء، تلطم النوافذ بقبضات مارد. واللهب الذي كان منذ هنيهات أنيسي وشريكي في هذه الليلة، صار مشحوناً بهبّات الرياح الصافرة في المدخنة، الحاملة في بعثرتها نار الموقد في كلّ اتجاه، إنذاراً. كأنّ أصواتاً تحذّرني، أصوات استغاثة. لم أحكّم عقلي. فالخوف امتلكني وبلبل أفكاري. تركت للحطبتين المتصارعتين مع النّار والريح مهمة تهدئة الجو ومضيت إلى غرفتي على ضوء شمعة.

تمدّدت في سريري تتجاذبني الأفكار كمركب ضائع في البحر،

أفكّر بإيغور الذي أرسلني إلى الجحيم، بمارينا واتهاماتها الباطلة لتدميري، بفرانز وحبّه كالشهب، لا يكاد يشتعل ويسعر حتّى ينطفىء ومعه الوعود، بليون وكلمة جوهريّة كتبها وما زالت محفورة في الكف عند ملتقى خطوط الحياة: «لن أنساك». وهو في طريقه الآن إلى واشنطن ورسالته نواح وبكاء، بزياد المحلل النفسيّ المحتاج إلى طبيب نفسانيّ أكثر من سواه، بأبي وقبلته الوداعية الباردة كالتي تطبع على شاهدة القبور...

كنت في صدد استرجاع ما قاله أمين عن الميلاد والوصفة التي لا بدّ منها من كستناء وبطاطا وأغنية كساءً للسعادة المرجوّة، حين سمعت قرعاً على الباب. لم تكن قبضة ريح، فالرياح تلطم الأبواب، تتسلّل من شقوق الخشب، لا تنتظر جواباً. كانت قبضة إنسان كلّها استغاثة كالصوت الذي كان منذ هنيهات في الموقد. قمت بحذر والخوف يشلّ ركبتي إلى أن وصلت إلى الباب وسألت: من القارع؟

كان صوت امرأة، صوت أمّي العائدة من غربتها إليّ: «مايا هذه أنا يمنى، أمّك».

كدت أقول أنا يتيمة الأمّ والأب، لكنّ الطفل الصغير الذي أويته في المغارة لطمني في ضميري. فتحت الباب ودعوتها للدخول دون شهقة اللقاء، دونما عناق. كنت على مسافة منها لتدرك أنّي لم أعد ابنتها منذ أكثر من ربع قرن. أما قالت لي وهي تفجّ رأسي في الجدار «أو أنتما الإثنتين أو لا واحدة»؟

من هذا الكلام العادي الذي يتجاذبه الغرباء قلت:

«غداً صباحاً سنرى بعضنا أفضل. انقطاع التيار الذي أصبح منذ الحرب من نظام عيشنا، أعطى للشمعة أهمية. إنّها سيّدة الليل. استريحي بانتظار أن أجهّز لك منامتك». كدت أتفجّر ضحكاً وأنا أتصرّف مع هذه الغريبة وكأنّي صاحبة نزل ساهرة على راحة نزلائها.

الهدوء الذي سيّر خطواتي كان نقيض الزلزال الذي بلحظة دمّر البنيان الذي كافحت طوال ربع قرن لترميمه.

صارت الأسئلة تركض في دماغي ككلاب مسعورة، دون أن أخرج عن سلوك الضيافة.

بعد دقائق وهي في ظلمة الصالون جالسة، دعوتها للعشاء:

«لا شك أنّك في هذه الليلة، كنت ترغبين بعشاء من وحي العيد. لكنّني لم أكن في انتظارك، فاعذريني على الحساء، والبطاطا المشوية».

قامت بثقل تتبع نور الشمعة إلى أن وصلنا إلى غرفة الطّعام. جلست قبالتها، أتأمّل وجه يمنى الذابل، المجعّد، والمرارة حول شفتيها تجاعيد رقيقة. رفعت الملعقة إلى محاذاة فمها ثم أعادتها إلى الصحن وفي بالها أن تقول شيئاً:

«ميرا كانت سبب انشقاقي عنك. لعلّي كنت لا شعورياً أفضّلها عليك. تبكيت الضمير أقعدني في هذه الغربة المميتة، في عزلة. والرسائل التي كانت تصلني من جنان تخبرني عنك. أمّي نسيمة صارت البديل عني وجنان الأمّ الثانية التي سهرت على أنوثتك

وعلّمتك أن تصبحي راشدة. بدأت الغيرة تنهشني ولا أتجرأ على اصطحابك إلى أوستراليا. كنتِ كما عرفت من رسائل جنان كلبوة جريح، ترفضين الاقتراب منّي، تودّين محونا أنا وربيع من ذاكرتك. ميرا ظلّت جرحي الذي لم يندمل، وأنت سراب لم أعد أتذكّر ملامحك».

كأنّها كانت تسرد عليّ قصّة أناس لا أعرفهم. هي وربيع اسمان دفنهما الزمان، حيث لا مجال لنبشهما من قبره. كانت صريحة في كلامها، لا تجامل، ولا تموّه عواطفها، عاملتها بالمثل:

«ربيع... يمنى... ذاكرتي أقفلت عليهما منذ أكثر من ربع قرن. ميرا توأمي هي الباقية، في كتاباتي الصحافية، في رواياتي، في موسيقاي، في ذكرياتي الحلوة معها، في تلك الفقرة التي عشناها معاً مع جنان في سهول القمح وعلى البيادر. الباقي تخطّاه العمر، حتّى أنّي لم أسألك عن هذا الذي طبع على جبيني قبلة باردة وداعيّة واعداً إيّاي بأخذي إليكما حين يثبت وضعكما هناك. هل تذكّرني؟ وأنت الخارجة من هذا الباب لم تلتفتي إليّ، وكنت رغم كدماتك الشرسة في رأسي أنتظر منك لفتة أمومة تدمل قلبي المثلّع. لم تفعلي. بربّك قولي هل لعودتك من غاية ما؟ عمّ جئت تبحثين؟ ميرا مضت في الغياب. جنان جنّت وماتت في المصح. جدّتي، وكنت في الغربة لم أعلم بوفاتها إلى حين عدت واستمعت إلى ما حدث من الباقين في القرية، من نبيلة والكاهن وغيرهما. لقد رووا لي كيف حاولت جنان بلحظة جنون أن تنهض الجدار الذي دمّرته الراجمة على أمّها. قالوا إنّ عويلها ملأ الدنيا.

«اعلمي ما دمت هنا، أنّ النّاس مهرّجون في وصفهم. الطائفية

جرثومة تنخر الإنسان في صميمه وتلّقنه دروساً بالعنصرية. الأحزاب مستولية على هذا البلد الصغير تمعن فيه خراباً أقوى من مفعول القنابل والراجمات. إنّه بلدي، تركته فتية وعدت إليه والشيب بدأ يفلح أثلاماً في شعري».

قالت بصوت خافت:

«كانت أخبارك تصل إليّ من الراهب الذي كان يتنقل بين لبنان وأوستراليا ويجمع التبرّعات ليتامى الحرب. هو من أخبرني أنّك تعلّمين الموسيقى للمساجين، وأنّ التحقيقات الصحافية التي تقومين بها عن مآسي الحرب جريئة وأحياناً انتحارية كما قال. أخبريني عن هذا العمر الذي مضى».

شعرت بسكين تطعن قلبي. وهل يسعني البوح بكلّ ما قاسيت إلى التي نكرتني وجعلتني بلا أمّ؟

«عمري خزّنته بدقائقه وحذافيره في كتاباتي. لقد صدر لي حتّى اليوم كتابان، سأضعهما على وسادتك وستجدين فيهما أجوبة على أسئلتك».

كانت تستمع إلى ما أقوله ونظراتها سابحة في الثلوج المتساقطة رقعاً على النوافذ. قلت في نفسي ليتني يوم كنت برعماً استطاعت يدي أن تحطّ على شيء اسمه أمّ. كأنّها قرأت ما في فكري، وفي بالها محو أيّ إثم عن سلوكها تجاهي:

«أوستراليا كانت بالنسبة لوالدك الملاذ الذي فيه سيعيد بناء العائلة من بنين وبنات فيما الاغتراب كان لي هرباً من الكارثة التي هبّت

إعصارها على رحمي. لم يعد بوسعي أن أبني علاقة جسديّة مع ربيع. صار فظاً شبيهاً بالرجل الذي أحببته في بداية زواجنا، وكان ينتظر منّي أن أبشّره بولد آت. وجنان كانت شاهدة على تلك الفترة التي كانت رحمي ترفض فيها الحمل. إلى أن ولدتكما توأمين شعّ البيت بوجودكما، وعادت معكما المياه إلى مجاريها. الحكاية تكررت في أوستراليا. لم أعد بنظره امرأة من لحم ودم، صرت إناء يكبّ فيه سائله حينما يشاء وينتظر منّي بشارة، إلى أن أعلمني ذات يوم بأنّه على علاقة مع فتاة أوسترالية تنتظر منه ولداً، وعنده الرغبة لتحلّ مكاني. كلماته كانت مقتضبة وواضحة:

«عودي إلى الوطن ما دامت الحرب انتهت هناك، وسأسدّد كلّ نفقات السفر. حياتنا معاً انقضت».

«وعدت». سكتت عن الكلام وعيناها في صحن الحساء البارد والليل يدعونا إلى النوم. قمت أجرّ قدميّ تعباً وقلت لها: «تصبحين على خير».

في الصباح الباكر وجدت أمّي جالسة قبالة الموقد تحرك بالملقط بقايا شرارات نازّة من بين الرماد، قبّلتها وتمنّيت لها ميلاداً مجيداً.

دخلت معي إلى المطبخ وصارت تحضّر معي القهوة الصباحية والفطور. لاحظتها تتخذ مكانها في هذا البيت وتثبّت قدميها فيه. شعرت كمن يسلب منّي وحدتي. وكأنّ الشعار الذي أرسيته في حياتي الجديدة «أعيش مع وحدي، لا لوحدي» بدأت هذه القادمة ليلة الميلاد بلا موعد، بلا تحضير، تبعثر سكينته.

كادت القهوة تفور من الركوة وأنا ساهمة في هذا التغيير الطارىء على حياتي. اللكمة التي تلقّيتها من طفل المغارة أعادتني إلى تعاليمه: المحبّة والصفح.

أجراس الكنائس كانت تزغرد فرحاً وتدعو المؤمنين إلى قدّاس

الميلاد. سرنا معاً وهي متأبّطة ذراعي كصديقة غابت عنّي زمناً وعدنا فالتقينا. طوال رتبة قداس الميلاد كانت راكعة تصلّي.

في طريق العودة قالت وفي حنجرتها بكاء محقون:

«لي طلب، رجائي ألّا ترفضيه لي».

كنت مستعدّة في هذا اليوم أن أكون أكثر ليونة معها، وأكثر لطفاً من البارحة. كان عقلي يقترح عليّ أن أبني معها حسن جوار ما دامت مقرّرة السكن الدائم معي. غريبة صلة الدم كم تفقد من خرافتها الجميلة، حين ينزف الدم خارج وعائه. كنت موقنة بأنّها تبادلني الشعور ذاته. أما اعترفت بأسلوبها الفجّ أنّها كانت تفضّل ميرا عليّ وكنّا في حياتنا القصيرة معاً ملتصقتين بأصابع اليد لا نفترق؟

«لي طلب رجائي ألا ترفضيه»... قبل أن أسألها عن طلبها هذا صارت تمرّ أمامي مشاهد من الأمس، كانت تعبر آنذاك دون أن تترك أسى في قلبي لامتلائي بحبّي لميرا. وإذا بها تطفو فوق مشاعري البنوية، تظهّر نسخات أفلام طفولتنا السلبيّة، وتخرجها للعنان.

الصوت في سمعي اشتدّ صداه:

«ميرا اعزفي «موسيقى صغيرة الليل»، ضيوفنا مشتاقون لسماعك» فتتطلّع فيّ ميرا ومضة، قبل أن تلبّي الطلب. وأفهم مغزى نظرتها إليّ. فالمقطوعة لعبناها معاً في المدرسة وفي البيت وفي عيد الأمهّات.

وأسمع ميرا من البعيد تذكّرني بأمّنا تضمّنا إلى قلبها حين كنّا

ننشد لها معاً في عيد الأمّ. «هل نسيت؟» تقول لي، فيتبدد الجور الذي كان منذ لحظات يعصر قلبي ألماً.

أجل نسيت المرّات القليلة التي تذكّرت فيها حضوري، وأتذكّر الآن هذا الحبّ المنحاز لتوأمي.

عدت إلى طلبها من ذكرياتي البعيدة، أرى ما في خلدها:

«هو الحلم ذاته ينكّد نومي وأنا في عالم الاغتراب أحاول أن أنسى صوت ميرا، لا يهدأ، لا يبتعد. تناديني كغارق يستغيث لأوافيها إلى حيث يلتقي النهر بالبحر. أودّ أن أفي وعدي لميرا وكم عاجزة أن أقطع هذه الدرب بمفردي. أترافقينني»؟

ملتقى النهر بالبحر... حكاية قديمة روتها جنان لي من حكاياها الأسطورية، وإذا بها تتقدّم مجيء أمّي إلى الوطن مرتبطة بمناماتها. هي قصّة فتاة الحقول التي تعدها عرّابتها الساحرة بلقاء مصيريّ مع بحّار أسطوري آت من الشرق البعيد يتمّ عند ملتقى النهر بالبحر، فيأخذها إلى مملكته و...

سمعت أمّي والقصّة تحوك فصولها في دماغي، تقول:

«لا أدري حجم هذه المخاطرة. فالنهر دافق والدروب كما أتذكّرها ضيّقة على ضفّتيه وسأغامر... معك، علّي أشفى من وسواس مناماتي.» لم تكن تكلّم ابنتها بل مسعفة عليها المخاطرة معها.

ذكريات الماضي قوّت عزيمتي. هذه المغامرة ستكون ربما كشفاً للغيب. قلت:

«اتكلي عليّ، فبأقل من ساعة نصل بالسيارة إلى القرى الساحليّة ومن هناك يسهل علينا بلوغ المكان الذي في فكرك».

لم يرضها اقتراحي. فالحلم رسم الدرب كما قالت. الانطلاق سوف يكون من أسفل الوادي ومن المكان الذي كنّا نفترش فيه حصيرة ونمضي نهاراً في الهواء الطلق وأقدامنا في الماء.

هذه العودة إلى الماضي فتحت نوافذ في ذاكرتي. رأيت أمّي وجنان ترفعان طرف الفستان وتتوغّلان في الماء حتّى الضفّة الأخرى، وميرا كفراشة لا وزن لها سوى جناحيها تهمّ في اللحاق بهما، لولا الصراخ والتحذير. كنت على هذه الصخرة المالسة أجلس وأتفرّج على ما يدور حولي، ولا أتجرّأ على اقتحام المجهول في هذا النهر. ميرا كانت من صنف «كوري» التي ابتلعتها الأرض فيما كانت تقطف الزهرة المحرّمة.

وأتى صوتي من الماضي يقول لها علّها ترتدع عن مشوارها الشاق هذا:

«الدروب على ضفاف النهر ضيّقة وعسيرة. الماعز وحده بحوافره الصلبة قادر على تسلّق الحفافي وهبوطها».

قرارها كان قاطعاً آتياً من حلم غامض:

«الماعز ليس أفضل وعياً منّا. سنتأنّى في سيرنا».

انتظرت أن يصفو الطقس ويذوب الثلج عن حفافي الدروب لنقوم بمغامرتنا، التي ربما قامت بها ميرا ذات يوم ولم تعد منها.

مشيت أمامها ويدي إلى الوراء ممسكة بيدها. الأعشاب الرطبة تهدّد كلّ خطوة بالانزلاق وأمّي تتمتم صلوات ليرفق الله بنا.

كان النهر بدأ بالانحدار حين وصلنا إلى قرية لا تعلو عنه سوى أمتار قليلة، والطريق إليها سهلة، قطعناها ودخلنا إلى مقهى خشبيّ تديره امرأة مسنّة. لم تنتظر الطلبية، فاللائحة واحدة: إبريق من الشاي وركوة قهوة وصحن من لبنة الماعز مغمّسة بالزيت، ورغيف من الخبز المرقوق.

كان البرد لطيفاً يستثير الشهية والسيّدة تحوم حولنا وعلى لسانها ألف سؤال: من نحن، من أين أتينا، ومن أجبرنا على المغامرة في منحدرات النهر الخطيرة. أجبتها أنّ السيّدة آتية من اغتراب طويل وأمنيتها أن تستعيد معالم المنطقة كما في صباها.

هزّت برأسها عن غير اقتناع وتمنّت بشيء من السخرية للسائحة مشواراً موفّقاً.

هذه الاستراحة مكّنت قدمي أمّي في رحلتنا العبثية. كنت أشعر بالحصى تزلق تحت ثقلنا فيأخذها النهر بسيله. بعد ساعات من السير المضني خرجنا من جحيم النهر إلى قرية ساحليّة وفي قرارة نفسي ألّا أستسلم لمشيئتها فيما أرادت الوصول إلى البحر.

كانت الساحة صاخبة بالموسيقى وإيقاع الدفوف. تقدّم منّا رجل ودعانا إلى الجلوس بين الحضور. سألته. قال:

«إنّه عيد القرية اليوم. شعراء الزجل لبّوا الدعوة. هم خمسة قوالة من خيرة الشعر الشعبيّ المرتجل».

جلسنا بين النّاس وأنا أشعر بيد أمّي تشدّ على معصمي قلقاً:

«دعينا من الزجل يا مايا فالوقت يدهمنا فقد لا نصل إلى نهاية النهر قبل الدغوش».

كتمت رغبتي في متابعة هذا الحوار الشيّق بين الشعراء وقمت على مضض أتبع أمّي. رأيت في مشيتها تثاقلاً فالرحلة أرهقت جسدها وما زال الفكر مصرّاً على استنباش ما في المنام.

كنّا قطعنا القرية، وقبل أن نتّخذ من جديد ضفّة النهر، استلقت على سلّم خشبيّ يصل ضفّة النهر بالبيت المجاور له، ثمّ قالت:

«ما أجمل الاستراحة هنا وكم أحسن أصحاب البيت في جعل هذا السلّم جسراً متواضعاً، يربط ببضع درجات الأرض بالماء».

جلست بالقرب منها ونظراتي معلّقة بأجمام الوزال الغزيرة على هذا المنحى من النهر، وكنّا ألفناه عالياً بين الصخور.

سمعنا صوت امرأة تنادينا. التفتنا. كانت على مدخل البيت. اعتذرت منها لكوننا جلسنا هنا دون إذن منها قالت:

«بل ادخلا واستريحا هنا. فالمطر لا بدّ آت».

عرّفنا عن نفسينا وجلسنا في ردهة غصّت بالزوّار. وقف الجميع وصافحونا بمودّة. أذكر أنّ الطاولة في الوسط احتوت أنواع الحلويات والسكاكر وإبريق الشاي يجول بين الحاضرين من يد شاب قال لنا صاحب البيت إنّه ابنه علي والعيد عيده.

في وصوله إلينا رأيته يتطلّع بأمّي باستغراب. التفتُّ إليها، كانت شاخصة والعينان مسمّرتان في الحائط كأنّ رؤيا مباغتة جمّدت أوصالها. بأقل من ثانية كانت أمّي تهوي على الأرض والرغوة تطفو من شدقيها المقزّزتين، وجسدها يخفق كعصفور جريح.

التمّ الكلّ حولها يسعفونها بالماء فيما اتجهت عيناي إلى حيث كان منام أمّي يفكّ لغز ميرا:

قبعة القش بشريطتها الزرقاء كانت تتصدّر جدران هذا البيت، وعرق الوزال الذي أيبسه الزمن، كان في نسيج القش، شاهداً على فتاة تركت قبعتها ذات زمن على ضفّة النهر ومضت إلى موعدها حيث بحّار آت من الشمس في انتظارها.

المؤلفة

ـ بدأت حياتها المهنية مع بدايات التلفزيون عام ١٩٥٩ في تلفزيون لبنان، مذيعة ومعدّة «برنامج نساء اليوم» وبعده «حرف على طريق الزوال».

ـ العام ١٩٦٩ التحقت بجريدة النهار وكتبت في الصفحة الثقافية. ناقدة أدبية وموسيقية وفنيّة، وما زالت في هذه المؤسسة حتى اليوم.

ـ ديلوم في الأدب الفرنسي من المدرسة العليا للآداب.

مؤلفاتها:

العام ١٩٩٨: **أوراق من دفاتر شجرة رمان**، دار النهار.

العام ٢٠٠٠: **أوراق من دفاتر سجين**، دار النهار.

العام ٢٠٠٢: **المشهد الأخير**، دار النهار.

العام ٢٠٠٥: «**Dans le Jardin de Sarah**»، كتاب بالفرنسية صوّر صفحاته بالألوان المائية إميل عضيمي.

العام ٢٠٠٦: **أنتعل الغبار وأمشي**، شركة رياض الريّس للنشر.

فاز كتابها الأخير **أنتعل الغبار وأمشي**، مع خمس روايات أخرى بالمرحلة الأولى من اختيار أفضل عمل روائي من بين مئات الروايات المرشحة لنيل الجائزة العالمية للرواية العربية («البوكر» العربية) للعام ٢٠٠٧

العام ٢٠٠٨: **الساعة الرملية**، شركة رياض الريّس للنشر.

حين يشقّ الفجر قميصه

مي منسّى

«لم تكن خائفة، بل جاهزة لما يروي شغفاً امرأة وحدانية نذرت حياتها للموسيقى بعد مقتل شقيقها في الثورة البولشفية. وكنت وأنا أقرع بابها خائفاً عليها. لكن كان كل شيء مرسوماً بيننا منذ الأزل».

«الإنسان الجائع يسرق طعاماً يسدّ به جوعه. والعطشان يجرع حتى من الماء الموحل ليطفئ عطشه. كنت جائع حب وحنان، ومارينا أيضاً. كنا كلانا في هذه المدينة القاسية بحاجة إلى بعضنا لنرتوي. فالموسيقى المكتوبة تحت ستر الليل بالخوف والهلع لا تروي بل تزيد كاتبها نقمة وغضباً».

«مارينا... كانت المرة الأولى أرى فيها جسمها الظمآن عارياً يطلب كساء من القبل والعناق ليدفأ. أخذتها بين ذراعي والليل حارسنا. ننعم بهذه اللحظات النادرة قبل أن يفاجئنا صباح سان بترسبورغ الرمادي».

(من الرواية)

ISBN 9953-21-446-7
9 789953 214467